

جامعة أمدرمان الإسلامية
المكتبة

قسم الرسائل الجامعية
رقم التسجيل ٥٢٢٠

جامعة أمدرمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات الأدبية والنقدية

الشعر في الأندلس وطور المرأة فيه

بحث مقدم للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد الطالبة: ٥٢٢٠

نور مقبل سوركتي

إشراف البروفسير:

صالح آدم بيلو

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ الْبَيِّنَاتِ)

بِأَهْلِ أُنْدُلُسٍ لِلَّهِ دَرَكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارٌ

مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ وَلَوْ تَخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أختَارُ

"ابن خفاجة"

إهداء

إلى من فتق الأصباح في بصري

وأضاء بالآمال فكري

وجعل المودة أنفاس ريحاني وألفي

إلى زوجي العزيز

إلى دوحتي الغناء ابني - بنياتي - وإلى شذراتها

أحفادي

"أهدي بحثي"

“““

شكر وتقدير

عرفانا بالفضل أود ان أسدي شكري العميق الذي أدين به لأستاذي الجليل
البروفسير صالح آدم بيلو وذلك لما قدم لي من علمه ووقته وخبرته الكثير، وكان
لدقته العلمية ولمنهجه الذي يفيض ثراءً وأيديه البيضاء الأثر العميق في إخراج
هذا البحث كما أقدم شكري للدكتور الأكرم بابكر البدوي دشين أمد الله في عمره
ومتعه بالصحة والعافية .

وشكري لجامعة أمدرمان الإسلامية وكلية اللغة العربية خاصة
وشكري العميق لأساتذتي الأجلاء ومنهم أعضاء لجنة المناقشة الموقرين
أملة الإستفادة من ملاحظاتهم القيمة وتقويمهم لجهدتي العلمي ، كما أشكر الأخوة
في الإدارة الموقرة .

أخيراً أود من صميم وجداني أن يلقي هذا البحث الرضا والقبول وأن يكون
مشعلاً على الطريق يزيح من حوله الضباب ويدفع للمزيد من الأقبال مما عجزت
من الوصول إليه فإن وقع فيه نقص أو تقصير فهذا جهد المقل ووفقنا الله لما فيه
الخير وهدأنا إلى حسن القصد .

نور مقبل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :-

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد ابن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه الى يوم الدين اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزودنا علماً انك أنت العليم الحكيم .
وبعد . فهذا هي ذي رسالتي التي أقدمها بعون الله تعالى إلى كلية اللغة العربية بجامعة أمدرمان الإسلامية الموقرة للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب الأندلسي بعنوان :

الشعر في الأندلس ودور المرأة فيه

وموضوع هذه الرسالة من الموضوعات الأدبية التي طوى عليها الزمن جناحيه ولم يهتم الدارسون في البحث والتخصيص عن دور المرأة الأندلسية الشاعرة ولم يسبق أن أفرد بحث مستقل او كتاب خاص بشأنها وربطها بقواعد الشعر في الأندلس وأنها لا تقل أهمية عن الرجل الشاعر ومن هنا توجهت إلى الكتابة في هذا الموضوع الذي ظل نادر الوجود واندفعت إليه بكل طاقاتي ورغباتي سائلة الله سبحانه وتعالى ان يمهّد لي المسالك والطرق ويرزقني القدرة على السير فيه حتى أصل إلى الغاية المؤملة والنهائية المرتجاة والله المستعان بأمره .

يمكن تلخيص أهمية الدوافع التي كانت ذات أمر بالغ الى الكتابة في هذا الموضوع في الجوانب التالية .

أهميته في حقل الدراسة :-

لقد تناول الدارسون القدامى منهم والمحدثون الأدب الأندلسي في جميع مراحل التاريخ والأدبية والسياسية والاجتماعية وإلغاء الأضواء الكاشفة على خصائصه وأغراضه وتفوق أدبائه وشعرائه واستخلصوا من كل ذلك إبداعاته وفنه وتحدثوا عن الأحوال الاجتماعية التي نما في ظلها . والمجموعات الشعرية المعروفة لا تخلو من أشعار رائغة . وكتب الأغاني حافلة بالحديث عن الشعر

والشعراء وغيرها من المؤلفات التي تحدثت عن نشأة الشعر وخصائصه وقيّمته الفنية والأدبية .

فالدارسون قد قدموا بحوثاً أدبية أفادت عموم القراء وتناولوا بإسهاب الحديث عن ابن زيدون وولادة تلك التي شغلت أقلام الكتاب بفضلها وذيوع أخبارها وأثرت دوحة الأدب بشعر بن زيدون لها . فكل ما كتب عنها يكاد يكون قصة زاخرة بالأحداث العريضة مسكوبة بأسلوب يأخذ في اعتباره كل مقاييس الذوق والفن والإبداع وكما أجاد الدارسون في مجال الشعر اجادوا كذلك في مجال النثر وأنواعه حتى اكتملت لديهم كنوز المعرفة وأناروا الدرب لغيرهم وشغفت الأنفس للبحث عن المتعة الفنية التي كمنّت في الثراء الأدبي والفكري الكبير الذي حظيت به بلاد الأندلس . ولا يفوتنا دور المرأة الأندلسية الشاعرة وتلك المكانة المرموقة التي حظيت بها فكان دورها واضحاً وفعالاً في جميع أغراض الشعر المختلفة بفضلها تغنى الشعراء بأنغام ساحرة الإيقاع خالدة على مدى الأزمان ويمكن تلخيص أهمية الدوافع التي كانت ذات أثر بالغ في توجيهي الى الكتابة في هذا الموضوع في الجوانب التالية :-

أولاً :

العناية بدراسة شعر المرأة الأندلسية توضيحاً لنفحات عربية إسلامية حملت إلى بعض الآداب الأخرى أريجها الفواح لذلك وددت أن اجلي بعض الغموض عن نواحيها وما فقد من شعر لعلي أضغ صورة منظمة لفترة هامة من فترات الأدب الأندلسي حقيقة بالدراسة والعناية والتوضيح الا وهي دور المرأة الأندلسية في الشعر إذ أصبحت هي السائدة للتعبير عن العواطف والمشاعر وازدهر الشعر بإثرها ونهض الى أقصى ما يمكن حتى ليظن الإنسان أن كل نساء الأندلس شاعرات .

ثانياً :

لمعرفة تلك الحضارة الإسلامية الراقية التي انشاها المسلمون في مدنه وربوعه فكانت كالقبس المنير في ارض امتلأت بالظلمة وبعدت عن الجدية وغرقت في برائن الضلالة والهلاك .

ثالثاً :

لإلغاء الضوء على حقيقة العلماء واللغويين والشعراء الذين دبجوا بأقلامهم
درر المعاني وكان دور المرأة واضحاً في جميع الاغراض فهن اللاتي جعلن من
الأندلس جنة للفكر وواحة للعقل فملأن رحابها سحراً وسكنن على مسامع الفن
أغاريد الحب وأناشيد الحياة .

رابعاً :

ومما زادني إعجاباً وهزة وطريراً وشغفاً لمعرفة الطبيعة الساحرة والتي
تمثل الأساس لكل فكر إنساني والقوة الفاعلة لكل فن من الفنون وتداخل طبيعة
المرأة الأندلسية الشاعرة والتي كانت بمثابة الوحي والإلهام لقريحة الشعراء فقد
وهبت الأدباء براعة التصوير في جوانب شعرية بديعة تتم بالحياة اللدنة
والأحاسيس المرهفة فدونوا عواطفهم الجياشة نحوها .

خامساً :

التوغل في النفس الإنسانية والمعاشية الوجدانية مع هؤلاء الملوك والأمراء
الذين لم تمنعهم العزة ولا يكاد تطاول الأزمان وتمكن الاستقرار يثنيهم عن الحنين
الجارف إلى المشرق

الصعوبات والعقبات التي واجهت البحث وكيف ذلت :-

أولاً :

من الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث وجدت مصدراً رائعاً من
الكلام لشعر المرأة يملأ القلوب و تشغف به النفوس وذلك لحسنه وجمال تراكيبه
ولكن لم اجد لبعضهن تاريخاً للنشأة او المولد . لذلك بذلت جهدي بين تضاعف
وصفحات المراجع والمصادر وبعد بحث وتقيب استطعت ان أوفر الثمرة
المرجوة لذلك .

ثانياً :

المرأة الأندلسية كانت اقرب إلى التحرر كما يعتقد ذلك والذي هو في حقيقة
من ناحية القول ، أضعف الإيمان تحللاً أكثر منه تحرراً أحيانا نقرأ في شعر

المرأة وموضوعات شعرها جراءة القول والهجوم على معاني الفحش وذلك حينما ترجمت مشاعرها ، ولها من الألفاظ غير المحتشمة التي يتحرج الرجل من ذكرها وكانت في نفس الوقت تساجل الرجل قافية بقافية . لذلك أخذت من شعرهن الرصين القيم الذي يليق بالأدب ومحاسنه وإبداعه .

ثالثاً :

عدم الاهتمام بشرح النصوص حتى تظهر معاني الشاعر وأفكاره وأساليبه وتجربته ولون العاطفة التي شكلت ألفاظه لذلك عمدت إلى تحليل النصوص الشعرية الأندلسية وتدوقتها ونواحيها الفنية والوقوف على مظاهر الإبداع أو التقليد وخاصة التي اختصت بطبيعة المرأة الأندلسية الشاعرة حينما تغنى وتفصح عن مكنون نفسها .

رابعاً :

تتابع النحاة استنباط العلل والأحكام النحوية وخفايا دقائقها ، فكل العلل النحوية نجدها مزيجاً من تعليقات لمعانيها اللغوية والنحوية وما لا يمت على اللغة بصلة لذلك استشفت الجزء الخاص بالعلل النحوية والذي له دور بارز في جهود اللغويين في الأندلس .

خامساً :

وجدت من شعر النساء أيضاً إضافة إلى ترف البيئة ورونقها فقد سكن على شعرهن أنغاما ساحرة الإيقاع ، وكان لهن من الوفرة والنضوج بحيث تشكل ملحماً بارزاً من ملاحم الشعر الأندلسي ، وكما ورد في نفع الطيب والمغرب ان عددهن يبلغ حوالي ستين ألفاً من الشاعرات وهذا العدد وكما يبدو فيه مبالغة ولكنه لا يخلو من حقيقة إذ ان المسيحيين بعد ان احتلوا غرناطة احرقوا بساحاتها عدداً كبيراً من الكتب ، وضاع شعرهن مع ما ضاع من تراث المسلمين في تلك البلاد لذلك جندت كل طاقاتي وجهدي للحصول على أكبر عدد منهن بين شاعرة وغير شاعرة أديبة كانت أو عالمة أو مؤدبة أو كاتبة .

منهج البحث الذي اعتمدت عليه

قسمت البحث الى فصول والفصول الى مباحث

تحدثت في **الفصل الأول** عن الاندلس زمانا ومكانا وأحوالا وشملت مباحثه على التوالي :-

المبحث الأول : اسم الاندلس والسكان والبيئة الجغرافية والطبيعية والمناخ (مع خارطة للاندلس) .

المبحث الثاني : الحياة السياسية .

المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية .

المبحث الرابع : الحياة العقلية والعلمية وامتزاج الثقافات .

الفصل الثاني :-

خصصته لحياة اللغة العربية وآدابها .

وشمل المبحث الأول : نهضة اللغة العربية ومظاهرها

المبحث الثاني : النثر وفنونه واشكاله ..

الفصل الثالث :

جعلته للشعر في الأندلس

وشمل المبحث الأول : أبرز موضوعات الشعر واغراضه المختلفة .

المبحث الثاني : خصائصه ومميزاته .

المبحث الثالث : أشهر أعلامه .

الفصل الرابع :-

خصصته : لدور المرأة في الشعر الأندلسي

المبحث الأول : منه شمل الشاعرات الحرائر .

المبحث الثاني : الشاعرات القيان الوافدات .

المبحث الثالث : الشاعرات الإماء .

المبحث الرابع : اديبات الأندلس / شاعرة وعالمة وكاتبة ومؤدبة .

الفصل الخامس :-

جعلته للدراسة الفنية للشعر الأندلسي يعامه والنسوى خاصة .

وشمل المبحث الأول : -

الاستهلال والتخلص والخاتمة

المبحث الثاني : اللغة ومعانيها

المبحث الثالث : الصور و الأخيلة .

المبحث الرابع : الموسيقى والاوزان والقوافي والدلالات اللغوية .

المبحث الخامس :-

الموشحات

أما منهج البحث الذي ارتضته الدراسة فهو منهج تحليلي يعتمد كل الاعتماد على النص الشعري محاولا الاستفادة ما استطاع الى ذلك سبيلاً مما يقدمه هذا النص من دور المرأة الأندلسية الفعال في مجال الشعر .

مع عدم إغفال المكونات الخاصة والمؤثرات البيئية وعناصر الزمان والمكان والحال ومدى ما يمكن الاستفادة به من هذه العناصر في فهم النص بشكل اوسع دون ان تستأثر به تلك العناصر وحدها .

ولا أنكر فضل من سبقني من باحثين أجلاء وعلماء أذكياء اذ من آرائهم أفدت ومن منابع ثقافتهم ارتويت وادعو الله جلت قدرته ان يؤتي هذا العمل ثماره المرجوه وأمالنا المنشودة وان يعين عليه وينفع به .

وأخيرا أتذكر قول احد الكتاب " لو أردت لبحثي هذا الكمال ما انتهيت منه الى الأبد " .

والله الموفق

نور مقبل سوركتي

الفصل الأول

الأندلس زماناً ومكاناً وأحوالاً

المبحث الأول

تمهيدي

الموقع والبيئة الجغرافية

الفتح العربي الإسلامي

تمهيد

اسم الأندلس ومن اين أتى ؟

لم تعرف شبه الجزيرة التي تشمل دولتي أسبانيا والبرتغال باسم الأندلس وإنما عرفت من أقدم عصورها باسم ايبيريا نسبة إلى الايبيريين (أسبانيا والبرتغال اليوم) الذين كانوا من اقدم من سكن هذه البلاد من البشر. (1)

ثم عرفت بعد ذلك باسم أسبانيا وهذا الاسم قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها وقد استتبطوه من تعبير فينيقي وكان "الفينيقيون" قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد وخاصة الجزء الجنوبي حين أسسوا مدناً لا يزال بعضها قائماً إلى اليوم مثل مدينة قادس Gaiz وكان ذلك في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. (2)

ثم وفد الأغريق على شبه الجزيرة حول القرن السابع قبل الميلاد و أقاموا كذلك في بعض جهاتها وخاصة الجهات الشرقية منها وانشأوا من المدن ما بقي بعضه حتى اليوم كمدينة برشلونة .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد (3) نزل القرطاجينيون شبه جزيرة ايبيريا وأسسوا بها مدناً جديدة مثل مدينة قرطاجة التي سموها باسم دولتهم في شمال أفريقيا .

ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد (4) وبذلك أصبحت شبه الجزيرة ولاية رومانية ، وقد صبغ الحكم الروماني تلك البلاد بصبغته التي ظلت أهم خصائصها من الفتح الإسلامي برغم أن الرومان لم يكونوا حكام أسبانيا حين دخلها المسلمون ، واهم آثار الحكم الروماني التي ظلت حتى الفتح الإسلامي اللغة الرومانية والدين المسيحي .

(1) تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس د. السيد عبد العزيز سالم 1998م الاسكندرية ص 5

(2) نفس المصدر والصفحة

(3) نفس المصدر ص 6

(4) تاريخ الاندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط قرناطة د. عبد الرحمن علي الحجي 1492م ص 23

ومن أوائل القرن الخامس الميلادي^(١) استقر "الوندلس" في جنوب شبه الجزيرة حين أغارت تلك القبائل الجرمانية على ممتلكات الدولة الرومانية وقد ظل هؤلاء حيناً في جنوب شبه الجزيرة ثم أجلاهم منهم القوط وهؤلاء كسابقهم أمثال القبائل الجرمانية الهمجية التي كانت تغير على ممتلكات الرومان في ذلك الحين وقد سيطر القوط على شبه الجزيرة تقريباً وأسسوا ملكاً كبيراً عاصمته طليطلة وظل حكمهم حتى الفتح الإسلامي عام ٧١١م^(٢)

وقد سار القوط أول الأمر سيرة حسنة في إسبانيا ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم إلى أنفسهم وإلى الأسبان جميعاً وذلك بأنهم خلدوا إلى الميزات وتركوا الشعب نهياً للآلام واستأثروا بالسعادة والحرية .

وقد ضاعف الحالة سوءاً كثرة المنازعات التي تحدث بين زعماء القوط على العرش فهناك الفشل السياسي والضعف الحربي والتفكك الاجتماعي وقد تجمعت هذه العوامل المظلمة وهي تتطلع إلى فجر جديد .^(٣)

السكان الأصليون:-

اختلف الباحثون في أصل الأندلسيين وتعارضوا أشد التعارض في اختيار الجنس البشري الذي يندرجون تحته فبعضهم يرى أنه نزل بالأندلس من العرب وساداتهم جماعة فكان أمرهم ما كان . فاما العدنانيون فمنهم قريش ومنهم مدين فأما بنو هاشم من قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب، من هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس واما بنو امية فمنهم خلفاء الأندلس ويعرفون بالقرشيين . واما بنو زهرة فهم باشبيلية أعيان متميزون واما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر المشهور من أهل "حصن المورد" ومنهم الوزير القاضي في النظم والنثر أبو بكر ابن زيدون ووالده الذي هو أعظم منه ابو الوليد بن زيدون وزير المعتضد بن عباد قال ابن غالب في الأندلس من ينسب إلى جُمح وإلى بني عبد الدار وكثير من قريش المعروفين بالفهريين من بني محارب فهر وهم من قريش الطواهر ومنهم عبد

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت ط ٢ ١٩٩٦م ص ٣٥

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة د. أحمد ميكل ط دار المعارف القاهرة ١٩٧٩م ص ١٦

الملك بن قطن سلطان الأندلس ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء وبنو الجد الأعيان العلماء . قال ابن حزم ولهم بالأندلس عدد وثروه واما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، جلهم في طليطلة وأعمالها . ولهم ينسب الوقشيون والكنانيون والأعيان الفضلاء . (١)

واما قيس عيلان بن الياس بن نصر من العدنانية في الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ومنهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة قال ابن غالب وهم باشبيلية خلق كثير ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ولهم منزل بجوفي بنسبة على ثلاثة أميال منها وباشبيلية وغيرها خلق كثير ومنهم بنو حزم .

واختلف في القحطانية هل هم من ولد إسماعيل أم ولد هود على ما هو معروف و القحطانية هم المعروفون باليمانية وكثيراً ما يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس . وهم الأكثر بالأندلس وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعماير والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة وهو مشهور بالموشحات .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس والخزرج . ومن كهلان من ينتسب إلى همدان واما حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمنهم من ينتسب إلى ذي رعين ومن اعيان اشبيلية ومنهم من ينتسب إلى قضاة من ملك بن حمير . ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى حضرموت ومنها الحضرميون بمرسية وقرطبة واشبيلية وبطليوس وقرطبة . ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سلامان ومنهم الوزير لسان الدين الخطيب . (٢)

(١) انظر جمهرة انساب العرب لابن حزم الظاهري تحقيق عبد السلام هارون ط دار المعارف مصر ١٩٦٢م ص ٢٥

(٢) الألب العربي في الأندلس د. عبد العزيز عتيق ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠م ص ٨٦

سائر حيواناتها وطيورها :-

يوجد بالأندلس من الغزال والإبل وحمار الوحش وبقرة وغير ذلك كثير . أما الأسد فلا يوجد فيها البته ولا الفيل ولا الزرافة وغير ذلك مما يكون في الأقاليم الحارة ولها سبع يعرف باللب اكبر بقليل من الذئب وقد يفترس الرجل إذا كان جائعاً .

ويقال الأندلس فارمة الطول وخيلها ضخمة الأجسام مصون للقتال لحملها الدروع ونقل السلاح ولها من الطيور الجوارح وغيرها وما يكثر ذكرها ويطول وكذلك حيوان البحر ودواب بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض .

قال ابن سعيد عانيت من ذلك العجب والمسافرون في البحر يخافون منها لثلاث تقلب المراكب فيقطعون الكلام ولها نفخ بالماء من فيها يقوم في الجو إذا ارتفع مفرط (١) .

أنواع الافاويه فيها :-

قال بن سعيد قال المسعودي في مروج الذهب في الأندلس من أنواع الافاويه خمسة وعشرون صنفاً فيها السنبل والقرنفل والصندل والقرفة وقصب الزريرة وغير ذلك .

وذكر بن غالب أن المسعودي قال أصول الطيب خمسة أصناف المسك والكافور والعود وكلها من ارض الهند الا الزعفران والعنبر فانهما مجودان في ارض الأندلس ويوجد العنبر في ارض الشجر قال ابن سعيد وقد تكلموا في اصل العنبر فذكر بعضهم انه عيون تنبع في قعر البحر منها ما تبلعه الدواب وتقذفه ومنهم من قال انه نبات في قعر البحر .

وقد تقدم قول الرازي أن المحلب وهو المقدم والمفضل من الأنواع ولا يوجد الا بالهند والأندلس .

وفي الأندلس مواضع ذكروا ان النار إذا أطلقت فيها فاحت بروائح العود وما اشبهه (٢) .

(١) هو ما يسمى بالاسبانية (LOBO) وباللاتينية (LUPUS) وقد اطلق الاسم على كثير من الرجال المترجم بهم في كتب التراجم الأندلسية . (فتقر نفخ للطيب ص ١٩٩) .

(٢) نفخ الطيب ص ٢٠٠ .

ثمارها وفواكهها :-

وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله يكثر فيها ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ولها من أنواع الفواكه ما يقدم في غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين الشعري باشيلية .

قال ابن سعيد وهذان صنفان لم تر عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس وما يفضلها وكذلك التين المالقي والزبيب المكربي والزبيب العسلي والرمان السقري والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره . وفي الأندلس من الخيرات التي تنزل من السماء القرمز الذي ينزل على شجر البلوط فيجمعه الناس من الشعراء ويصبغون به فيخرج منه اللون الأحمر الذي لا تفوقه حمرة .

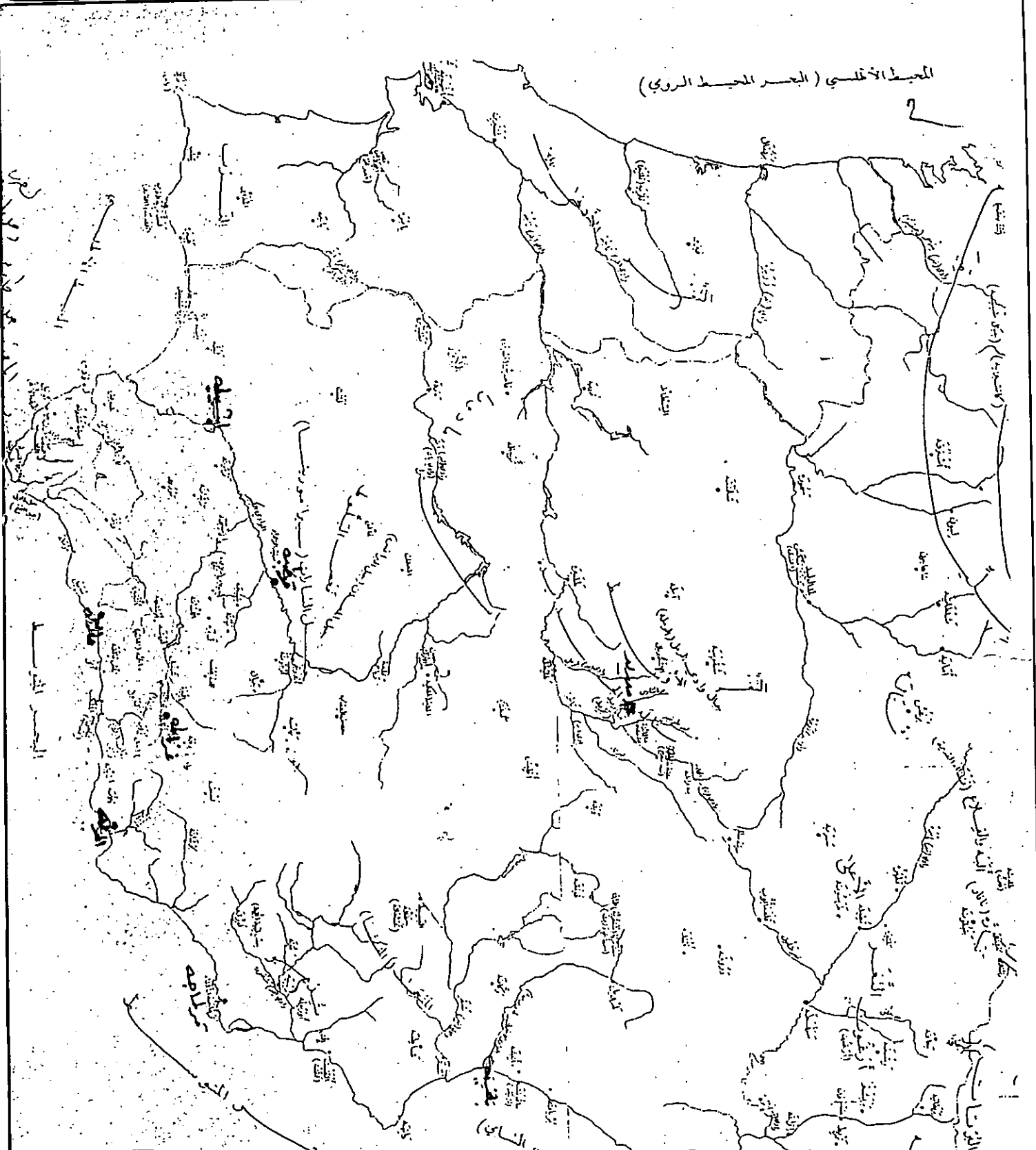
(١-١) الموقع والبيئة الجغرافية :-

بلاد الأندلس شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوروبا والمياه تطوف بها من كل جوانبها عدا جانباً واحداً هو الشمال الشرقي حيث تحدها جبال البرنس الفاصلة بينهما وبين فرنسا . أما تلك الأمواه التي توشك ان تطوق الأندلس فهي مياه البحر الأبيض من الشرق ومياه المحيط الأطلس من الغرب والشمال ثم مزيج من مياه البحر والمحيط في الجنوب حيث مضيق جبل طارق ملتقى البحر بالمحيط والفاصل الضيق بين شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا فهذا المضيق يبلغ عرضه في أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو متراً تقريباً ولولاها لاصقت إفريقيا من الشمال وأوروبا ومن الجنوب (١).

ويؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها : الهضبة الكبرى التي تسمى مستياً Meseta وهي تشغل جزءاً هائلاً من مساحة شبه الجزيرة وتأتي بعد تلك الهضبة سلاسل جبال توشك أن تطوقها من الجنوب تمتد جبال سيرا مورنيا أي سلسلة الجبال السمراء وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبي كبير ينبسط حتى أقصى الجنوب وفي شرق الهضبة تمتد سلسلة جبال أخرى وهي الجبال الأيبيرية

(١) فتح الطيب للمغربي ص ٦٧ في غصن الأندلس الرطيب لآحمد بن محمد المغربي التلمساني تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد دار الكتاب العربي بيروت ص ٦٧ .

المحيط الأطلنسي (البحر المحيط الرومي)



الإندلس
 مسمى الكعبة مكة الأندلسية
 (محافظة مملكة شاملة)



(٥)

وهي التي تفصل بين الهضبة وسهل آخر هو السهل الشرقي الذي ينبسط حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط (١) .

وفي شمال الهضبة تعلو جبال أخرى هي الجبال القنطبرية Gantabrica وهذه الجبال تليها شمالاً بعض الأقاليم السهلية الضيقة وفي الغرب تتحدر الهضبة حتى تنتهي الى سهل ممرح كبير هو السهل الغربي وتجري في الأندلس انهار عديدة أهمها نهر الوادي الكبير الذي يسميه الأسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذي اطلقه العرب ولكن مع تحريف يسير فيقولون (جواد الكبير) وهذا النهر يروي اكثر الأرض السهل الجنوبي ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين قرطبة واشبيلية ثم يصب غرباً في المحيط الأطلس ثم يلي الوادي الكبير شمالاً نهر وادي يأنه ويسميه الأسبان كذلك ما يسمه الغربي فيقولون جواد يان ويقع عليه مدينة طليطلة العظيمة

وبعد هذه الأنهار يأتي نهر دبوراه الذي يسمي عند العرب أحياناً بالوادي الجوفي الذي يطلق عليه الأسبان اسم دور Duero وهو ينحدر إلى الغرب ويصب في المحيط الأطلس . ومن اهم الانهار نهر ابره Ebro الذي يروي إقليماً عظيماً من أقاليم الأندلس فيبرز بين مدنه مدينة سرقسطة (٢)

ومن الانهار الشرقية التي تلي الوادي الأبيض جنوباً نهر سقر وعلى هذا النهر تقع جزيرة سقر التي تتصل اتصالاً كبيراً بالأدب الأندلس ونهر شقورة ويخترق مدينة مرسلية ويروي حتى كبير من إقليم شرق الأندلس (٣) .

الطبيعة والمناخ :-

جوها :-

تقع جزيرة الأندلس في المنطقة المعتدلة الشمالية بين درجتي عرض ٣٦ و ٤٤ فجوها في الجملة معتدل وإن كان مختلفاً مع اختلاف الجهات فهو في السواحل اعدل منه في الداخل لتأثرها بالبحار صيفاً وشتاءً فلا يشتد حرها ولا

(١) الأدب الأندلس من الفتح الى سقوط الخلافة د. احمد هيكل دار المعارف القاهرة ١٩٧٩م ص٧٦ .

(٢) تاريخ المغرب والاندلس احمد مختار العبادي جامعة الاسكندرية مؤسسة الثقافة الجامعية ص١٢ .

(٣) محاضرات في الأندلس وتاريخه ليفي بروفنسال ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده ط القاهرة ١٩٥١م .

بردها كما أنه يختلف باختلاف الإرتفاع والإنخفاض فهو في الجبال ابرد منه في
الثغور ولذا تغطي بالثلج إذ تطاول ارتفاعها كجبل شلير^(١) المطل على غرناطة
وعرف من قديم بجبل الثلج لملازمته له صيفاً وشتاءً

أمطارها : كثيرة ولا سيما في الغرب وهي دائمة طول السنة مستمرة الانسكاب
يزيد هطولها في فصول السنة جميعها في فترات متقطعة اما في الجنوب فيسقط
شتاءً لا صيفاً واما في الشرق فتسقط صيفاً لا شتاءً . قال أحمد بن موسى
الرازي. الأندلسي كريمة البقعة طيبة التربة خصبة الجناب لها انهار غزار وعيون
عذاب قليلة الهوام معتدلة الهواء .^(٢)

نباتها وأشجارها :

تقع الأندلس في حوض البحر الأبيض المتوسط فيزرع فيها القمح والشعير
والذرة والقطن والسكر والموز وتكثر فيها أشجار التوت والزيتون والبندق والجوز
واللوز والفسق والنعنخيل اما فواكهها العنب والرمان والتفاح والكمثرى والخوخ
والجبال التي تحيطها برد الهواء وكثافة الجو .^(٣)

قال بن خفاجة :-

إن للجنة بالأندلس مجتلى حسين ورياً نفس
فَسْنَا صَبَحَهَا مِنْ شَنْب ودجا ليلتها من لَعَس
وإذا ما هبَّ الرِّيحُ صَباً صحتْ وَا شَوْقِي إِلَى الْأَنْدَلِيسِ^(٤)

الفتح العربي الإسلامي :-

الفتح الإسلامي للأندلس لم يأت أصلاً لمجرد ان يقلب وان يشعر بعزة النصر
والظفر وانما جاء لينشر دين الله الحق ويحرر الشعوب من عبوديتها ثم تترك لها
الخيارين الدخول في دين الله طوعاً او البقاء على دينهم مع دفع الجزية .

(١) هو في معجم البلدان والرد من المعطار ونفع الطيب سلير على شين ولام على صورة المصفر .

(٢) الألب العربي في ظلال القوميات احمد الشعراوي مطبعة الازهر ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م ص ١٢

(٣) نص المصدر ص ١٤ جغرافية الاندلس واوريا من كتاب المسالك والممالك لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري تحقيق عبد

الرحمن على الحجى بيروت ١٣٧٨هـ - ١٩٦٨م ص ٨٧ .

(٤) ديوان ابن خفاجة تحقيق د. المنيد مصطفى غازي ط دار المعارف الامكندرية ١٩٦٠م ص ٩٦

والأندلس تمثل في تاريخنا الإسلامي والعرب حقبة مزدهرة وعصوراً مشرقة فعبّر ما يزيد عن ثمانية قرون من الزمن شاد العرب المسلمون في ربوعها حضاره ورقياً وعدلاً وسموا و أقاموا صروحاً شامخة من ألوان المعرفة ومنها الأدب الأندلسي وذلك لماله من اتصال وثيق بحياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية وبيئتها الطبيعية .

ولا يظن أحد أن الأدب الأندلس عبر قرونه الثمانية منفصل عن التراث الإسلامي العربي بل عكس ذلك هو الصحيح ، إذ تربطه به روابط وثيقة وعربي وطيد من اللغة والدين عبر مسيرة الزمن ومنذ أن أظل الأندلس الإسلام بمبادئه السامية ومعارفه الهادفة .

وضم المجتمع الأندلسي أجناساً من البشر منها (عرب وبربر ومغتالية ويهود واسبان) وكانوا ذوي عقائد عديدة وعادات مختلفة والعرب منهم النزاريون والقحطانيون وكذلك البربر ينتمون إلى قبائل مختلفة متنافرة وحتى الأسبان أنفسهم كان منهم المسلم الذي اعتنق العقيدة والمسيحي الذي ظل على مسيحيته يباشر شعائره بحرية وأمان .

ولم يكن من الأمور اليسيرة أن تتصور جوانب شاملة التباين متعددة السمات متشعبة الجهات مختلفة الأهواء في بيئة كالبينة الأندلسية ومن المتوقع ان يكون هناك امتداد لكل نواحي التعدد لحقبة من الأزمنة متتالية متعاقبة وإذا نظرنا الى ذلك التركيب لا نخطئ أعيننا ،كم من الأجناس احتوى وإلى كم من الثقافات تعرض وكم من الحروب خاض مهاجماً أو مدافعاً وكم من الثورات باشر . وكانت للمسلمين جهود خلدتها التاريخ على صفحاته

بسطت جيوش المسلمين سلطانها على شمال أفريقيا ، واستقرت بتلك العدو التي لا يفصلها من الأندلس إلا مضيق جبل طارق وكان ذلك بعد ضحايا عديدين من الجنود والقواد المسلمين وبعد جهاد طويل استمر منذ عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عهد الوليد بن عبد الملك . وكان قائده على المغرب موسى بن نصير صاحب فضل كبير في تثبيت وتوطيد الإسلام في شمال أفريقيا ونشر رأيه حتى المحيط الأطلسي .

ولا شك أن ذلك القائد الظافر كان يتطلع في شوق إلى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق ولكنه فيما يبدو كان يخشى أن يغامر بجيش المسلمين في تلك البلاد لان مصيره فيها كان محفوفاً بالأخطار (١)

ولكن خشية موسى سرعان ما عادت أكثر من الأمن وأصبح تردده في فتح تلك البلاد تصميماً على اقتحامها بجيوش المسلمين وكان ذلك حينما تقدم إليه يوليان Julian (٢) حاكم سبته وعرض عليه تسليم سبته ولاية أفريقية تابعة للقوط تحكمها من قبلهم حاكم وكانت إلى ذلك حصناً منيعاً من الحصون الأفريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد كما كانت ثغراً له قيمته على مضيق جبل طارق ، ويمكن ان يستخدم في العبور إلى جنوب أسبانيا . أما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخي على موسى ؟ فسؤال للمؤرخين في الإجابة عنه أقوال عديدة وترجع في حملتها إلى وجود ضغائن بين يوليان هذا وبين ملك القوط فحينئذ المسمى رذيق . ومهما يكن من امر فقد رغب موسى بهذا العرض وأرسل احد محاربيه واسمه طريف على رأس قوة صغيرة عبرت المضيق على سفن قدمها حاكم سبته . ونزلت في جنوب شبه الجزيرة بمكان لا يزال يحمل اسم القائد المسلم إلى اليوم . حيث يسمى جزيرة طريف Terifa ثم عادت تلك السرية إلى شمال أفريقيا وذلك بما طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد وكان عبور هذه السرية إلى جنوب اسبانيا عام ٩١هـ - ٧١٠ م (٣)

وفي السنة التالية ٩٢هـ - ٧١١م ارسل موسى جيشاً كبيراً بقيادة طارق بن زياد لفتح هذه البلاد وقد عبر جيش طارق هذا المضيق الذي سمي باسمه فيما بعد ، ونزل من جنوب شبه الجزيرة في هذا المكان الذي سمي كذلك بجبل طارق وكان

(١) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأنلس لابن الفرضي نشر السيد عزت العطار القاهرة ١٣٧٢هـ ط ١ ص ٣٤٤.

(٢) جزوة المقتبس في نكر ولاة الأنلس لابن عبد الله الحميدي تحقيق محمد الطنجي ط دار السعادة مصر ١٩٥٣م ص ٣٢٢

(٣) نهاية الأنلس وتاريخ العرب المنتصرين محمد عبد الله عنان القاهرة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م ص ١٦

عبور هذا الجيش على سفن الحاكم سبته ، كما كان يرافقه أدلاء من قبل هذا الحاكم (١).

دوافع وأسباب الفتح

من دوافع وأسباب الفتح العربي الإسلامي

١/ سوء الحالة الاجتماعية الداخلية بأسبانيا و غطرسة الرومان أولاً والقوط ثانياً وقسوتهم على الأهالي ، وإهمالهم مصالحهم ، وإتقال كاهلهم بأعباء الضرائب،^(٢) الثقيلة واستمتاع الطبقة الحاكمة بخيرات البلاد ، وسلبهم حقوقهم وانقسام الأهالي على طبقات الطبقة العليا وتشمل طبقة الحكام ، وهؤلاء عاشوا في نعيم دائم كأنما حكم على الطبقة الفقيرة ان تجمع الأموال ، ووضعها في خزائن الطبقة الحاكمة .

والطبقة الوسطى في طبقة الرأسمالية وهؤلاء احسن حالاً من الطبقة الثالثة وهي طبقة الزراع وعامة الشعب وهؤلاء لم يستمتعوا بالحقوق كاملة فلا يبيعون أملاكهم بغير إذن ساداتهم .

٢/ اضطهاد رجال الكنيسة اليهود وانتقل القوط كواهلهم بالضرائب فكره اليهود عهدهم وتربصوا بهم فلما قدم العرب لفتح البلاد كانوا لهم عيوناً ومرشدين يمدونهم بالأخبار ويهدونهم الطريق . .

٣/ سخط الشعب على زريق آخر حكام القوط وعلى أبنائه الذين كانوا امتداداً له فحقد عليهم ابناء شعبهم وذلك لانغماسه في الملذات وانحرافه عن الجادة .

٤/ تصميم يليان حاكم سبته على الانتقام من "زريق" الذي تعدى على ابنته فذهب إلى طليطلة لزيارته وهو يود الانتقام منه فحاربه وانتصر عليه .^(٣)

٥- علو الروح المعنوية في نفس جنود طارق بما بثه فيها من الثقة بالنصر والظفر وبما اذاعه من أحاديث واشاعه بين الجند .

(١) آداب الواقدين لابن بسام عدد حزيران ١٩٧٤م . الموصل ص ٧ انظر فجر الأنلس ص ١٨

(٢) الألب العربي في ظل القوميات ص ١٦

(٣) الألب العربي في ظل القوميات ص ١٦

٦- رؤيتهم بلادا جميلة خصبة تعري بخيراتها و ارزاقها الناظرين والاستمتاع
بنعيمها وجمالها الأخاذ.

عوامل نجاحه : وقد هزم طارق كل الحاميات التي التي تعرضت له بعد نزوله
بالشاطئ الأسباني . ووصل نبأ طارق وجيشه على ملك القوط الذي كان في شمال
شبه الجزيرة يخضع لبعض الثائرين فأسرع بالعودة إلى طليطلة العاصمة واستعد
بجيش كبير للقاء الفاتح المسلم ولم ينتظر حتى تدخل عليه جيوش المسلمين
عاصمته طليطلة بل اتجه بجيشه جنوباً للقاء طارق وجيشه .

وفي سهول شريش قرب مدينة قادس وعند وادي لكة التقى الجيشان في
معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين وتشتيت جيش القوط رغم تفوقه في العده
والعدد على جيش المسلمين . وبعد هذه المعركة الرئيسة الحاسمة أرسل طارق
بعض محاربيه لفتح قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها من المدن والأقاليم التي
اتجهت باكثر الجيش إلى العاصمة القوطية طليطلة فدخلها وأسس دولة المسلمين
في الأندلس على انقاض دولة القوط .

وفي العام التالي ٩٣هـ - ٧١٢م^(١) عبر موسى بن نصير إلى الأندلس
بجيش جديد ونزل في مكان آخر هو الذي يسمى الآن بالجزيرة الخضراء ثم سار
في طريق آخر غير الذي سلكه طارق واخضع في طريقه عدداً من المدن والأقاليم
التي لم تكن قد خضعت بعد مثل شزرنة واشبيلية ومارده وبعد ذلك وصل إلى
طليطلة .

وفي غمرة الانتصار استدعى موسى بن نصير الى دمشق للقاء الخليفة
على ان يكون في صحبة طارق فأوقف موسى الزحف وعاد إلى الجنوب واطلع
مرشدي الأندلس ما استطاع وولى ابنه عبد العزيز على البلاد وترك شبه الجزيرة
واتجه مع طارق الى دمشق عام ٩٥هـ - ٧١٤م .

(١) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين محمد عبد الله عنان ط لجنة التأليف الترجمة والنشر ١٩٦٦ ص ١١٨

المبحث الثاني

الحياة السياسية

(٢-١) الحياة السياسية

الأطوار التي مرت بها الأندلس بعد الفتح

دخل المسلمون شبه الجزيرة الأيبيرية وكانت لهم فيها دولة بل دول ومرت عليهم أحداث وتاريخ طويل وتتابعت على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكمين . وحسبنا في هذا المقام ان نشير الى ان هذا التاريخ الطويل الذي قارب ثمانية قرون^(١) يقسم عادة إلى عصور هي :-

١/ عصر الولاة :

٩٢هـ - ١٣٨هـ - ٧١٤-٧٥٥م

يبدأ عصر الولاة في الواقع بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي اتخذ من اشبيلية عاصمة للأندلس وقد اجمع المؤرخون على أنه كان من خيرة ولاة المسلمين على الأندلس غير ان فترة ولايته لم تدم طويلاً إذ قتله الجند بتدبير أبي عبيدة الفهري عام ٩٨هـ (٧١٦م) لأسباب اختلف المؤرخون في حولها .

وقد اجتمع زعماء البرابرة واختاروا والياً عليهم يدعى أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير فحكم البلاد مدة وجيزة ثم تعاقب على ولاية الأندلس سبعة وعشرون والياً ومنهم من كان يعين من قبل الخليفة ومن كان يعينه عاملة على أفريقيا^(٢) . وبالرغم من روح المنافسة على السلطة والتي كانت

من أبرز سمات هذا العصر فان حروب المسلمين للفرنجة ظلت مستمرة وبضروا وكان النصر من نصيب المسلمين في معظم الأحيان وذلك مما مكنهم من فتح مدن جديدة كمدن برشلونة وقشتلة حتى بلغوا شواطئ "الرون" وظلوا يتقدمون إلى الإمام حتى وصلوا قلب فرنسا فاستشعر الفرنسيون الخطر المحدق بهم فهب لملاقمتهم "شارل مارتر" وردهم على اعقابهم واستشهدوا في هذه الحرب .

وعبد الرحمن القافقي والي الأندلس سنة ١١٤هـ (٧٣٢م)^(١)

(١) المقتبس في أخبار بلد الأندلس ابو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد ط ٢ تحقيق الدكتور محمود علي مكي بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٢م نقلاً عن مجلة الأندلس الاسبانية المجلد ١٥ / العدد الأول ١٩٥٠م

(٢) فجر الأنثلي د. حسين مؤنس ص ٢٤٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٤٦

ويعتبر عهد الولاة عهداً مضطرباً لا استقرار فيه إذ قامت فيه ثورات بين العرب والبرابرة كما انتقلت مع العرب القادمين من المشرق العصبية القبلية فاشتد الصراع بين القيسية واليمينية وكان محرك ثورة البرابرة ادعاؤهم بان فتح الأندلس تم على عاتقهم كما ان قائد الفتح منهم هو الأولى بحكم الأندلس . ولهذا السبب كانت نجدات هشام بن عبد الملك للأندلسيين من الشاميين بقيادة "بلج بن بشر" وذلك كما يحفظ التوازن بين العرب والبربر . وليقضى على تلك الثورات التي لا يستفيد منها إلا العدد فنجح في ذلك كان السوريون بوصلهم نواة هامة كان لها أثر كبير في الحياتين السياسية والاجتماعية في الأندلس . (١)

(١) مطعم الأنص وسرح التانس في ملح أهل الاندلس لابن فائق طبعة استانبول ١٣٠٢ هـ ط القاهرة ١٣٢٥ هـ ص ١٨

قائمة لأمرء وخلفاء الأندلس

هذه قائمة بأسماء حكام الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة ، مع سنوات حكم كل منهم :

(١) عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية بن هشام بن عبد الملك

حكمه : ثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر ونصف

(١٣٨ - ١٧٢ هـ = ٧٥٥ - ٧٨٨ م)

(٢) هشام الأول (المرتضى)

حكمه : سبع سنين وتسعة أشهر وأيام

(١٧٢ - ١٨٠ هـ = ٧٨٨ - ٧٩٦ م)

(٣) الحكم الأول (الربضي)

حكمه : ست وعشرون واحد عشر شهراً

(١٨٠ - ٢٠٦ هـ = ٧٩٦ - ٨٢٢ م)

(٤) عبد الرحمن الثاني (الأوسط)

حكمه : إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وأيام

(٢٠٦ - ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ - ٨٥٢ م)

(٥) محمد الأول

حكمه : أربع وثلاثون سنة وعشرة أشهر وأيام

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ = ١٥٢ - ١٨٦ م)

(٧) عبد الله

(٦) المنذر

حكمه : خمس وعشرون سنة ونصف شهر

حكمه : سنتان غير أيام

(٢٧٥ - ٣٠٠ هـ = ١١٢ - ١٤٨ م)

(٣٧٣ - ٢٧٥ هـ = ١٨٦ - ١٨٨ م)

تولى الحكم بعده حفيده إذ لم يحكم ابنه :

محمد (والد الناصر ، حفيد الأمير عبد الله)

(٨) عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

حكمه : نصف قرن ونصف سنة وأيام

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ = ٩١٢ - ٩٦١ م)

(٩) الحكم الثاني (المستنصر بالله)

حكمه : خمس عشرة سنة وسبعة أشهر

(٣٥٠ - ٣٦٦ هـ = ٩٦١ - ٩٧٦ م)

(١٠) هشام الثاني (المؤيد بالله)

توفي حوالي سنة ٤٠٣ هـ - ١١١٣ م

الدولة الأموية

إمارة قرطبة حتى خلافة عبد الرحمن الثالث

١٣٨هـ - ٣٠٠هـ - ٧٥٥م - ٩١٢م

تغلب العباسيون على الامويين بدمشق وقضوا عليهم قضاء مبرماً عام ١٣٣هـ - ٤٧٩م وابعوا دماءهم وقتلوا منهم أعداداً هائلة غير أن أحد الامويين استطاع النجاة بنفسه من بطشهم وهو شاب في العشرين من عمره يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان (١)

لقد استطاع الفرار مستخفياً مع مولاه ثم استأنف سيره نحو المغرب الأقصى ونزل عند اخواله من قبيلة نضرة وكسب عطفهم وودهم وحمائيتهم وكانت تأتيه اخبار الأندلس عن طريق مولاه بدر ورأي بصدق إحساسه ونفاذ بصيرته ان مستقبله السياسي سيكون بالأندلس وساعده في بث الدعوة وحينما شعر بنجاح دعوته . دخل الأندلس في غرة ربيع الأول عام ١٣٨هـ في خلافة ابي جعفر المنصور وسمى نفسه "عبد الرحمن الداخل" لانه أول من دخل الأندلس من بني مروان وقطع الخطبة من بني العباس ودعي له المنابر ولم يتم له ذلك الا بعد معارك طاحنة زادت رجاها بينه وبين الموالي . "الفهري الطمبل" وانتهت بهزيمته ففر هارباً من عقاب عبد الرحمن وكان ذلك عام ١٣٨هـ - ٧٥٦م (٢)

وأحسن ابو جعفر المنصور بخطر عبد الرحمن الداخل في عرشته . فسير إليه جيشاً بقيادة العلاء ابن مغيث ليقتضي عليه قبل استفحال امره ودارات معارك بين الجانبين كان الفشل فيها من نصيب العلاء وإلى افريقيا . ونكل الداخل بالعباسيين ابشع تكيل فقال المنصور ما هذا الاستيطان وكان ابو جعفر يجله ولقبه بصقر قریش لدهائه ولوصوله الحكم بعد ضياع وهروبه من بطن العباسيين وفي عام ١٥٨هـ - ٧٧٥م هاجم شارلمان امبراطور دولة الفرنجة الأندلس (١) بجيش ضخم بمساعدة بعض الخارجين على حكم عبد الرحمن غير ان جيوش عبد

(١) راجع تاريخ عبد الرحمن الداخل في جمهرة انساب العرب ٩٢ والبيان المغرب ٤٧/٢

(٢) نفع الطوب ط ص ٣٢٩

(١) تاريخ افتتاح الاندلس ابن القوطية ط مدريد ١٩٢٦م ص ٢٠

الرحمن تمكن من شارل وجيوشه وهزمتهم هزيمة نكراء واستمر حكم عبد الرحمن الداخل للأندلس أربعاً وثلاثين سنة حتى عام ١٧٢هـ (٧٨٨م) وفيها صارت الأندلس تتمتع من الناحيتين السياسية والاجتماعية بصفات الدولة القوية المنظمة .

وبعد وفاته تتابع على حكم الأندلس أبناؤه وأحفاده ومنهم عبد الرحمن الثاني عام ٢٠٦هـ - ٢٣٨هـ الذي هزم النورمانين حينما حاولوا دخول الأندلس . من السواحل الغربية وردهم خاسرين عام ٢٢٩هـ - ٨٤٤م (٢).

وفي عهده قدم من بغداد زرياب المغني المشهور تلميذ إبراهيم الموصلي فكان له تأثير كبير في الحياة الاجتماعية الأندلسية إذ نقل كثير من العادات الشرقية السائدة في بلاط بني العباس إلى الأندلس من تأنق وذوق في المأكل والمشرب والحفلات كما كان له تأثير قوى في الحياة الثقافية في الأندلس .

عهد سيادة قرطبة وعبد الرحمن الناصر

٣٠٠هـ - ٤٢٢هـ (٩١٢ - ١٠٣١م)

في عهد الدولة الأموية ظل ما نسميه سيادة قرطبة شيئاً نسبياً وذلك لان الحكام لم يستطيعوا ان يضبطوا جميع الجهات الأندلسية والحروب الخارجية لا زالت ستمرة لذلك كانت السيادة تتبسط حيناً على رقعة واسعة ويتقلص ظلها على حين آخر .

وكان عهد الولاة قد مضى في توسيع الحدود الحروب القائمة على العصبيات فإن عهد الدولة الأموية شغل كثيراً بتثبيت الحدود وبالقضاء على الفتن التي يثيرها الطامعون في الداخل . (٣)

واستغلت الفتنة بين العرب والمولدين بالبيرة واجتمع العرب إلى زعامة "سوار بن حمدون القيسي" ثم إلى "سعد بن جودي" ترأس المولدين رجل يدعى نائل ونشبت بين العرب والمولدين ثورة أخرى باشبيلية وهكذا كان كل شيء يشير

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢١

(٣) تاريخ الأندلس عهد سيادة قرطبة نزاحسان عباس دار الثقافة بيروت ج ٢ ١٩٩٦م ص ٢٠

بتصدع امر الأندلس ومن هنا نرى ان نواة الانقسام الذي تم بعد^(١)الفتنة البربرية كان موجوداً في تكوين الدولة نفسها وقد استطاع الناصر ان يحقق للدولة شيئاً من النصر في الداخل والخارج وان ينعم ابنة الحكم بثمرات السلم وينصرف إلى الاهتمام بالعلوم .

ولكن ما كاد المنصور بن ابي عامر يقبض على زمام الامور حتى صرف همه من جديد إلى تحقيق السيادة بالغزو المتواصل وسار ابنه المظفر في اثاره . ثم عاد الامر أبان الفتنة إلى الفوضى واشربت الميول الانفعالية من جديد .

وهل كانت بيعة التفكك ناشئة عن خلل في الإدارة الأموية ؟ وهل كانت من كثرة الاعداء الخارجين ؟ وهل للوضع الجغرافي أثر في ذلك . وبصورة مجمله وإذا استثنينا الحكم الربطي فإننا نجد المصادر تضيق بالثناء على خصائص العدل عند أولئك الحكام . فكانوا يتحرون احوال الرعية ويجلسون للمظالم ويقدمون حكم القضاء ويحاربون في انفسهم ما قد يجدونه من هوى جامع .

كان عبد الرحمن الداخل على سيرة جميلة من العدل وكان ابنه حسن السيرة متحيزاً للعدل يحاول التشبه بعمر بن عبد العزيز في سياسته . وكان يبعث قوماً عدولاً يسألون الناس عن سيرة القتال وكان الأمير محمد عظيم الأناة متنزهاً عن القبيح يؤثر الحق أهله ولا يسمح عن باقي ولا يلتفت إلى قول زائع محبوباً في جميع البلدان مراقباً لمصالح الرعية .^(٢)

اما عبد الله فكان مقتصداً في ملبسه وشكله وجميع أحواله محباً للخير و أهله . كثير الصلاة دائم الخشوع شديد الوطأة على أهل الظلم والجور^(٣) . وقد خصص يوماً في الأسبوع يقعد فيه على باب قصره لنظر في الظلمات .

من خلال هذه الأوصاف لهؤلاء الامراء وغيرهم نستشف البساطة في تناول الأمور وقلة الانغماس في نعيم الدنيا او اهمال امور الرعية وقد ظل الأمر كذلك حتى انقضى عهد الأمويين والعامريين بقرطبة .

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٢

(٢) انظر نفع الطيب ص ١٦٠

(٣) نزهة المشتاق في اختراق الافاق لابي عبد الله محمد الشريف السبيتي الادرسي ط لندن ص ٦٩

ومع تردد السيادة السياسية بين الامتداد والتقلص ، كان هناك شينان آخران في النمو المطرد وهما مدينة قرطبة نفسها ، في عمرانها و أبتها . والطابع الحضاري العام للبلاد الأندلسية وقد ساعدت طبيعة الأندلس وكثرة خيراتها الزراعية والمعدنية ونشاط تجارتها على ذلك . كما ساعد عليه ما استمدوه من المشرق في شؤون العلم والأدب الحضارة المادية . فكان التجار ينقلون الحضارة المشرقية إلى الأندلس دون انقطاع وفي أيام عبد الرحمن الثاني دخل الأندلس النفيس من غرائب الأشياء من بغداد . (١)

وعندما قتل محمد الأمين وانتهت تلك سبق إلى الأندلس الموسيقى والأغاني المشقية كما دخلها الكثير من صور الحضارة مع الثراء ورفض الألبان والعمران فأصبحت قرطبة تنافس المشرق في روعة عمرانها وطمأنينة الحياة في ربوعها . (٢)

حتى قال "ابن حوفل" حين زارها في خلافة الناصر عام ٣٣٧ وهي اعظم مدينة بالأندلس وليس يجمع المغرب لها عندي شبه ولا بالجزيرة والشام ومصر وما يدانيها في كثرة أهل وفسحة أسواق ونظافة مجال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق . (٣)

واشتهرت بمساجد الجامع وبساتينها الكثيرة كما عرفت بكثرة علمائها ومكتباتها ورغبة أهلها في العلوم واقتناء الكتب وهي بهذا تتميز على سائر المدن الأندلسية .

و أخذت المدن الحضارية تمتد إلى نواحي الأندلس ومع أن أكثر المدن قد اتسع بدخول المهاجرين .

وقبل ان تنمو قرطبة نمواً بالغاً في أيام عبد الرحمن الناصر ومن بعده كان المظهر الغالب على حياة المدن الأندلسية هو الطابع الريفي ومن مظاهر هذه

(١) المغرب في حلى المغرب لابن محمد الحجاري وعبد الملك بن سعيد وآخرون تحقيق الدكتور شوقي ضيف ط المعارف القاهرة

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٧

(٣) صورة الأرض لابن حوقل طبعة لندن ١٩٢٨ م ١٩٧٠ ص ٢٨

الحياة الريفية البساطة والخشونة والطبيعة وعدم التصنع في المعاملات بين الناس والانقطاع بالجهد البدوي والزراعي .

وكان الكسب الحلال من الزراعة يجذب إليه الكثير من الأتقياء لذلك كثيراً ما نرى المحدثين والفقهاء في هذه الفترة يؤثرون حياة القرية . وكان من شأن الخلفاء^(١) ان يرسلوا في القرى من يستطلع أحوال الناس ويكشف عن اهل العلم والخير منهم فاذا احتاجوا الى رجل في بعض المناصب أرسلوا الى طلبه كما أرسل هشام بن عبد الرحمن في طلب مصعب بن عمران أحد الفقهاء الأتقياء ليوليئه القضاء فوجده الرسول في ضيعته يعين زوجته وهي تتسج في منسج لها وكان محمد بن مسلمة الذي اصبح قاضياً في قرطبة منتزها عن الناس وكان طلاب الحديث اذا سمعوا بهذا النوع من العلماء رحلوا اليه في قريته ليسمعوا منه ويكتبوا عنه وكان احمد بن هشام القرطبي المحدث يجتمع بطلابه لأخذ الحديث عنه .^(٢)

عصر ملوك الطوائف :

بانتهاه الحكم المرواني صار كل من يجد نفسه القدرة على القفز الى السلطة من الأمراء والرؤساء يستولي على إمارته ويستغل بها ثم يسميها دولة وينصب نفسه ملكاً عليها . ويتخذ اهم مدنها عاصمة له ومن اهم هذه الدويلات :

الدولة الحمودية :

١- واستغلت في عهد المستعين الاموي سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م وهي شعبة من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي وتناقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء .

٢- الدولة الزيرية : واستغلت في غرناطة سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م وهي دولة بربرية ظل ملكها حتى سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م .

(١) الحلة السراء ابن الأبار القضاعي تحقيق نورزي ط ليدن ١٨٥١ ص ٢٥٠

(٢) تاريخ الاندلس عصر سيادة قرطبة احسان عباس ط ٥ دار الثقافة ١٩٧٨م

٣- الدولة اليهودية :

واستغلت في سرقسطة وحكمتها من سنة ٤١٠هـ - ١٠١٩م حتى سنة ٥٦٣هـ -

١١٤١م وهي دولة عربية من أشهر ملوكها المقنن بالله وابنه المؤتمن . (١)

٤- الدولة العبادية :

في اشبيلية وحكمتها من سنة ٤١٤هـ - ١٠٢٣م حتى سنة ٤٨٤هـ - ١١٠٩م

وهي عربية من لخم من ولد النعمان بن المنذر واتصل بملوكها الشعراء ومن أشهرهم ابن زيدون وابن اللبانة ابن الزقاق وابن وهبون وابن عبد الصمد وغيرهم وهم من اعظم الدول في القوة الحربية والسياسية ومن أعظمها في تشجيع العلم والأدب .

٥- دولة بني لافطس :

في بطليوس وحكمتها من سنة ١٤٢١هـ - ١٠٣٠م حتى سنة ٤٨٧هـ -

١٠٩٤ وينتمون الى بربر مكناسة وكانت دولة ذات حضارة في العلوم والآداب .

٦- دولة بني ذي النون :

في طليطلة وحكمت من سنة ٤٢٧هـ - ١٠٣٥م حتى سنة ٤٨٧هـ وهي بربرية

من قبائل هوارة (٢)

والجدير بالذكر ان من ابرز خصائص هذه الدويلات كثرة الحروب التي أشعلوها فيما بينهم طلباً للتوسع والمجد الشخصي والقلبة فيها للقوى على حساب الضعيف فيضم مملكته إلى ملكه او يضم جزءاً منها كما حدث و أزال "بنو عباد" ملك "بنو جهور" في قرطبة .

و نتيجة لهذه الخلافات والنزاعات استولى الفرنجة على الكثير من بلاد الأندلس واحدة بعد الأخرى . ولكن من الإنصاف ان نسجل لهم بالرغم من جنائتهم على وحدة الأندلس واستقلالها فانهم دعموا حركة الأدب وقربوا رجاله وكانت اكثر عواصمهم أسواقاً رائجة . وكان التنافس بينهم على أشدة في شتى المجالات وفي العمران والأدب (٣) وبناء الحصون والقلاع وتشجيع لشعراء والكتاب والمغنين بل

(١) يراجع عصر ملوك الطوائف في تاريخ ابن خلدون ودول الطوائف لغنان واعمال الاعلام ج٢ والبيان المغرب وغيرها

(٢) الحلة الميراء لابن الأبار القضاعي تحقيق ص ٢٥٥

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٧

كان معظمهم أدباء شعراء أمثال المعتمد بن عباد والمظفر بن الأفتس وابنه المتوكل ودام أمر الطوائف نحو مائة سنة استطاع في أواخرها ملوك الفرنجة من جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم على حين تفرقت كلمة المسلمين . واستولى الفرنجة على معظم الدويلات الواحدة تلو الأخرى حتى بلغوا اشبيلية حاضرة بني عباد وضايقوا المعتمد مما اضطر إلى طلب النجدة من أمير المرابطين بالمغرب ف جاء يوسف بن تاشفين بجيشه الباسل واسقط ملوك الطوائف على دولة سرقسطة فان صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموه حيناً الى ان تمكن منها المرابطون عام ٥٠٣هـ - ١١٠٩م (١)

دولة المرابطين ٤٩٥هـ - ٥٥٥هـ

١١٠١م - ١٦٠م

أوقف سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين نفسه وجيشه على الجهاد في سبيل الله وكان حريصاً على متابعة الحرب ضد خصم جديد . وكان يخشى على جيشه من التراخي المؤدي الى الفرقة والشتات ولا شك انه قد سمع مثلما سمع غيره بالثراء الاندلسي وهدايا المعتمد مصحوبة بدعوة الى الجهاد في سبيل الله . فصادفت الدعوة صدى في نفسه واعد عدته وعبر جيشه الى الاندلس في منتصف ربيع الثاني عام ٧٤٩هـ و اواخر يوليو عام ١٠٨٦م (٢) وقبل ان ينال اذن المعتمد بالعبور نزل المعتمد بجيشه على الجزيرة الخضراء التي كانت تحت حكم يزيد الراضي بالله بن المعتمد فارغمه على التخلي عنها بعد موقفه على والده الذي اخذت المخاوف تساوره من تصرف بن تاشفين (٣) اشار يوسف بن تاشفين قبل رجوعه الى مراكش عاصمة امبراطوريته الى ولي عهده على بن يوسف ان يحكم جميع بلاد الاندلس باسمه وقسم البلاد الى دويلات يحكم كل منها امير من المرابطين وكان اغلب هؤلاء الولاة من قبائل شتى وكانت سياسية يوسف الا يترك الحاكم في ولايته لمدة طويلة فكان ولاته ينتقلون من مقاطعة الى مقاطعة ولعل

(١) تيارات النقد الأدبي المعاصر في القرن الخامس الهجري مصطفى عليان رسالة دكتوراة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر القاهرة ص ٨٦ - ١٩٧٢م

(٢) دولة الاندلس منذ قيامها حتى الفتح المرابطي محمد عبد اله غنان لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٠م ص ١٠.

(٣) الاندلس الاندلسي في عهد المرابطين د. مصطفى عوض الكريم جامعة الخرطوم ١٩٦٨م ص ١٢

السبب في ذلك يهدف الى حرمانهم من اقتناء العقارات والضياع لانفسهم كما كان حريصاً على ان لا يترك لهم الفرصة للاستقرار في مكان واحد لمدة طويلة تمكنهم من الخروج على سلطانه مستعنيين بمن حولهم من الاتباع واهل البلاد^(١)

٥٢٢٠

(١) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس لمحمد عبد الله عنان ط لجنة تأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٤م ط / ٢٧

دولة الموحدين

٥٢٤هـ - ١١٢٩م - ٦٦٧هـ - ١٢٦٨م

ترجع دولة الموحدين الى قبائل "المصامدة" وقوام دعوتهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالتوحيد على طريقة الاشاعرة من تأويل المتشابه من آيات القرآن والحديث من اجل ذلك سمو بالموحدين^(١)

ويرجع الفضل في تكوين الموحدين الى رجل ينتسب الى آل البيت يدعى بن تومرت الذي نشأ في جبل السوس بالمغرب الاقصى بين قومه في قبيلة "مصمودة" وهي قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد غير انها لم تظهر تطلعاتها العلمية لأنها مختلفة الوسائل . فشد رحاله الى بغداد وفي نهاية القرن السادس الهجري التقى بالعلماء هناك ومنهم ابو حامد الغزالي في المدرسة النظامية فاخذ عنه طرفاً من العلم وأصول الدين . وبعد عودته من المغرب شمر عن ساعديه لدعوة الناس الى التمسك باهداب الشرع واقامة أحكام السنة وكان لفصاحة بيانه وقوة محبه وتقواه الأثر الكبير في كثرة اتباعه ومريديه .

بايع المرين عبد المؤمن بن علي وذلك بعد موت ابن "تومرت" عام ٥٢٤هـ والذي كان قد وصى له بالإمارة من بعده وتوفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨هـ - ١١٦٢م فتولى الحكم بعده ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذي دام حكمه من سنة ٥٥٨ حتى سنة ٥٨٠هـ وبلغت دولة الموحدين في عهده اوج عظمتها ومن محامدهم انهم شجعوا على دراسة العلوم والآداب كما عنوا بالعمارة والحضارة ومن آثار ذلك منارة الجامع الكبير في اشبيلية .

ودام ملك الموحدين نحو مائة وثلاثين سنة وفي نهايتها تمكن النصارى من قهرهم واخراجهم من الاندلس .^(٢)

دولة بني الاحمر

٦٣٥هـ - ٨٩٨هـ (١٢٣٧م) - ٢ يناير ١٤٩٢م . بعد سقوط دولة الموحدين

استطاع "محمد بن هود" صاحب بطليموس ان يبسط سلطانه على بعض المدائن

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق كاترير ط باريس ١٨٥٨م ص ٧٥٢

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة

الأندلسية حتى صار ملكه يشمل بطليموس واشبيلية وقرطبة ومرسية وكان يرى انه إذا قاتل كل أعدائه النصراني دعم من وحدته ومكن لسلطانه . غير ان ضعفه حال بينه وبين تحقيق هدفه المنشود بل تمكن الفرنجة من الاستيلاء على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحاصروها ستة اشهر وفي نهايتها سقطت في ايديهم عام ٦٣٣هـ - ١٢٣٥م (١)

وكان سقوطها كارثة خطيرة بعد ان ظلت خمسمائة وعشرين سنة عاصمة للأندلس وقتل ابن هود في المرية ولم يبق للمسلمين غير غرناطة والمرية وما حولها . وفي هذا الوقت العصيب الذي ضاعف من شدته وقوع الفتن والاضطرابات بين الأندلسيين . ظهرت في ارغونه قبيلة عربية من بني الأحمر وعميدها محمد بن يوسف النصراني المعروف بابن الأحمر سليل بني نصر الدين ينتسبون الى سعد بن عباده سيد الخزرج فكان قوة ضارية استولى بها على بعض مناطق جيوش الأندلس وكون مملكة غرناطة و أنهى حكم الموحديين بالأندلس وتمكنت هذه الدولة الصغيرة من الوقوف في وجه التوسع الإفرنجي (٢)

الهزيمة والخروج المهين

الشعر الأندلسي كان ملتزماً حين هب رجاله يحرضون المسلمين بالأندلس على القتال ويحضونهم على التآزر والتآلف ونيزد الخلافات والتناصر وحين قفوا يشيدون بالبطولة والأبطال الذين ادوا دورهم في رفع راية الإسلام وإعزاز دين الله . وحين سجلوا بشعرهم انتصارات المسلمين في ربوع الأندلس على أعداء الله إلى ان انتهى المجد الإسلامي وسقطت المدن الواحدة تلو الاخرى ولنبدأ بسقوط (بريشتر:)

وكان لسقوطها الأثر العميق و القوي على نفوس الشعراء ومنهم (ابن العسال) الذي صور ما لاقاه سكان المدينة من عننتهم وضلالهم بقوله : (٣)

ولقد رمانا المشركون بأسهم
لم تحظ لكن شانها الاصماء
هتكوا بخيلهم قصور جزيما
لم يبق لا جبل ولا بطحاء

(١) نفع الطيب ط ٣ ص ٣٠

(٢) نفس المصدر السابق الصفحة

(٣) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصر ص ٤٠

حاسوا خلال ديارهم فلهم بها
باتت قلوب المسلمين برعبهم
في كل يوم غارة شعواء
فحماتنا في حربهم جبناء

سقوط طليطلة

شن الفونسو حروباً طاحنة على طليطلة واستمرت اربع سنوات سقطت المدينة في نهايتها واستولى عليها الفونسو في أول صفر سنة (٤٧٨هـ - ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥م) وذلك بعد ان فقدت كل عون مادي خارجي من أمراء الطوائف لانشغالهم بالصراعات الجانبية وسقطت حاضرة الأندلس الكبرى وخرجت من قبضة الإسلام الى الابد. لقد ظلت المدينة دهرأ معقلاً للدين صعب المنال فشاءت إرادة الله ان تقع في قبضة العدو وعن هذا وغيره يحدثنا هذا الشاعر بقوله :

طليطلة اباح الكفر فيها حماها ان ذا نبأ كبير
فليس مثلها ايوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير (١)

سقوط بنسية :

لقد كان موقف المسلمين سلبياً حين سقطت بنسية وكانت صدمة قوية على المسلمين حيث بلغ الضيق بالناس منتهاه وفنك الجوع بالكثير منهم وإزاء هذا الموقف أرسل قاضي المدينة ابن حجاج لنجدته الى المستعين ثم الى الفونسو ولكن تأخرت قواتهم في الوصول فطال الحصار وبعد عشرين يوماً من الحصار قتلك الجوع بأهل المدينة واكلوا الفئران والكلاب وغدوا كالأشباح هزلاً (٢) وأخيراً دخل (السيد) المدينة وقتل ابن الحجاج حرقاً في منظر حزين كما حرق أيضاً جماعة من العلماء وقتل الجنود وسبى النساء والأطفال وفر من المدينة كثير من مسلمي أهلها . قال ابن خفاجة في ذلك

عائت بساحتك العدى بادار رمحاً محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار (٣)

الى ابن الأبار في قصيدته العصماء وبعد ان ثارت الحمية في نفسه واستعر في الامير الافريقي واستنجد به بصوت مرتفع مسموع وإيقاع نحس بصدوره من قلبه

(١) نفع الطيب ط ص ٩٣

(٢) الزخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام الاثنترني تحقيق د. احسان عباس الدار العربية للكتاب ليبيا تونس ص ٣٥

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ١٥٧

فجاءت لحظة الالهام وتمثلت امامه لوحة فنية حزينة لما حل بالمدينة الجميلة
بلنسية فالمساجد انقلبت الى كنائس وانهدمت مدارس القران وصارت خرائب
وذوت حضاره المدينة وخبأ نورها .

يقول ابن الأبار :-

أدر بخيلك خيل الله اندلساً ان السبيل الى منجاتها درساً
وهب لها من عزيز النصر ما التمس فلم يزل منك عز النصر ملتصماً
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً وللنداء غداً اثناءها جرساً
لهفي عليها الى استرجاع فائتها مدارساً للمثاني اصبحت درساً^(١)

ويمضي الشاعر في استصراخه الأمير مبدياً الحسرة على ما انهدم من محاسن
المدينة فقد اعترته نشوة عارمة على حمية الإسلام فصبر على ذلك بقوله :

فأين عيش جنيناه بها خضرا وأين عصرٌ جلبناه بها سلاسا
في محاسنها طاغ اتيح لها ما نام من هضمها حيناً ولا نعسا^(٢)

سقوط اشبيلية

أما اشبيلية فقد جمع (فرناندو) لغزوها قوات هائلة من كل أطراف اسبانيا
المسيحية وجعلوا منها حرباً صليبية وسار بقواته التي جمعها صوب اشبيلية
وأخيراً تم الاستيلاء على قصرها ورفع عليه ملك قشتاله شعاره الملكي وسقطت
اشبيلية و أصبحت عاصمة لمملكة قشتالة في حي دبي الأول سنة ٦٤٥هـ^(٣)
وفي ذلك قال ان سهل الإسرائيلي يستنهض همم المسلمين في أفريقية يستصرخ
نخوتهم

خلوا الديار لدار عز واركبوا عبر العجاج الى النعيم الاخضر
يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كـابراً عن أكبر
ان الاله قد اشترى ارواحكم بيعوا ويهنئكم وفاء المشـتري^(٤)

(١) قلاند العقبان ص ٢٢ طبعة اوربا

(٢) نفس المرجع والصفحة

(٣) الزخيرة في محاسن اهل الجزيرة ص ٧٤

(٤) ديوان ابن سهل د. احسان عباس دار صادر بيروت لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٥٠م ص ٦

في ابيات حزينه صور لنا المعتمد الساعات الاخيرة التي خاض فيها ضد
المرابطين حرباً مستميتة دفاعاً عن اهلك وعرضه وشرفه فقال المعتمد معبراً عن
ذلك :

لما تما سكت الدموع تتبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع على ممض السم النقيع
ان يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
لم استلب شرف الطباع ايسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم الا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص على الحشا شيء دفوع
اجلي تأخر لم يكن بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتال وكان من املي الرجوع
شيم الألي أنا منهم والأصل تتبعه الفروع (١)

وسقطت دولة بني عباد وخبأ نجمها الذي سطع حيناً في سماء الأندلس ولكنها
سقطت ابيه كريمة في فروسية شامخة لا شك ان الانفعال في التجربة قد وصل
ذروته فقد قتل أبناؤه الأربعة بيد المرابطين ولم يبق المرابطون في حياة المعتمد
إلا ليتجرع كأس البذل والهوان . وذلك لان "يوسف بن تاشفين" كان يرى في
المعتمد قطب الفتنة التي عمت أرجاء الأندلس

وسيق المعتمد و أهله الى السفن التي ستتقلهم الى المنفى وسارت من اشبيلية تمخر
عباب نهر الوادي الكبير في طريقها الى العودة في منظر يذيب القلب حزناً ولوعة
وضجت جموع الشعب الغفيرة بانفعال واحتشدت على ضفتي النهر لوداع المعتمد
بالبكاء والنواح وذلك حسبما رات سيدها وراعيها تحيف به اغلال الاعتقال ويغادر
موطن سلطانه وعزه الى مصير مجهول وفي ذلك :

يقول ابن نباتة شاعر المعتمد :

حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مغداه ومن فادي
ثورة نفسية تعمل في نفسه وتعصف في اعماقه ضجيج وصراخ ولا لوم عليه في
امره فالتجربة المريرة التي مر بها سيده هي التي شكلت كلماته على ذلك النمط
وحقق بمشاعره وانفعاله هدفاً فنياً حقيقياً .
واخذ سرد سجاياه هو واسرته فقال :

انفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد افقرت والناس قد ماتوا
فبزوال بني عباد مات جميع الناس ، وافقرت الدنيا
لقد امتزجت الروح ونضج الإحساس والشعور بما لا يشعر به غير صاحبه
والمعاني عندما تجول بخاطر الشاعر تبحث عن الألفاظ اللائقة بها وان قدرة فنية
هي التي تصوغ تلك العواطف سواء اكانت بأساً وحرزناً
املاً وسروراً فتوحي بالقول شهداً عاشه الشاعر وتحت تاثير ثورة النفس لاحداثها
الواقعة يجيش الصدر بالانفعال وتتوفر بواعثه وكل شعر يتصف بهذا قد يحظى
بالخلود .

سقوط غرناطة ونهاية الأندلس

ويبدأ بتسليم المدينة الإسلامية الى الأسيبان عام ٨٩٨هـ - ١٤٩٢م .
غرناطة هي قاعدة بلاد الأندلس وتسمى بدمشق الأندلس^(١) وبلاط غرناطة الحقيقي
ينرجع الى القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي وفي ذلك العصر
تصدعت وحدة الأندلس واصبح ما يعرف بملوك الطوائف ومعظم الكنائس القديمة
في غرناطة الحالية اصلها مساجد فكنيسة السلفادور كانت في الأصل جامعاً جميلاً
يقوم على ٨٩ عموداً من مباني الحمراء في مجموعها حصن هائل يغطي سطح
الهضبة كله وداخل الحصن تستطيع تميز ثلاثة اجزاء .

وغرناطة هي نهاية الكارثة المروعة التي بها اسدل على المسرحية
المأساوية التي كان ابطالها جنود الرحمن وبسقوط غرناطة اخر معقل من معاقل
الإسلام بالأندلس . ولم يقف الشعر أمام الفصل الأخير من مأساة دامية وعبارات

(١) وثائق عربية قرناطة / لويس سيكودي لوتينا ط سريد ٩٦١م ص ٢٨

حزينة وذلك لضياح الأندلس و جادت قريحة الشعراء وعلى راس هؤلاء الشعراء
(ابو البقاء الرندي) الذي الذي تحدث باروع شعر قبل ان يسدل الستار على
الفصل الأخير من المأساة .

ابو البقاء الرندي مصوراً النكبة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان * فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول * من سره زمن ساءته أزمان

وكان ختام هذه المأساة الدموع الغزيرة والحسرات والأحداث الجسام والماسي
العظام والتضحيات من كل لون قدمها المسلمون الأندلسيون دفاعاً عن عقيدتهم
الإسلامية التي هي عندهم أعلى من حياتهم أمام الطغيان الأعمى والتعصب
الممقوت الذي استغل كل وسيلة وتقلد كل سلاح في حروب مدمرة لا مبرر لها
ضد من احسنوا إليه وقدموا له رقياً وحضارة وازدهاراً و أناروا الأرض علماً
وخيراً وعمروا الدنيا عدلاً بعقيدة الإسلام القويمة وشريعته السمحاء وتعاليمه
البيضاء .^(١)

أسباب الهزيمة

من الأسباب التي ادت الى هزيمة المجاهدين في بلاد الأندلس
أولاً :

صمت ملوك الطوائف عن هذا الخطر الذي الم بالبلاد لذلك هب الوزير
الكاتب "أبو عمر بن عبد النمزي" غاضباً من هذا الموقف المتخاذل وكيف يسأله
على لسان أهل المدينة المتشردون ووزعها في سائر بلاد الاندلس وهي تصور
مآثم العدو التي اقترفها ضد أهل المدينة .^(٢)
ثانياً :

جبن المسلمين عن نصره اخوانهم بل في رد العدوان بينما صمد عدوهم
وفر المسلمون من ساحة الشرف وموكب النضال زيادة على الروح الانهزامية

(١) نهاية الاندلس ص ٥٠ بتصرف

(٢) الادب العربي في ظل القويمات ص ٧٩

التي تفشت بين امراء الأندلس اذ بلغ بهم الذل الى حد الاستعانة بالعدو وعقدوا
معه المعاهدات واصبحوا يدفعون له الجزية وفي ذلك قال ابن خفاجة :

كفى حزناً بان الناس قالوا الى ابن النحول والمسير
انترك دورنا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور

ثالثاً :

الظروف المحيطة قبل سقوط بعض البلدان على سبيل المثال طليطلة حيث حدثت
صراعات سياسية بين "حبوس بن ماكس" البربري وبين العباديين تم بينه وبين
الحموديين .

رابعاً :

تهالك بعض الحكام في الشراب والخلود للراحة وترك مقاليد الأمور للوزراء
وخاصة اليهود منهم كما فعل "باديس بن حبوس" مع وزيره "والذي رفعه فوق
سائر وزرائه ومستشاريه وكان موضع ثقته الى ان ازداد واستأثر بالسلطة وبسط
على طليطلة نوعاً من الطغيان وانزل بني قومه اليهود منزلة سامية في الدولة مما
الهب سخط الشعب وفي مقدمتهم الشعراء من ذلك الشاعر ابو اسحاق الالبيري له
ابيات يحض فيها قومه اهل طليطلة على الثورة ضد يوسف والقضاء عليه بقول
الالبيري في هذه الأبيات :

الاقل لصنهاجة اجمعين بدور الزمان واسد العرين
لقد زل سيدكم زلة تقر بها عين الشامتين (1)

خامساً :

انشغالهم بالصراعات الجانية التي اشعلوها فيما بينهم وعدم وجود الأذان
الصاغية التي تستجيب للنصح والإرشاد .

ونتاجاً لكل ذلك سقطت حاضرة الأندلس الكبرى وخرجت من قبضة
الإسلام إلى الأبد بعد ان ظلت تعيش تحت لوائه ثلاثمائة وسبعين عاماً. (2)

(1) في الأدب الاندلسي جودت الركابي ط؛ دار المعارف بمصر ص ١٦٤

(2) نفس المصدر السابق ص ١٦٥

ولكن الى جانب النتائج السلبية لسقوط المدينة فإنه يوجد نتائج ايجابية
تمثلت في كونها تعد نقطة تحول عظيمة في تفكير الامراء .
ان سبب سقوط المدن يرجع الى تفرقهم فعزموا على لم الشمل وتوحيد الصفوف
أمام هذا الخطر الداهم وادركوا انهم لابد لهم من عون مادي خارج الأندلس لوقف
الزحف .

المبحث الثالث

الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية

الحضارة والرقى :

قد يكون من الامور اليسيرة ان نتصور جوانب شاملة التباين متعددة / السمات متشعبة الجهات مختلفة الأهواء في بيئة كاليئة الأندلسية . ومن المنطق ان نتوقع امتداداً لكل نواحي التعدد تلك التي ذكرت لحقب من الأزمنة متتالية متعاقبة ، ذلك إننا إذا نظرنا إلى التركيب الاجتماعي لتلك البلاد فسوف لا تخطئ أعيننا كم من الأجناس احتوى والى كم من الثقافات تعرض وكم من الحروب خاض مهاجماً او مدافعاً .

لقد ضم المجتمع الأندلسي أجناساً من البشر ذوي عقائد عديدة وعادات مختلفة من عرب وبربر وصقالبة واسبان . ومن الأسباب من اعتنق الإسلام ومنهم من ظل على مسيحيته .

فالفتره الأولى من حكم الولاة بعد الفتح لم تكن فترة استقرار ورغد لكثرة ما تخللها من حروب وفتوح وتوسع لما كان يحدث بين العرب والبربر من منازعات ومشاحنات .

اشتهر الأندلسيون بصفات اخصوا بها وتميزوا بها عن غيرهم من الأجناس مثل النظافة في ملابسهم ومظهرهم اغنياء وفقراء - اما صفاتهم الخلقية فقد حافظوا على الأصول الاخلاقية مع ميل الى التحرر والانطلاق ونبت التزمتم . ونجدهم قد كانوا محبين للشراب مقبلين عليه اقبالاً شديداً لوفرة الكروم في بلادهم (١).

ولعل من أهم الأسباب التي دفعتهم الى حب اللغة العربية لغة الإسلام . فوق أنها لغة الدين الذي اعتنقوه انها لغة العلوم والمعارف التي اقتصرت إليها لغات الأجناس الأخرى في وقت عم الجهل سائر أرجاء المعمورة وسيطر الفساد على جميع بقاعها فجاءت تعاليم الإسلام ومعارفه لتحيل ظلام الجهل الحالك والضلال الشامل والظلم السائد إلى نور وإشراقه وعدل وإنصاف وهدى استقامة .

(١) جزوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس لابن عبد الله الحميدي تحقيق محمد الطنجي ط دار السعادة مصر ١٩٥٢م ص ١٢٦

منزلة الفقهاء والعلماء :

وكان للفقهاء بالاندلس منزلة سامية فقد وقف الحكام في صفهم بتأييد أفكارهم وآرائهم حتى يكونوا لهم سنداً وعوناً على البقاء في السلطة ولهذا حارب الحكام الفلسفة تقرباً إليهم وصاروا لا يصدر عن حكماء أو قراراً في سلم أو حرب إلا بمشورتهم واعتمدوا عليهم في جمع المسلمين لمحاربة أعدائهم من الفرنجة. واصبح الفقهاء اعظم شاناً و أوفر حظاً في عهد المرابطين لان أمراءهم لم يكونوا يقطعون في أمر إلا بمحضر أربعة من الفقهاء (١) فبلغوا في أيامهم منزلة سامية لم يبلغوها في سائر العصور فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم فاقبلوا على تكديس الأموال وصاروا طبقة متميزة في المجتمع الأندلسي مما دفع ابن خفاجة ان يقول :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتب ومجالس

وتزهّدوا حتى أصابوا فرصة في أخذ مال مساجد وكنائس (٢)

كان الشعر والأدب وسيلة ترفع من صاحبها الى أسمى مراتب الدولة بغض النظر عن دين أو عقيدة فقد نبغ عدد من الشعراء المسلمين تولى بعضهم منصب الوزارة وشكلوا ما يمكن تسميه شعر أهل الذمة ونبغ من بينهم بعض شاعرات مثل قسمنونة بنت اسماعيل اليهودية .

لقد تولى ثلاثة من الشعراء الوزارة في الأندلس أولهم الوزير الشاعر

الكاتب مسداي الذي لقب نفسه بابي الفضل بعد ان صار وزيراً . وله شعر جميل

يمثل الصورة الذهنية ومن صورهِ الجميلة في يوم غائم نزل فيه الثلج

أطربنا غيمٌ يمازجُ شمسهُ فيستر طوراً بالسحابِ ويكشفُ

تري قزحاً في الجو يفتحُ قوسهُ مكباً على قطنٍ من الثلج يندفُ (٣)

ومن شعره الذي أغدق فيه في الصنعة البديعية اغراقاً شديداً

قوله :

توريدُ خدَاكَ للحداقِ لذاتُ عليه من عنبرِ الأصداغِ لاماتُ (١)

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٩

(٢) انظر فضائل الاندلس واملها ثلاث رسائل لابن حزم د. صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد بيروت ص ١٢٥

(٣) المغرب ج ٢ ص ٤٤١

وقد ظلت المجموعات غير المتشابهة من البشر تتعم في ظل الحضارة التي
اطلت على الأندلس وذلك بجهود الحكام العرب وعبقرية الوافدين من المشرق
الذي كان يمثل قمة التقدم الفكري وذروة النهوض الحضاري في العالم انذاك هذه
المجموعات الهائلة من سكان الأندلس ما لبث ان انصهرت معاً تحت افياء هذه
الحضارة وجنت ثمارها استقراراً وعلماً وثقافة وفنوناً ومعرفة ورغد حياة في اكثر
أيام حياتهم حتى ان الأموال التي تركها عبد الرحمن الناصر في خزائن الدولة
كانت خمسة الاف الف الف الف (ثلاث مرات) دينار ثلثها كان يصرف في
الصيت واللهو والمجون وثلثها في التعمير والبناء وثلث للجيش وثلث يدخر ليكون
احتياطي الخزانة .

حفلت بلاد الأندلس ومدنها بالقصور الأنيقة التي ولع الملوك بها ايما ولوع
واغرموا بتزينها والإنفاق على زينتها و أسرفوا في زخرفتها والحقوا بها البساتين
الغناء والبرك ذات المرمر تحيط بها التماثيل الرائعة من كل جانب ولعل أول
الملوك الأندلسيين الذي اشرف في بناء القصور هو عبد الرحمن الأوسط الذي بنى
عدداً من القصور منها البهو الكامل والمنيف . ولم يقلل الشعراء عن وصف هذه
القصور التي أسرت أنظارهم دون ريب لما حوت من فخامة وجمال .
ويصف عباس بن فرناس بعض ما رأي من فخامة قصور عبد الرحمن الأوسط
مصوراً ما فيها من ترف وزينة وإسراف فيقول :

حنايا كأمثال الأهله ركبت

على عمد تعتد في جوهر البدر

كأن من الياقوت قيست رؤوسها

على كل ميسنون مقبض من السدر

تري الباسقات الناشرات فروعها

موائس فيها من مداولة الوفر

كأن صناعاً صاغ بين غصونها

من الذهب البادي عراجين من تمر

نشئت لأولاً م استحالت زمرداً

يوول الى العقيان قبل جني البسر (١)

على اننا ونحن في حديث الحضارة والرقي لا نستطيع ان نقفل الإشارة إلى ضاحية الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر شمال قرطبة سنة ٣٢٥هـ وبناء الزهراء يدل على الروح العمرانية الكامنة في نفس ملوك العرب في الأندلس وان كان قد شابها كثير من البذخ

وكانت للناصر جارية قريبة الى نفسه اسمها "الزهراء" فقالت له اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي فأمر الناصر ببناء المدينة تحت جبل العروس غرب غرناطة وجعلها مستنزه للزهراء وحاشيته ورجال دولته جلب لها العديد من ألوان الرخام لبناء الزهراء فأتى بالرخام الابيض " والوردي والأخضر من أفريقيا وقرطاجة والحوض المنقوش المذهب من الشام فلما انتهى بناء المدينة أمر الناصر ان تنقش صورة الزهراء على بابها. (٢)

وكان الناصر يميل الى العمران بطبعه ويعشق الجميل من المناظر كذلك كانت معظم مدن الأندلس فلها من الحضارة والرقي والعمران والفنون والزينة والزخارف والأناقة والحدائق الغناء الكثيرة وكانت القصور تحاط بتمائيل وتحف الى غير ذلك من ألوان الفنون الاخرى التي يسر بها عين الرائي . ومعنى ذلك ان الحضارة العمرانية قد حققت من الجمال وروعة التشييد قبل ثمانية قرون ما تسعى جاهدة إليه حضارة العمران في القرن العشرين .

جمال المظهر : اما من ناحية الملابس فقد كانوا يصنعون ملابسهم من النسيج الفاخر ومن الديباج والحرير المختلف الألوان وقد كانوا يطلقون على الثوب اسم حلة والحلة تعني قطعتين من الثياب هما الرداء والأزار معاً. (٣)

والحلي على الأغلب مصنوع من الحرير الموشى بخيوط ذهبية وتصنع أيضا من الكتان او القطن المزخرف باشكال هندسية على شكل معينات على ان اللباس العام الذي يلبسه الناس كان الطيلسان وهو الثوب الموصول به غطاء للرأس اما غطاء

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ١١٢

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ١١٥ (بتصرف)

(٣) تاريخ مدينة المرية الاسلامية الدكتور السيد عبد العزيز سالم ط النهضة العربية بيروت ص ١٦٠

الرأس فكان العمامة لمن أراد ولقد كان أهل مشرق ألا ندلس حتى الأمراء
والعظماء يبدون حاسري الرؤوس .

ومجمل القول ان الأندلسيون كانوا على جانب من الأناقة والترتيب في
ملابسهم الأمر الذي دفع الكثير من المسيحيين الأوربيين ان يتشبهوا في أزيائهم
بالمسلمين ومن هنا يجدر بنا ان نشير الى المغني زرياب فمن ناحية الملابس
وضع لها نظاماً وخصص ملابساً لكل فصل من فصول السنة الأربعة وله مجال
ايضاً في الأطعمة فابتدع أصنافاً جديدة وفي أصناف الشراب فضل آنية الزجاج
على آنية الذهب و الفضة .

على ان المجتمع الأندلسي في جملته كان مجتمع يسر وحب وتسامح فهو شعب
شديد العناية بجمال المظهر ولا غرابة في ذلك فطبيعة البيئة الجميلة التي يعيش
فيها هي التي هيأت له ذلك فضلاً على ان الدين الإسلامي يحث على ان تكون
النظافة شعيرة من شعائره .

وفي أهل ألا ندلس حسن تدبير وبعد عن الإسراف والتبذير انهم أهل عون
ومروءة وحسن وظرف ومن رقيق شعر اسحاق بن شمعون القرطبي
قَمِّ هَاتِ كَأْسِكَ فَالنعيمُ قَدْ اتسَقُ

والعودُ من داعي المسرةِ قَدْ نطقُ (١)

ترف ولهو ومجانة وفسوق

وبالرغم من كل ما سبق نقرر ان القوم بعد أن دالت دولة الأمويين استسلموا
للشبهوات وشاعت فيهم مجالس الخمر واستماع للمغنيات ومشاهدة الراقصات
وكؤوس الخمر ومن مظاهر الترف سكن الأمراء القصور الفخمة وأكثر من
مجالس الأنس واللهو وذلك مما اضعف عقيدتهم الدينية والأخلاقية وكان من
إسراف الناصر ان جعل سطح القبة الصغيرة التي كانت تعلو قصر الحمراء
المشهور بالزهراء قراميد من ذهب وفضة انفق عليها مالا طائلاً وجعل سقفها
خضراء فاقعة تستلب الأنظار بأشعة نورها .

اما الأندلس فقد كان أهلها بطبعهم يحبون اللهو ويغرمون بالغناء وقد نقل عنهم ابن غالب الأندلسي صاحب الكتاب فرحة الأندلس . أهل الأندلس قد ازدهر عندهم من الغناء والموسيقى من ذلك كتاب الأغاني لابي الفرج الاصفهاني .

وقد من المغنيات المغنية فضل و كانت كاملة الخصال حاذقة لفن الغناء نشأت وتعلمت ببغداد ثم درجت الى المدينة و أحسنت فن الغناء وقد أسس الأمير الاموي لهؤلاء المغنيات داراً بقصره بدار المدينت . وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة ادبهن .

أول من دخل الأندلس من المغنين علوان في عهد الأمير بسام الحكم بن هشام (٧٩٦-٨٢١م) وارتقى فن الغناء في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم والمغني ابي الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب .

وقد عقد المقري في نوح الطيب فصلاً طويلاً عنه وصرح بان زرياب لقب غلب عليه ببلاده من اجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله وشبه بطائر اسود غرد عندهم وكان شاعراً مطبوعاً . أصل زرياب عراقي وكان مولى المهدي العباسي كما كان تلميذاً للمغني والموسيقى العظيم اسحاق الموصلي رئيس الموسيقيين المغنيين في بلاط الرشيد ببغداد .

وقد نبغ زرياب في فن الألحان على يد أستاذه اسحاق الموصلي وتميز بفهم هذا الفن والصدق مع جمال الصوت فنفوق على أستاذه اسحاق دون ان يدري هذا الى أي درجة من الإجادة وصل تلميذه .

فلما سأل الرشيد اسحاق ان يأتيه بمغن جديد مجيد للصنعة لم يشتهر اسمه فذكر له اسحاق اسم زرياب وأثنى عليه امام الخليفة وذكر له انه من اكتشافه وأحضره أمام الرشيد فطلب منه الرشيد ان يتناول عود أستاذه ويغني عن نغماته فامتنع زرياب وأصر على ان يعزف على عوده الخاص فلما سأله الرشيد عن الفارق بين عوده وعود أستاذه أجابه زرياب "عودي وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث و أوتاري لم تغزل بماء ساخن لذلك اكتسب اناقة ورخاوة فأمره الرشيد بالغناء فغناه .

يا أيها الملك الميمون طائره

هارون راح إليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد طرباً شديداً و أوصى اسحاق به حتى يفرغ من مشاكلة له .
فثارت به الغيرة والحسد من زرياب وخلا زرياب بعد انتهاء المجلس
وهدهد بالموت او مغادرته البلاد فوراً وكان زرياب ذكياً فأدرك في الحال انه لن
يقف أمام اسحاق فأثر ان يفر بنفسه أولاده ورحل الى الغرب . وبعد وفاة الحكم
اتصل زرياب بعبد الرحمن الحكم واعلمه برغبته في الوصول اليه . فرحب به
الحكم واحسن وفادته وبدأ بسماع غنائه وقدمه على جميع المغنيين في بلاطه
واجزل عليه العطاء ورتب له ولأفراد أسرته الرواتب والاقطاعات .

وأسس زرياب مدرسة الغناء والموسيقى بقرطبة ووضع الأسس القومية التي قامت
عليها الموسيقى الأندلسية والتي فاقت ما عداها في الشرق والمغرب وكان له
تلاميذ استطاعوا ان ينتهجوا سبيله في هذا الفن .

ونبع من تلاميذه اولاده الثمانية الذكور وبناته علية وحمدونة . وكلهم مارسوا
الغناء و أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس وازدهر فن الموشحات في عصر
ملوك الطوائف واشتهر من الوشاحين ابو العباس الأعمى .

واما الآلات فكثيرة فمنها ما يسمونه الشبابة وهي قصبه جوفاء لها ثقب في
جوانبها والمزمار من نوع هذه الآلة نفسها من شكل القصبة منحوتة الجانبين (1)
ويعد البوق افضل هذه الآلات وكان يتخذ من نحاس أجوف في مقدار

الزراع

ومن الآت الطرب الآلات الوترية المزودة بالأوتار المشدودة وقد استحدث زرياب
بالأندلس مضرباً للعود صنعة من قوادم النسر فاعجب به وذلك لخفته على
الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته .

وكانت بالأندلس الآت موسيقية أخرى مثل الدف والطبول و تصحب الموسيقى
ايضاً الآت تصفيق وتعرف بالصنجات

واستخدم زرياب جماعة معه يرددون معه بعض المقاطع ومازالت آثار زرياب
باقية حتى اليوم في الموسيقى والغناء بالأندلس (1) وان كانت قرطبة قد استأثرت

بالغناء والمغنين في أول عهد الأندلس بهذا الفن فانه بتقادم الزمن انتقل مركز الغناء الى اشبيلية حتى صارت شبه عاصمة لهذا الفن اما قرطبة فتفردت بالعلم وصارت مدينة النور ومن المضار اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع الآته حملت الى اشبيلية .

الفكاهة والملح

هذا ولا شك ففي الأندلسيين ظرف وفكاهة ارتباطاً بيسر الحياة ولينها واتسم المجتمع بخفة الروح من ذلك قصة قاضي لوشة الذي كان يستعين بامرأته في إصدار الأحكام وان دل هذا على شيء فإنما يدل على دور المرأة البارز ومكانتها العلمية في تدبير شؤون الدولة وان صاحباً من اصحابه كان يعلم ذلك ولعله لسان الدين بن الخطيب كان يكتب اليه مداعباً .

بلوشة قاضٍ له زوجة واحكامها في الوري ماضية

فيا ليته لم يكن قاضياً ويا ليتها كانت القاضية (١)

ويطلع القاضي زوجته على البيتين وتقف عن التورية اللطيفة في صفة القاضية في البيت الثاني وتقول له ناولني القلم ثم تكتب على البديهة معرضة بكاتب البيتين هو شيخ سوء مزدري له شيوب عاصية

وابن الخياط الشاعر يقول نادياً حظ الذكي والأديب في ظرف وخفة روح .

لم يخل من نوب الزمان أديب

كلا فشان النائبات عجيب

وغضارة الأيام تأبى أن يرى

فيها لابناء الذكاء نصيب (٢)

(١) اخبار الغناء والمغنين في الاندلس د. احسان عباس الجزء الأول عدد أزار ١٩٦٣م الجامعة الامريكية بيروت

(٢) نفع الطيب ٣٠/٦

(٣) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ثلاث مجلدات فقط لابن الحسن علي بن بسام الشنترى المتوفى عام ٥٤٢هـ تحقيق جامعة

ومن الشعراء الظرفاء الذين اكثروا من الملح والفكاهة خلف بن فرج الالبيري المعروف بالسُميسر الذي يحل الى شعراء عصره والشعراء بعامه حملة تتال من مروءتهم فيقول :

انا احب الشعر لكنني أكره أهل الشعر بالفطرة
فلمست تلقى رجلاً شاعراً إلا وفيه خلة تُكسرة
إن لم يكن كفوً يكن آفةً تلازم الظهر أو السرّة

وهكذا فمعظم شعراء الأندلس كغيره من الشعراء لهم من الظرف والملاحة ، وقد ساعد ذلك وفرة النعيم وخلو البال والهدوء الشامل والطبيعة الغناء .

المرأة في المجتمع الأندلسي :

ويجدر بنا ان نشير إلى أن المرأة في المجتمع الأندلسي كانت أكثر قدرة على الحركة .

على أن صورة المرأة في الأندلس لا تكاد تختلف عن مثيلات لها في المشرق غير إن فجر الحياة الأندلسية كان هو الذي يقوم بعملية توريد القيان إلى الأندلس وكان أكثرهن من القيان اللاتي تلقين أصول العزف والغناء في المدينة لذلك فقد افرد لهن الأمير عبد الرحمن الأوسط داراً سميت دار-المدينيات ^(١) ومن أشهرهن فضل المدينة التي كانت في أول أمرها جارية لإحدى بنات الرشيد ثم ذهبت للمدينة لتزداد بفنها حدقاً ومهارة . ومن هنالك اشتريت للأمير عبد الرحمن هي وزميلتها علم المدينة وكانت كل منهما أثيرة لديه لجودة غنائها ورقة أدبها ومن شهيرات قيان دار المدينيات قلم وهي أندلسية الأصل سبقت صغيرة وأرسلت الى المشرق وتلقت أصول الغناء في المدينة غير ان قلماً هذه كانت تمتاز على غيرها من القيان بثقافة واسعة وكياسة وأدب بل أنها كانت راوية للشعر حافظة للأجناس عالمة بضروب الآداب . ^(٢)

ومن القيان الوافدات من المشرق جارية شاعرة فصيحة حاذقة في فن اللحن والغناء اسمها قمر وكانت تقول الشعر وهي جارية لابراهيم بن حجاج اللخمي

(١) نفع الطيب ط ٤ ص

(٢) نفع الطيب ط ٢ ص ١٤٦

الذي استغل بأشيبيلية ومنهن انس القلوب جارية المنصور ابن عامر . على ان الجواري والمغنيات لم يكن مكانهن قصور الملوك الأغنياء وحسب بل احياناً يكون مكانهن الأكواخ فقد كان للمسلم بن يحيى مولى بن زهرة جارية عرفت بالعجفاء وكان مسلم بن يحيى فقيراً يسكن بيتاً طوله اثنتا عشر زراعاً ولكن جاريته جعلت إعجاب الناس بصوتها يصل الى عبد الرحمن الداخل فاشتراها وكان ذلك بمثابة تغيير لحياة مولاها . ومن القيان ايضاً العالمات الفاضلات المتدينات من هذا النوع القينة (عابد المدينة) فقد كانت تروي عن مالك بن انس امام دار الهجرة وقال بعض الحفاظ انها تروي عشرة آلاف حديث وهي لفضلها صارت ام ولد لحبيب بن الوليد المرواني

على أن إسراف بعض النساء الأندلسيات أنفسهن وعلى مجتمعهن لا يحد من قيمة المرأة الأندلسية في نطاق المجتمع الواسع حيث إنها عرفت بالثقافة واحسان تدبير شؤونها والبيت في القضايا الخطيرة والمشكلات المستعصية وكثير من القيان والسراري في المجتمع الأندلسي صرن أمهات ينجبن المولدين وكان في هؤلاء المولدين بياض وشقرة ، وهذا ينتهي بعدد كبير من ابناء المجتمع الى ان يتكلموا لغة أمهاتهم الأسبانيات وهي اللغة الرومانسية . وشيئاً فشيئاً أخذت اواصر الزواج والتسرى تتجب الأبناء ذوي اللسانين لسان الأدب وهو العربية ولسان الأم وهو الرومانسية وما لبثت هذه ان أخذت مكانها في المجتمع الأندلسي .

عاشت المرأة في البيئة الأندلسية ذروة النعمة أوج النعيم لذلك نجد ان شعرهن يمثل المجتمع الذي عشن فيه مجتمع الرقة ورهافة الحس والشعر والسحر والجمال وليس من شك في ان إتاحة الفرصة للمرأة الأندلسية في ميدان التعليم والثقافة قد صقل من موهبتها ووسع آفاق تفكيرها وجعلها تحتل مكانة مرموقة في مجتمعها . وعدد الشاعرات الأندلسيات بالقياس الى عددن في المشرق يحكي صورة توحى بان نصيب المرأة الأندلسية من العلم والمعرفة اكثر من نصيب أختها في المشرق فقد كان بعض المتأدبات يترددن على منتديات الرجال الأدبية كما كان لبعض النساء ايضاً منتديات أدبية يؤمها الرجال والنساء على حد سواء ولعل ندوة ولادة بنت المستكفي تعتبر مثلاً لهذا اللون من النشاط النسائي . على ان اسراف بعض

نساء الأندلس في الزي والزينة بأقل من اسرافهن في السلوك الاجتماعي فقد كن يعمدن الى التفنن في لبس المصبغات والمذهبات والديباجات من الملابس ولبس الحلبي الى درجة من الغلو جعلت المؤرخ الأديب ابن الخطيب يقول "تسأل الله ان يعض عنهن فيها عين الدهر" (١)

على ان حركة المرأة في الأندلس قد زادت بعض الشيء عما ينبغي لها ان تكون فقد روي شعر مكشوف لبعض الشاعرات الشهيرات مليء بأسباب البذاءة وكان هذا الشعر النسائي ينشر في المجتمعات ويحفظ ولعل من افحش الشعر ما روي لنزهون القرناطية ولولادة بنت المستكفي ولمهجة التياني القرطبية ولهن من الشعر ما يجرح المشاعر والحياء وذلك لفحش ألفاظه وبذاءة معانيه .
وخلاصة القول ان المرأة في المجتمع الأندلسي كانت هي العالمة والمنقفة و
والحكيمة و القاضية والشاعرة الأدبية وذلك لما لقينته من مكانة مرموقة في
المجتمع إعزازاً وتكريماً أو ابتذالاً ومهانة .

المبحث الرابع

الحياة العقلية والعلمية

في العصور الأندلسية

وامتزاج الثقافات

(١-٤) الحياة العقلية والعلمية في العصور الأندلسية وإمتزاج الثقافات :-
نهضت الحياة العقلية والثقافة الأندلسية نهضة شاملة وذلك لان ظروف الأندلس قد
ساعدت على هذه النهضة فالاستقلال والأمن والرخاء والحضارة والرقي كل ذلك
من شأنه ان يدفع الى حياة ثقافية ناهضة . ويساعد على مستوى علمي رفيع .
وعندما استقر المسلمون في الأندلس وامتد على حياتهم ومصدر رزقهم
بدأوا في الدراسة والبحث وأول وما اعتمدوا عليه في بحثهم هذا الكتاب والسنة
فكانت أفكارهم مستمدة من هذين المصدرين وكانت علوم الشريعة وعلوم اللغة
وما يتصل بتقويم اللسان والبيان كان سبباً في انتشار الثقافة .^(١)
وكانت لطبيعة الأندلس الجميلة الأثر الملموس في صفاء نفوسهم وتوقد
قريحتهم وخصوبة ذهنهم وسرعة بديهتهم فبرعوا في علوم الدين واللغة والأدب .
وكان تصادم الآراء السياسية والدينية باعثاً للمسلمين على التعمق في فهم
دينهم الذي يعتقدونه لذا ظهرت المذاهب الفقهية بين مسلمي الأندلس واتبع كل
مذهب من هذه المذاهب جماعة من المسلمين وكان لانتشار المذاهب الأثر إلى
الحاسم في تطور الثقافة وعلى الرغم من الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد
في الحياة السياسية فإنها كانت شعلة ونور وميناره وهداية وكانت جامعاتها في
قرطبة واشبيلية وغرناطة وغيرها من الحواضر الأندلسية ملتقى طلاب العلم .
فكان للأندلس مكانة مرموقة في العلم والأدب . وبالإجمال سوف نلقي الضوء
على الثقافة الأندلسية والفكر الإسلامي عبر العصور المختلفة .
إمتزاج الثقافة الأندلسية

لم تتخذ الثقافة الأندلسية طابعها المميز الا في فترة الإمارة بقرطبة اما في
عصر الولاة فقد كان اعتماد الثقافة الأندلسية على الثقافة المشرقية كبيراً وامراً لا
ريب فيه وذلك لانشغالهم بالحروب المتواصلة والصراعات الطاحنة فلم يكن لديهم
متسع من الوقت للبحث والدراسة .^(٢)

(١) فتح الطيب ط ١ ص ٢٤٥

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية التأثيرات المشرقية ومدى اثرها في تكوين الثقافة الأندلسية . محمود مكي مجلد ٩ ١٩٦١م -

غير انه كان هناك نفر من الصحابة والتابعين الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية يصحبون الجند في ميادين الجهاد والإفتاء بأمور الدين والفقہ فالحياة الثقافية كانت لا تتعدى حلقات الدرس في بعض المساجد وكان الأساتذة قليلين بطبيعة الحال. وكان هذا القدر المتواضع من الثقافة بمثابة الخيط الأول لفجر الثقافة الأندلسية وقد حفظت لنا المراجع العربية بعض من يقرض الشعر منهم :
ابن القمة وهو من العرب الوافدين على الأندلس وقد اشتهر بالهجاء والمدح ومن شعره :

ولقد اراني من هواي بمنزلٍ عالٍ وراسي ذو غدائرٍ أقرعُ
والعيشُ أغيرُ ساقطِ أفنائه والماءُ أطيبه لنا والمرتعُ

ومن شعراء تلك الفترة حسام بن ضرار الكلبى وكان قد وفد إلى الأندلس والياً عليها عام ١٢٥هـ وكان فارساً لذا لقب بعنترة الأندلس وهو كغيره لم تحفظ له الكتب الا قليل من شعره في الرثاء :

فليس ابن جواس يخبر أنني سعت به سعي امرئ غير عاقل

قتلت به تسعين تحسب انهم جزوعٌ نخيلٍ صرعت في المسابيل (١)

وقد يكون هناك شعراء آخرون ضاعت أشعارهم مع الكثير مما ضاع من تراث الأندلس في هذه الفترة المضطربة .

شعراء هذه الفترة مشاركة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح او بعده .
وظهر في هذه الفترة كتاب اذ كانت دواعي النثر اكثر من دواعي لشعر لديهم
ومن الكتاب خالد بن يزيد وكان النثر في تلك الفترة تشمل مسائل الدين وشؤون السياسة وأمور القبائل وذلك لان كتاب النثر ايضاً كانوا مشاركة شأنهم شأن الشعراء ايضاً . ومن الشعر ما نسب الى طارق بن زياد
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا

إذا نحن أدركنا الذي كان أجورا

ولما جاء عصر الإمارة شعر المسلمون بالاستقرار الى حد ما وأمست الحاجة الى الثقافة مأساة لكي لتصبح لهم مكانة بارزة ينافسون بها المشاركة وهناك عدة عوامل ساعدت على ازدهار الثقافة وانتشارها في ظل إمارة الأمويين بالأندلس وهي: أولاً :

وفود كثير من الأمويين الفارين من بطش العباسيين الى الأندلس . وجاء الكثير ممن يرغبون في الإقامة بالإقليم الجديد لوفرة خيراته وجمال طبيعته ومما لا ريب فيه ان كثير ممن وفد منهم كان على حظ وافر من الثقافة والمعرفة ومنهم عبد الملك بن مروان .

ثانياً :

عودة البعثات التعليمية التي اجتهد الأمراء في ارسالها للدراسة في المشرق العربي فقد عاد رجالها بعدد وفير من العلوم والمعارف فكانوا رسلاً لنشر هذه الثقافة بين جنسهم ومن أشهرهم الغازي بن قيس وغيرهم من ذوي العلم والمعرفة .

ثالثاً :

انشاء مسجد قرطبة حيث انها أصبحت بمثابة الجامعات في وقتنا الحاضر وظهر في هذه الفترة اول فيلسوف هو "محمد بن مسرة" الذي شققت بالدراسات⁽¹⁾ العقلية وقد استطاع هذا العالم ان يجمع حوله العديد من الطلاب الذين يتلقون تعاليمه .

رابعاً :

جمع الكتب واقامة المكتبات العامة التي يرتادها الدارسون والباحثون وساعد على ذلك من نشاط الحركة الثقافية بالأندلس .

خامساً :

مشاركة الأمراء والخلفاء في الأندلس في إثراء الثقافة الأندلسية فمعظم هؤلاء الأمراء كانوا أدباء وشعراء وعلماء .

ومن النصوص الادبية في عصر الإمارة قول عبد الرحمن الداخل وقد بعث بالأبيات إلى أخته :

(1) وفيات الاعيان في ابناء الزمان لابن خلكان تحقيق محي الدين عبد الحميد ط النهضة القاهرة ص ٥١٤

إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكـيه بأرض
قد قضى الله بالفراق علينا فعتى باجتماعنا سوف يقضي (١)

وهذا يذكرنا بأبيات ابن عبد ربه والتي هي من روائع شعره هذان البيتان
الساحران اللذان تأثر بهما ابن زيدون حين كان يبكي حبه لولادة بنت المستكفي
معتزياً في البلاد سائحاً في الربوع ضارباً في مشارق الأرض ومغاربها
ولم يكن ابن زيدون وحده الذي تأثر بهما فكثر قد استهوت أفئدتهم كلماتها لأنها
الأصل الذي يعيش في كل كبد حرى فارقت الأهل والأحباب

الجسم في بلد والروح في بلد ياوحشة الروح بل يا غربة الجسد
إن تبك عينك لي يا من كلفت به من رحمة فهما سهمان في كبدي (٢)

أما في عصر الخلافة فقد شقت الثقافة طريقها المستقل عن الشرق
وصارت لها شخصيتها المتميزة وساعد على ذلك ما نعمت به البلاد من توحيد
واستقلال وهذه كلها أشياء من شأنها ان تدفع عجلة الثقافة والرقي والحضارة الى
الإمام .

وظهرت مجموع مؤلفات لنخبة من العلماء منهم من له مؤلفات في التاريخ
والطب والأدب والتراجم والفلسفة من هؤلاء فيلسوف أندلس ومن الأمراء من
أحبوا الثقافة والعلم فكان الناصر وابنه الحكم قد استقدا أبا علي القالي من
المشرق وهيا له الظروف المناسبة حتى تمكن من الجلوس في جامع قرطبة
للتدريس كما انه أوكل اليه تربية ابنه الحكم وعهد اليه بأمر تنقيفه ولا بد ان يكون
القالي قد حمل معه من المشرق العديد من مؤلفات الشرقيين ودواوينهم واذاعها بين
الاندلسيين (٣)

أما الحكم فقد جمع في مكتبته ما يربو عن الاربعمائة الف مجلد (٤) وانفق
في تكوين هذه المكتبة أموالاً باهظة . وقد شجع العلماء والفقهاء على البحث
والدراسة وهياً لهم الظروف الملائمة لهم من سكن ومال وكان يبدي رايه في

(١) في الادب الاندلسي د. جويت الركابي ط ٤ دار المعارف بمصر ص ١٢٦

(٢) مناهج التأليف عند العلماء د. مصطفى الشقعة دار العلم للملايين ج ٦ ابريل ١٩٩١م

(٣) الفهرسة لابي بكر محمد بن خير ط سرقسطة ١٨٩٤م ط ١ ص ٢٩

(٤) نفع الطيب ج ١/١٨٤

الموضوعات المطروحة للبحث فقد اقترح على ابن الصغر ان يؤلف له كتاباً في أشعار خلفاء بني امية .

وهذه النهضة في التأليف والبحث ، شملت مختلف الأنواع وظهرت مجموعة من الكتب منها مختصر كتاب العين وكتاب طبقات النحويين والمقصود والممدود.

ونبع فقهاء عديدون في التأليف منهم يحي الليثي وابوبكر بن القوطية وله باع طويل في علوم الفقه واللغة والحديث (١)

وظهرت مجموع من اثار هذه الفترة لنخبة من العلماء منهم ابوبكر بن القوطية وله كتاب تاريخ افتتاح الأندلس

وأطلقت الفلسفة في هذا العصر فظهرت الى الناس فلسفة ابن مسرة وانتشرت مبادئه وأفكاره وفي الطب نبغ الكثيرون منهم سعيد عبد ربه واحمد بن يونس وفي الرياضيات تفوق ابو بكر بن عيسى الذي كان مبرزاً في الهندسة والنجوم . وهذا العدد الغفير من العلماء في شتى فروع المعرفة يدل على تشجيع الامراء للثقافة واصحابها وعلى اقبال الأندلسيين على الدراسة والبحث حتى اضحت هذه الفترة من ازهى العصور الذهبية للثقافة والعلوم .

وليس من شك في ان دخول ديوان المتنبي الى الأندلس في فترة الخلافة كان من اهم العوامل التي زادت من اهتمام الأندلسيين بهذا الاتجاه المحافظ الجديد. فالمتنبي كان من اشهر شعراء العربية وقد تربع على عرشها بلا منازع وقال عنه ابن رشيق القيرواني (ملاً الدنيا وشغل الناس) (٢) وكان اسمه زائجاً في المغرب ما كان يملأ الاسماع والقلوب في المشرق فدخول شعره الأندلس في فترة الخلافة أثار اهتمام الأندلسيين فقد استطاع ان يجعل من اللغة كائناً ينبض بالحياة فطرق بذلك أغراض الشعر المختلفة وفي كل غرض يجعلك ظمناً الى ما دون الارتقاء من فيض كلماته ونبع ابداعه وفنه وقدرته على اشاعة روح الترابط بين الدلالات اللغوية فادرك بذلك زمام اللغة . وفي مقدمة هؤلاء الذين نقلوا شعر

(١) وفيات الاعيان ج ١/٥١٤

(٢) العمدة/ في صناعة الشعر ونفحة ابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عب الحميد طبعة القاهرة ص ٨٦

المتنبي إلى الأندلس زكريا بن الأشج وهو جزائري الأصل كان قد التقى بابي الطيب خلال إقامته بمصر ودرس ديوانه ثم رحل إلى الأندلس فزاع هذا الديوان (١)

ويبدو أن لاتجاه الجديد قد بدأ يطغى على الاتجاه القديم ويبدو كذلك أن الجمهور الأندلسي المتقف أصبح يعتبر هذا الاتجاه الصورة المثلى للشعر التقليدي ومما يؤيد ذلك أن الشاعر الأندلسي ابن يحيى الريحاني قد نظم قصيدة رثاء بناها على مذهب العرب وخرج فيها من مذاهب المحدثين فلم يرضها العامة .

الثقافة في دولة بني الأحمر

أما الثقافة في دولة بني الأحمر فإنه بالرغم من ظروفها القاسية سياسياً واجتماعياً والصراعات المدمرة التي سيطرت على سياستها فقد كانت الثقافة زاهية وحافلة بأعلام الفن والمعرفة وظلت غرناطة منارة للفكر والحضارة فقد برز في هذا العصر علماء منهم أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف كان قاضياً لغرناطة وله عدة مؤلفات .

ومن علماء الحديث شهاب الدين أبو العباس الأشبيلي وأبو المكارم الأزدي الغرناطي ولد بوادي أشي عام ٥٩٩هـ - ١٢٠٢م وتوفي بمكة وله الأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة .

الثقافة في عصر الطوائف

والثقافة في عصر الطوائف لها نظرة خاصة بالرغم مما ساد هذا العصر من الفوضى والانحلال وكثرة الحروب والمنازعات فهو يعتبر عصر ازدهار للعلوم والفنون . وكان العلماء معظمهم من النابهين في الأدب والشعر والعلم . وغدت قصورهم منتديات زاهرة ومجالس يجتمع فيها علماء الفكر والفن ومن الفلاسفة أبو محمد علي ابن حزم (٢)

(١) انظر تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس للحافظ ابن الوليد بن القرضي نشر السيد عزت العطار ١٣٧٢هـ ط ١ ص ٢٨٦

(٢) قصول في الأدب الأندلسي د ز حكمت علي الإدريسي ط بغداد ص ٢٢٦

وحمل القالي معه العديد من مؤلفات المشرقيين ودواوينهم واداعها بينهم ومما ساعد على ازدهارها في هذا العصر ما نعمت به البلاد من توحيد واستقلال . وقد شجع العلماء والفقهاء على البحث والدراسة وهيأت لهم الظروف المناسبة من سكن ومال وهذه النهضة نجدها قد شملت جميع انواع المعرفة والف ابو بكر الزندي مختصر كتاب العين وكتاب طبقات النحويين وكتاب الواضح اما في التاريخ فقد نبغ من العلماء الأفاضل ابو بكر بن القوطية وله كتاب تاريخ افتتاح الأندلس (١)

وقد ولد بقرطبة ثم تحول الى المرية وعاد مرة أخرى إلى قرطبة وتابع تدريسه في الجامع وله كتاب طوق الحمام وله جمهرة انساب العرب الذي يبحث في أصول العرب وأنسابها

ومن أعلام هذا العصر ابو الوليد وقد درس في قرية ثم رحل الى المشرق ودرس في بغداد وعاد الى الأندلس وكان كثيراً ما يناظر ابن حزم (٢) . ونبغ في هذا العصر طائفة من علماء الرياضة ومنهم ابو الوليد هشام الوقشي وكان ابرز علماء عصره في الهندسة والنحو واللغة .

وكانت سرقسطة وطليطلة وقرطبة أعظم مراكز الدراسات الفلسفية والرياضية وكان غالباً ما ينتقل هؤلاء العلماء من دولة الى أخرى من دول الطوائف وفقاً للأحوال والظروف وكان البعض من هؤلاء العلماء ويتطلع الى أمير بذاته طوال حياته وتبعاً لذلك فقد اغدقوا عليهم الأموال والهدايا وقد كان من اثر ذبوع الثقافة في هذا العصر انتشار الكتب والمكتبات العامة والخاصة وكثرتها مما بلغت النظر كما كان التنافس شديداً في اقتناء العدد الكبير من نفائس الكتب .

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر الى جانب ابن حزم المؤرخ الكبير ابو مروان بن حيان الذي نشأ بقرطبة ٣٧٧هـ وتربى فيها وقد شهد سقوط دولته (٣) ومن مؤرخي هذا العصر "ابن بسام الشنتريني" وكتابه الذخيرة من اهم الكتب التي تتحدث عن عصر الطوائف تاريخياً وأدبياً واجتماعياً ومن المؤرخين

(١) تاريخ الفكر الاندلسي لانجيل جنثالت ترجمة د/ حسين مؤنس طبعة القاهرة ١٩٥٥م ص ٢٠٦

(٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ص ٢٢٥

(٣) نفع الطيب ط ٢ ص ١٢٦ و ما بعدها

الفتح بن فاقان ٥٢٩هـ - ١١٣٤م صاحب كتاب القلائد والمطمع ويحوي الكتاب الأول تاريخ طائفة كبيرة من أمراء الطوائف ووزرائهم من الكتاب والشعراء والقضاة بينما يتحدث الثاني عن طائفة كبيرة من الأعيان الذين تناولهم في القلائد ويقلب على أسلوب الكتابين السجع المتكلف .

فالبرغم مما شمل هذا العصر من تمزق وصراعات فانه كان عصراً مزدهراً في العلوم والفنون والادب .

الثقافة في عصر المرابطين

دولة المرابطين كانت عسكرية ،يدوية المنشأ ،خشنة الطباع لا تميل لأساليب التمدن الرفيعة ومن ثم يمكن تحديد ان الحركة لفكرية بالأندلس في ظل العهد المرابطي الذي استمر اكثر من نصف قرن في حالة ركود نسبي ولم تحظ بازدهار واضح والسبب في ذلك يرجع الى ان أمراء المرابطين للبحوث الكلامية والاراء الفلسفية كان له الاثر البالغ في مد الحركة الفكرية . (١)

والحركة الفكرية في عهد الطوائف كانت تندفع بقوة الى الامام في تيار متدفق من العلوم والمعرفة في قصور الطوائف فمن الطبيعي ان يستمر هذا الاندفاع الى حد ما قبل ان يخبوا في ظل العهد المرابطي وهذا هو السبب في ان هذا العهد قد احتفظ بجمهرة كبيرة من رجال المعرفة كما ان الدولة قد بذلت رعايتها لطائفة منهم لذا ان هذا العهد قد حوى جمهرة كبيرة من المفكرين من ابرزهم في التاريخ . والرواية ابو محمد بن عبد الله الحجازي ٥٥٠هـ / ١١٥٥م (٢) صاحب كتاب المسهب الشهير وينتسب الى وادي الحجاره موطنه وحين سقطت وادي الحجاره غادرها مع اهله ونزل مدينة غرناطة وسار منها الى قرية يحصب حيث استقبلها صاحبها عبد الملك بن سعيد واکرم وقادته وانزله منزلته من التقدير والتبجيل . وكان شاعراً بارعاً واديباً كبيراً غادر قلعة يحصب وشهد عدة معارك مع النصارى واسر في احداها وعندما فك اسره عاد الى حصب وعاش في كنف عبد الملك بن سعيد الى ان وافاه الأجل .

(١) الانب العربي في الاندلس الدكتور على محمد سلامة الدار العربية للموسوعات ط ١٩٨٩م ص ٨٥

(٢) المغرب في حلى المغرب ج ٢/٣٥ ونفع الطيب ٢/٤٠٦

من مؤلفاته المسهب في فضائل المغرب في ستة اجزاء ومن علماء التاريخ كذلك ابو عامر محمد بن احمد الطرطوشي من اهل طرطوشة .

ومن الوراة وعلماء الأخبار محمد بن عبد الله بن سعيد من أهل شطبة كان عارفاً بالأخبار حافظاً لاسماء الرواة واشهرها المؤلف ابو القاسم خلف القرطبي ٣٩٣هـ - ٥٧٨هـ كان شغوفاً بالأخبار والسير من مؤلفاته تاريخ العلماء والرواه بالأندلس وله مؤلفات اخرى بلغت خمسين مؤلفاً وغير هؤلاء كثير.

الثقافة في عصر الموحدين :

كانت سياسة الدولة فيه تقوم على أساس إطلاق حرية البحث والفكر على النقيض مما كان متبعاً في عصر ملوك المرابطين من تغيب لهذه الحرية ومطاردة لكتب المشرقية التي لا تتفق ونظرتهم وأقوى العوامل التي على شموخ الحركة الفكرية في هذا العصر هو ان امرائها كانوا علماء عصره ومن اكثر العلماء تشجيعاً للناس على طلب العلم والمعرفة وكان يجمع حوله العلماء والشعراء من شتى اجاء العالم الاسمي فيشملهم برعايته ويبسط عليهم جناحه ويصلهم بالأموال والهدايا تشجيعاً لهم على البحث والدراسة . ومن أساتذة الطب والفلسفة ابوبكر طفيل

ومن ابرز علماء وأدباء هذا العصر خالد بن عمارة الانصاري ٤٩٥- ٥٧٩هـ من أهل غرناطة (١)

وكثير ممن برزوا في علوم الفقه والحديث واللغة ومنهم العلامة الأزدي الأشبيلي وكان يقوم بتدريس العربية وعلومها وكان في بصيرة ينقد الشعر وظل نحو ستين عاماً يقوم بتعليم طلابه العربية وله كتاب القوطية توفي عام ٦٤٥هـ

ومن اشهر من برزوا في الطب والنبات ابو جعفر القرطبي فقد تجول في انحاء الأندلس وأفريقيا وجمع في اثناء تجواله العديد من النباتات الطبيعية وصنفها من الناحية العلمية وسجلها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ومن اعظم علماء النبات كذلك ابن الرومية الأشبيلي

ومن نبغوا في علم الرياضيات والفلك عبد الله بن محمد بن جهل الضرير
فقد برع في الادب وعلوم العربية ومن علماء الزراعة ابو زكريا يحيى الاشبيلي
واشتهر بكتابة الفلاحة وفيه يقدم عرضاً للفنون الزراعية ومن نبغوا في التاريخ
والترجمة ابن عبد الملك المراكشي و يعتبر عصر المؤرخين يعتبر من أزهى
عصور الاندلس تقدماً حضارة (١).

ومن الأدباء الشعراء ابو الحسن علي بن محمد بن الحباب وهو كاتب
وشاعر ومنهم ابو يوسف يعقوب المنصور توفي عام ٥٩٥هـ - ١١٩٨م وامر
ان يكتب على قبره

تأمل بفضلك يا واقفاً
ولاحظ مكاناً دفعنا اليه
تراب الضريح على صفحتي
كأنني لم امشي يوماً عليه
أدارى الانام حذار المنون
فها انا قد صرت وهنا لـديه (٢).

(١) نفس المصدر السابق ص ٥٧

(٢) نفع الطيب للمقري ص ٢٢٥

الفصل الثاني

حياة اللغة العربية وأدائها

المبحث الأول

نهضة اللغة العربية ومظاهرها

(٢-١) نهضة اللغة العربية ومظاهرها :-

دخلت اللغة العربية في أواخر القرن الأول الهجري بلاد الأندلس مع الفاتحين من أهلها . وكانوا قلائل ، ولكن العرب أخذوا على الأندلس عقب الفتح مه مختلف القبائل ، والاقطار العربية ، ولا سيما بلاد الشام ، متأثرين بما سمعوا عن جمالها واعتدال هوائها ، وغزارة مياهها ، وخصوبة أرضها ، وكثرة اشجارها ، وقد أخذ العرب الفاتحين اهالي تلك البلاد باللين ، والرافة وعاملوهم بالحسنى ، واشركوهم في حكم البلاد ، ورفعوا عن كواهلهم ما انقلها من الضرائب في عهد القط وساووا بين الطوائف في المعاملة فاحبهم الاسبان وقبلوا على اعتناق الدين الإسلامي (١) . لذلك نجد اللغة العربية انتشرت في بلاد الأندلس وانبثت في جميع أرجائه .

اللغة العربية منذ الفتح الإسلامي :-

سماحة الدين الإسلامي وعدالته ، واستقامته ، وأصوله ، ورغد عيشه جعل الأسباب يندفعون برغبة قوية الى تعلم العربية لغة الدين الذي اعتنقوه . ولم يكن في امكان احد من الاسبانيين ان يتقدم شاكياً او متقاضياً إلا باللغة العربية التي اصبحت في تلك البلاد اللغة الرسمية . ويستوي في تعلم العربية للمسلمون وغيرهم - أما المسلمون فانهم قد تمكنوا من الرجوع الى القرآن الكريم ولتبعوا الله بتلاوته ، ولتتمكنوا من فهم احكام دينهم ، والرجوع الى السنة النبوية والتزود من أحكامها .

أما اليهود فكانوا اسبق الطوائف الى تعلم هذه اللغة (٢) .

فهذه العوامل وهي اعتناق الإسلام صيرورة الحاكم والسلطان الى العرب ولغتهم الرسمية جعلت العربية تنتشر ببلاد الاندلس بسرعة عجيبة ، وتغلب على لغة البلاد التي فتحوها وذلك من غير ان يفتح العرب المدارس لتعليمها ، او يفرغوا المدرسين لتلقيها لانهم كانوا مشغولين بتثبيت ملكهم ونشر دينهم والقضاء على النزاع الذي شبت نيرانه بين قبائلهم ومخالطتهم في شتى البلاد التي نزلوا بها ، ثم

(١) الأديب العربي في ظلال القوميات - ص ٥٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٥٤ .

بالمصاهرة والتسري والمعاملة والاتجار ، وكلما حفظ احدهم جملاً وكلمات عربية
أزاعها بين أهله وعشيرته وهكذا أخذت اللغة تنتقل من بيت الى بيت ومن مجتمع
الى مجتمع حتى سرت في كل الارحاء وبعد انقضاء عهد الفتن والثورات توطدت
دعائم الحكم وأخذ العرب يدرسونها في المساجد والمدارس وشققوا بادابها شققاً
شديداً ملك عليهم قلوبهم وانسأهم لغتهم . ومع بلوغهم هذا المبلغ من الفصحى (١).
كان لهم كما كان لغيرهم من سائر الأقطار التي فتحها العرب وعاميتهم
التي يستخدمونها وقضاء شؤونهم اليومية .

كانت اللغة العربية لغة الزعامة وكان اهل الأندلس يستقلون التخاطب
بالفصحى في الامور العادية . ومن الملاحظ ان العامية عاصرت الفصحى في تلك
الأقطار . ويرجع ذلك الى شققهم بالأداب العربية ومحفوظاتها .

عوامل ازدهارها :-

نهضت العلوم والآداب بالاندلس نهضة تدعو الى العجب فما كانوا يفرغون من القضاء على الثورات ، ويوظفون دعائم الملك ، حتى اندفعوا برغبة صادقة وتعطش شديد الى مناهل العلم والآداب ، فنهلوا منها فاعجبوا بفصاحة اللغة العربية وسموها فنبغوا في علوم الدين واللغة وضربوا فيها بسهم وافر وادركوا شاو اساتذتهم في الشرق وتنوعهم في العلوم وخلقوا ثروة ادبية كبيرة تنطق بذكائهم وتشيد بفضلهم ولا تزال كتبهم الى اليوم مراجعاً الى الباحثين والمحققين ومورداً غذياً للطلاب والمدرسين والمؤلفين .

على الرغم ما فقد من نفائسها وابتد من ذخائرها بثورات البربر وحروب الفرنج ولا سيما حينما طاردوا المسلمين وابعدهم من بلادهم فقد ابادوا في ايام محدودة جهود فطاحل العلماء وثمار قرائح الابداء فاصبحت النيران تلتهمها وقذفوا بها في الانهار وجنوا على العلم والآداب والذي مكنهم من نواصي العلم وجعلهم يصلون الى هذا المنصب الرفيع ، ومن البواعث المختلفة لازدهارها نذكر منها :

أولاً :

قوة استعدادهم الفطري إذ هم سلالة العنصرين القويين العرب والأوربيين .

ثانياً :

اقبالهم على العلم برغبة صادقة وشغف شديد ، وذلك لما يلمسونه من ارتفاع اقدار العلماء وسمو مكانتهم لدى الشعب والخلفاء ، ونحطاط قيمة الجهلاء يدل على ذلك تكبدهم المشاق في الارتحال الى المشرق وفي طلب العلم والأخذ من ثقافته كما يدل عليه دفعهم الاجور للمعلمين لتعليمهم ومما ضاعف هذه الرغبة في نفوسهم لاعتناق الاسلام ومبادئه واحكامه .

ثالثاً :

منافسة حكام الاندلس الامويين خصومهم العباسيين في ميادين العلوم والآداب والتي لا ترقى الدول ولا تنهض الا بها ليكون لهم دولة بالمغرب تضاهي دولة العباسيين بالمشرق .

وليستردوا بذلك مجدهم الزاهي ، فاختصوا العلماء والادباء بالمناصب الرفيعة واستقدموهم من المشرق وبالغو في اكرامهم كما فعل عبد الرحمن الناصر مع ابي على الغالي (١) . كان اكثر نصرا العلوم والفنون من الخلفاء والحكام ومنهم عبد الرحمن الثاني ، وكان اكبر مشجع لفن الموسيقى ، ومن اكبر اعوان العلوم والأدب المنصور بن المهاجر المتوفي عام ٣٩٢هـ .

وعين الادباء يوماً في الاسبوع يستمع الى ادبهم ويتبادلون منه البحث والنقد وكان لا يضيفي الى وشايات خصوم الشعراء ويدافع عنهم (٢) .

رابعاً :

رحلة العلماء من الاندلس الى ومن المشرق الى الاندلس في طلب العلم وذكر المثرى في نفع الطيب اكثر من ثلاثمائة من الرحالين من الأندلس الى المشرق لهذا الغرض الشريف .

خامساً :

رغبة الاندلسيين وشغفهم بالنحو ، والقراءات ، والآداب ، والشعر ، والتفسير ، والحديث و متن اللغة وزهدوا في البلاغة والاصول والمنطق ، وكانوا ينفرون من التنجيم ، وذلك لخطرهما على العقيدة وللشعر عندهم حظ عظيم والشعراء من ملوكهم ولهم عليهم حظ ووظائف والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم .

فانتشر مذهب مالك بالاندلس ، وتأثر به هشام عبد الملك ، ومنهم من اعتنق مذهب الشافعي ، كابن مالك النحوي بعد هجرته الى المشرق وكانوا قبل مذهب مالك على مذهب الاوزاعي عبد الرحمن بن عمرو ، امام الشام في الفقه والزهد عام ١٥٧هـ الذي كان منتشراً بالشام .

(١) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه لشيخ احمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني ط ١٨ دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ص ٣٨٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٨٢ .

وخلص القول ان العربية دخلت بلاد الندلس غربية على السنة الغزاة القلائل
من العرب ولم تلبث ان اخذت في الانتشار بها بالمشافهة والاختلاط لكثرة الوافدين
على تلك البلاد من مختلف الاقطار العربية ، ونزولهم بين الاهالي في شتى
النواحي ثم اقبل العرب على تلقين مبادئها ونشر ادابها واشعارها ، فاقبل الشعب
الاسباني عليها اقبالاً شديداً مفتوناً بادبها مسحوراً بنثرها وشعرها (1).

(1) الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الوائف البيز حبيب - المكتبة المصرية بيروت 1967م

النشاط النحوي في الاندلس :-

كسنت للاندلس جهود في جميع العلوم ، وأصبحت الشغل الشاغل لهم في جميع عصورهم ، ويكفي دليلاً قيام المذهب الأندلسي في النحو . ولا نكاد نمضي في عصر بني امية بالاندلس حتى تنشأ طبقة كبيرة من المؤدبين الذين كانوا يعلمون الشباب في قرطبة وغيرها من الحواضر الاندلسية مبادئ العربية عن طريق مدارس النحو والنصوص والاشعار ، يدفعهم الى ذلك حفاظهم على القرآن الكريم وسلامة لغته وتلاوته ، وبذلك كان أكثرهم من قراء الذكر الحكيم .

وأول نحاة الأندلس (أبو عثمان الموروري) الذي رحل الى المشرق وتلمذ على يد الكسائي والفراء وهو أول (1) . من ادخل موطنه كتب الكوفيين ، وأول من صنف به في النحو وما زال يدرسه لطلابه حتى توفي سنة ١٩٨هـ وكان يعاصره (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) الذي رحل الى المشرق ، واخذ عن (عثمان بن سعيد المصري) المعروف باسم ورش وادخلها الى الاندلس وكان بصيراً بالعربية .

ويتكاثر هؤلاء القراء والمؤدبون في القرن الثالث الهجري ويتميز من بينهم ابن حبيب السلس المتوفي عام ٢٣٨هـ ، وكان اماماً في النحو واللغة ومن بين مصنفاته كتاب في اعراب القرآن (وابن مالك النحوي) وكتابة على نهج كتاب الكسائي ، كما يعني معاصرة ابو بكر خايط النحوي المكفوف ، بوضع كتاب في النحو كانت له شهرة في قرطبة .

ويدوا ان الاندلس تاخرت في عنايتها بالنحو البصري ، ووجهت عنايتها اولاً على النحو الكوفي ومن النحاة المشهورين ، (هارون بن موسى القرطبي) وله كتاب صنفه في عيوب سيبويه ومن اشهرهم كذلك ابن الاخيلي (2) .

ويكثر في عصر الموحدين النحاة الذين عنوا بشرح كتاب سيبويه واقرائه على الطلاب وفك معمياته (ابن الرحال) المتوفي عام ٥٤١هـ ، وهو تتلمذ

(1) المدارس النحوية / ص ٢٩٢ .

(2) نفس المصدر السابق والصفحة .

(ابن الطراة) مثل جابر الاشبيلى الحضرمى . ومن اكبر النحويين ابن مضاء
وابن

عصفور الاشبيلى ، وله فى النحو والتصريف مصنفات مختلفة وابن مالك الذى
استفاد من مذاهب النحاة السابقين ، وهو يرى ان علامات الاعراب جزء من ما
هية الكلمات المعربة . بينما يرى الجمهور انها زائدة عليها (1) .

ظلت الأندلس تتابع نشاطها النحوي فى القرن السابع الهجري على الرغم
من الخطوب التى تتابعت عليها . ومن كبار النحويين " ابو حيان " هو أثير الدين
محمد بن يوسف الغرناطى الأندلسى المتوفى عام ٧٤٥هـ ومن اشتهروا بالنحو
كذلك ابن الطراوة سليمان بن محمد المتوفى عام ٥٢٨هـ وابن مزون ابو الحسن
بن محمد الاشبيلى لذلك نجد كتب النحو قد تميزت من سائر الكتب المؤلفة فى
علوم الحساب والهندسة والطب والمنطق والفلسفة وعلم الفلك والاشعار وغير ذلك
من العلوم إذ اخذت الرغبة فيها تقوى شيئاً فشيئاً وادرك العامة الخاصة اهميتها
الى وقتنا هذا (2) .

(1) النحو العربى ص ٤٦ .

(2) الحركة اللغوية فى الأندلس ص ١٥ .

إقتداء ادباء المغرب بالمشرق :-

والمشاركة وان كانوا قد كتبوا في التاريخ والتراجم ملتزمين بالسجع فان ذلك قليل في كتبهم ولم يبلغوا فيه ما بلغ الأندلسيون ، ومن أمثلة عندهم ينيمة الدهر للثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩هـ وجريدة القصر وجريدة اهل العصر ، للعماد الاصفهاني محمد بن محمد بن حامد المتوفي سنة ٥٩٧هـ وتاريخ الضبي محمد بن عبد الجبار المتوفي سنة ٤٢٧هـ وفاكهة ومنادمة الظرفاء لابن عرباشة احمد بن محمد المتوفي عام ٨٤٥ هـ وهو على نسق كلية ودمنة . ومنها وأقهم بالتورية ، وبمصطلحات العلوم ، ولا سيما النحو لشغفهم به ، وإمعانهم في دراسة وفي احب شيئاً اكثر من ذكره وباهي بمعرفته^(١) .

وقد اکتروا في كتاباتهم من اقتباس الحكم والأمثال ونثر الاشعار كما نجد في رسالتي بن زيدون الجديّة والهزلية .

ونجد ان الكتابة الاندلسية قد اقتفت اثر الكتابة المشرقية حزت حذوها وتابعتها في مناهجها واقتدى كتاب الاندلس بكتاب المشرق وحرصوا على مجاراتهم في اساليبهم ومتابعتهم في طرائقهم . ولا غرو فالاندلسيون تلاميذ المشاركة وعنهم اخذوا علومهم وآدابهم واعترفوا بسبقهم وهم في نظرهم المثل الأعلى الذي ينشدونه والغاية التي يتتبعونها فإذا سلك المشاركة طريقاً سلکوه ، وإذا ابتدعوا منهاجاً اتبعوه ، وإذا استحدثوا في الكتابة جديداً اسرعوا بتقليده فالحسن عندهم ما استحسنوه بتقليده ، والقبح ما استقبحوه وهجروه .

على هذا كانت كتابة الاندلس في عهد ولاة بني امية والكتابة في المشرق كانت سالكة السبيل في عهد بني امية والعصر العباسي . تم اخذ السجع يتسرب اليها والزخارف والمحسنات تزيد على الايام حتى اتقلت كاهل الكتابة وزهبت بجمالها ورونقها وانتقلوا من السجع الخفيف القصير ، الذي ظهر على ايدي كبار الكتاب كابن العميد وبيدع الزمان وتجلي في كتاباتهم الإطناب ، والسجع ، والعناية بالزخارف لكنهم مع .

(١) الدب العربي في ظلال القوميات - ص ٩٥ .

هذا لم يسفوا اسفاف اساتذتهم بالمشرق ولم ينزلوا الى الدرك الذي نزلوا اليه في عصر
المماليك بمصر والشام (1) .

ولم يسرفوا إسراف اساتذتهم بالمشرق وهناك من السمات والخصائص ما
تستطيع به تمييز الكتابة الاندلسية عن الكتابة المشرقية . ومن هذه السمات ، ما يرجع
الى الالفاظ والاساليب ومنها ما يرجع الى المعنى ، ومنها ما يرجع الى الاغراض .
أما الفاظهم فتمتاز بالسهولة والوضوح ولا تكلف يكلفك مشقة في فهمها بخلاف
الفاظ لغة المشاركة ، فانها في الغالب اجزل وذلك لمجاورتهم البيادية التي تفيض عليهم
بالفصيح . وتمدهم بأقوى الاساليب ولانهم ورثوا الفصيح عن آبائهم وأجدادهم ،
و ثروتهم منه واسعة قيمة ولم يرث اكثر الاندلسيين عن آبائهم من الفصيح ولم يرث
اكثر المشاركة كما تمتاز عباراتهم بالاطالة والاطناب حتى انه ليندر ان تعثر في
كتاباتهم على رسالة موجزة بخلاف المشاركة فرسانهم او جز وان قد أطلوا في
العصور المتأخرة .

ومن تلك السمات التزامهم بالسجع في رسائلهم بعد العهد الأول وتخطيهم به
الرسائل التي نخرت بها كتب الأدب والتاريخ والتراجم في الذخيرة وقلائد العقبان
ومطمع النفس والاحاطة وغيرها (2) .

وقل ما تجد كتاباً في الأدب والتاريخ والتراجم عندهم غير مسجع مثل تاريخ ابن
حيان ، الذي لا يجئ السجع فيه الا عفواً مع جزالة عباراته وقوة بيانه ولا يلتزمون في
رسائلهم الرسمية رسوماً معينة في البدء والختام والألغاب والدعاء كما فعل المشاركة في
عصر المماليك .

اما معانيهم فتمتاز بوضوحها وخلوها من التعقيد وعدم التعمق فيها وغلبه الخيال
الشعري عليها والإكثار من الاوصاف ، والتشبيهات ، والامتدادات حتى عدت من
الشعر المنثور .

أما الأغراض ، فقد سبق الأندلسيون المشاركة في الكتابة الوصفية لجمال بلادهم
وكثرة محاسنها ، ومداهما إياهم بابدع الأوصاف . لذا نجدهم قد وصفوا كل ما

(1) النحو العربي ص ٥٠ .

(2) انظر الذخيرة لابن بسام ص ٩٦ وقلائد العقبان ومطمع النفس ص ٢٥٦ .

وقعت عليه أبصارهم من جليل الأشياء كالبحار والأنهار والأشجار والقصور والأزهار
ومجالس الإنسان والحيوان .

وانفروا بالشكوى الى (رسول الله صلى الله عليه وسلم) لصد أعدائهم وكان
لهم على المشاركة السبق في المناظرات .

وفي أوائل القرن التاسع ، أصبحت اللغة العربية لغة الوثائق والخطابة
والتوقيعات ولغة الشعر والنثر . وأصبحت اللغة الرسمية حيث ترجم اليها معظم كتب
الديانات الأخرى (1) .

(1) ملامح التجديد في الشعر الأندلسي - ص 11 .

المبحث الثاني

النثر وفنونه وأشكاله

النثر وفنونه واشكاله :-

النثر الفني هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد وهو كالشعر له دقائق قلما يتفق في تزويقها الناقدون والشعر غير خليق بتقديم كل ما تحتاج اليه العقول ، وهذا ليس معناه إن نقل من موهبة الشعر ، لانه لا تزال لدينا جوانب وجدانية تتشوق إلى التغني بالشعر.

وكان النثر في الأندلس، ^{بشعر} يفتدي أثر قرينه في المشرق ، وينسج على منواله ويسير على نهجه يجري في مضماره. وكان في الأندلس كما كان في المشرق عدد كبير من الأدباء المجيدين الذين رق أسلوبهم وأمسكوا من الكتابة بخير زمامها وملكوا منها ناحية الإتفاق، وضروب البيان. ومما يدعو للدهشة ، أن كبار الأندلس هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين؛ من هؤلاء ابن زيدون ، وابن شهيد ، وابن حزم وابن أدراج القسطلي وغيرهم . فكتابتهم تحتل مقام الإعجاب والتقدير، وان كانت تسير تماماً على منهج رسائل الإعلام من الكتاب المشرقيين سواء منها القصة أم الرسالة.

ونالت القصة العربية نصيباً وافراً من الاهتمام من أدباء الأندلس ومن أشهر القصص قصة حي بن يقظان

(أ) القصة في الأندلس

١- قصة حيي بن يقظان لابن طفيل

٢- قصة طوق الحمامة لابن حزم

قصة حي بن يقظان لابن طفيل :-

واسمه الكامل أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي نسبة إلي قبيلة قيس العربية التي ينتمي إليها ويلقب بالأندلسي تارة والقرطبي تارة أخرى والاشبيلي تارة ثالثة لانه توفي في مراكش ويعرف القريحة باسم Aba Bacar كنية أبو بكر (١).

وابن طفيل أديب وشاعر أنيق . انه ابن وادي آش، منبت الشعراء والأدباء. ولطالما أمر هذا الوادي الجميل بالشعراء والشاعرات. أن ابن طفيل من واقع منشئة ينشد الشعر عذبا .

فهو يعالج ،الناس ويشخص أمراضهم، يصف لهم الدواء ولكنه كشاعر ذي وجدان يعتل لاعتلال الأحبة يقول في ذلك أبياتا شفاقة مشاعره :-

يقولون لي ظمياءً أضحتُ عليّةً فقلت فما بالي بقيتُ أنن حياً
أصبحُ شمسَ الأرضِ كأسفةَ أسنا ولا يُعْترِي جسمي لِعَلَّتْهَا كُنْيَا
إذا ما طوى عني السقامُ وصلها طوى الموتُ رُوحِي في قلاءته طيا

وفي ظل فلسفته العميقة ونطاق تفكيره السليم وأدبه الرفيع ظهر نتاج تفكيره وتجربته في قصة رائدة اسمها (حي بن يقظان) كما إنها تعرف باسم (أسرار) الحكمة الإشرافية (١) .

والحق ان القصة ترجمان أمين لعنوانها لان الهدف منها الوصول الي معرفة الخالق والإيمان به .

ومضمون القصة أن حي بن يقظان وليد من غير أبوين في جزيرة نائية مقفرة من جزر الهند عند خط الاستواء في رواية أخرى هي أن الطفل حي بن يقظان ولد لام وأب في جزيرة نائية (٢).

وخافت أمه من أخيها ،مالك الجزيرة ،إذ إنها تزوجت بغير علمه من قريب لها يدعى يقظان فلما وضعت طفلها ،صنعت له تابوتا أحكمت ذمة ووضعته فيه

(١) المنتصب لابي بكر القضاعي تحقيق ابراهيم الايباري المطبعة الاميرية ١٩٥٧م ص ٢٧ .

(٢) المنتقب ص ٧٢ .

(٣) dcd بن يقظان لابي بكر بن طفيلط ١ المعارف مصر ١٩٥٦م ص ٥٦ .

وخرجت به إلى ساحل البحر، وقذفت به في اليم فصادف ذلك حركة المد التي حملته من ليلته إلى ساحل جزيرة أخرى وارفة الظلال ولما كان الطفل حي وحيداً فإن طبيبة من حيوان الجزيرة فقدت وليدها اخذتها الشفقة به فتقدمت على إرضاعه وتغذيته. وينشأ حي على سليقة أمه الطيبة. ويحاكي الطباء في حركاتها وطباعها وأصواتها ويشب الطفل ويكبر قليلاً فيتعلم المشي ويفكر في أمر نفسه ويقارن بينهما وبين الحيوانات الأخرى في الجزيرة، معتمداً على دقة الملاحظة التي كانت ترافق نمو عقله ، مع حسن استنباط للنتائج فوجد أن الحيوانات مستورة ، وهو عار ، فعمل على ستر جسمه بأوراق الأشجار وإخوانها مسلحة وهو اعزل فتسلح بعضاً من اغضان الأشجار وهنا هدته ملاحظته الى فضل يديه ففكر في العين وأخذت أساليب تعامله مع الحياة ترمي وتتحسن ، حتى بلغ السبع سنين وأصبحت الوحوش لا تتازعه لأنها الفته وصار يبتعد عنها شيئاً فشيئاً إلا الطيبة التي كانت أرضعته وربته فإنها لم تقارنه دخلت معه لا تبعد به عنه الا لضرورة الرعي وألف الطفل (١) .

تلك الطيبة وهي تفق به وتحمله إلى عدة مواضع فكانت تطعمه من ثمار الأشجار الحلوة الناضجة ، فإذا ظمئ أوردته وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول وكان يحاكي أصوات الطباء والطيور ويهتم حي نفسه، ويشرع في دراستها فينبهه إلى ما عنده من حواس ويكتشف أن المرض الذي أودى بأمه كان كامناً في صدرها تلك آلام الحنون التي أصيبت بالهزال والضعف في نهاية حياتها فأشرف حي عليها ورعاها واصبح يجتني لها الثمرات الحلوة ويطعمها ، وما زال الهزال يستولى عليها إلى أن أدركها الموت فسكنت حركاتها بالجميلة وتعطلت جميع أفعالها (٢) .

ويهديه تفكيره إلى شق صدر أمه ، مستعملاً في ذلك حجراً حاداً ، وتكون هذه العملية بداية لمعرفة جديدة فظيره بالنسبة لحي ، فمنها يكتشف القلب الذي فيه مركز الحياة ويستنتج أن هناك شيئاً خفياً فارق الجسد وهذا الشيء الخفي هو الذي

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهري تحقيق احمد امين ط دار المعارف ١٩٦٦م ص٩٦ .

يكون الذات ، وبعد فترة ما يصيب الفساد جسم الظبية فيتعلم من الغربان كيف يواريه التراب ويشب حريق في أنحاء الجزيرة بفعل إحدى الظواهر الطبيعية فيكتشف حي النار فيأتي بقبس منها يودعه مسكنه، ويعمل على أن يظل هذا القبس دائم الاشتعال فهو أذن يحس بحرارة النار ، ينتبه إلى الحرارة التي يحس بها في الأجسام الحية . فيعاود عملية التشریح في الحيوانات فهو اذ قام بالتشريح ، فانه يرى ان جلود الحيوانات صالحة لان بها فيصنع كساءه من تلك الجلود وتظل خبرات حي تتسع وتتمو وتزداد فيتعلم غزل الصوف ، وصنع الإبر ، فيغزل لنفسه ثياباً وكان يروض جوارح الطيور ويستخدمها في الصيد ورأي مرة شتى ساخن وتحقق هل هو من جوهر النار وحل فيه شيء من الضوء والحرارة إن لا وتأخذ معارف حي في التطور السريع المتقدم فيدرس المعادن ، والنبات، وأعضاء الحيوان ووظائفها ويصنفها إلى أنواع ويقترب شيئاً إلى معرفة الله فيدرك وجوب اعتبار فاعل الكل ومحرك هذا الكون وصفات الكائنات وينتهي الأمر به إلى الإيمان بالله خالق الكون ومبدعه اله قادر عليم رحيم .

أن حي بن يقظان حين يحاول الوصول إلى معرفة الله يتم له ذلك عن طريق التدرج وتبين له أنه محتاج إلى فاعل مختار وإخذ يفكر في ضرورة أنه لا يمكن إن يخرج إلى الوجود بنفسه وانه لا بد له من فاعل يخرج به إلى الوجود وان ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك بشيء من الحواس أذن لا بد للعالم من فاعل وإذا كان فاعلاً للعالم نهوك محاله . قادر عليه وعالم به .
(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (1)

وبدأ حي يعلل في الخلق والوجود ويبرهن ويبعد حتى وصل إلى ارض صور التصوف استقراً وفناء في ذات الله وينقطع إلى حياة التأمل والعبادة ويكون قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره وابن طفيل أراد أن يكون قصته لوناً من الطرافة ويضفي عليها سمات من الحكمة القصصية وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتبان من

أهل الفضل والرغبة في الخير يسمى أحدهما أسالا والأخر سلامات وكانا يتفقان في بعض الأوقات فيما ورد من ألفاظ تلك الشريعة (١) .

ويصلان الى الجزيرة الأخرى ويبدل حي قصارى جهده لهداية الناس ولكن جهوده تذهب إدراج الرياح ويرجعان مرة أخرى إلى الجزيرة المقفرة ويستأنفان حياتهما من جديد حياة التعبد الخالص والتأمل الصافي بينما ظل بعض الناس على غير هدى أو إرشاد بمعرفة بعض أحكام الدين وشرائعه وذلك لقل قبولهم وتصفح طبقات الناس بعد ذلك فرأى كل خرب بما لديهم فرحون قد اتخذوا ألهمهم هو أهم وتهالكوا في جمع حطام الدنيا فالحكمة بعد ذلك لا سبيل لهم أيها ولا خوالهم عذاب عظيم (٢) .

فلما فهم أحوال الناس وعدم رضوخهم للهدايا ، انصرف إلى سلامات واصحابه واعتدز عما تكلم به معهم وأرضاهم بالتزام حدود الله والشرع والافتداء بالسلف الصالح ودرهم بمجانبة جمهور الناس الذين أهملوا الشريعة واقبلوا على الدنيا وعلم حي وصاحبه أسال أن هذه الطائفة من الناس لم يمكنها ان تلحق بدرجة السعداء فقد ساءت عاقبتها فذهبها ووصلا إلى جزيرتها حتى يسر الله عز وجل عليهما الصبور إليها وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه حتى عاد إليه وافتدى به أسال حتى قرب منه أو كاد وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى اتاها اليقين .

ومجعل القول ان قصة حي بن يقظان تمثل ثمرة يانعة من ثمرات الثقافة الإسلامية وسرن الاسرار لصد هؤلاء الضعفاء الذين قلدوا السفهاء الاغبياء ولمن تلك الاراء الفاسدة التي صرحت بها فلسفة العصر حتى انتشرت في البلدان ، وظهر جزرها فهذه القصة قد اهتم بها المسلمون اهتماماً بالغاً وغير المسلمين فقد ترجموها الى عديد من اللغات وذلك لما تضمنته من الغاز فيه واتجاهات فكرية وادبية وفلسفة عميقة لذلك فهي جديرة بالزيوع والتقدير .

(١) حي بن يقظان ص ٩٢ .

(٢) سورة البقرة آية (٦)

قصة طوق الحمامة :-

في الألفة والألاف لابن حزم ٤٥٦ هـ

ابن حزم هو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم اسره كانت تنتسب الى جد فارسي من حوالي بني امية وزعم ابن حيان ان اسرته اسبانية وانها مرتبة العقد بالاسلام ، فجده الأدني أول من اسلم من ابنائه ويبدو انه لم يعرف جزور اسرته معرفة دقيقة ، اذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له يتصل فيها اجداد مسلمون حتى ينتهوا به الى بني فارس كان مولى ليزيد بن ابي سفيان ونصى ابن حزم على نسبيه الفارسية وولائه لبني امية قائلاً :-

شما بي ساسان ودارا وبعدهم
قريش العلاء اعياضها والعنابس

فهو في الشعر الأول ينسب نفسه الى دار وملوك الفرس الساسانيين وفي الشطر الثاني ينتمي بالولاء الى بني امية وكان لامية ستة ابناء من العنابة :-

كانت اسرة ابن حزم تعيش تملكها تسمى منت وهي تبعد خمسين كيلو متراً غربي اشبيلية وبها ولد ابوه احمد ورحل منها مبكراً الى قرطبة لينال ما استطاع من الثقافة وسرعان ما لمع بين اقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ وتعرف عليه ابن ابي عامر صاحب الخليفة المؤيد اثناء التلمذة وكان يعجب به فاتخذه وزيراً له عام ٣٨١م وذلك مما جعله يسكن في الجانب الشرقي من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة ابي عامر ومجمع قصوره وابعده فترة عن وزارته ثم اعاده مرة اخرى وبلغ من ثقته به انه كان يستخلفه حين يغيب من قرطبة (١) .

وظل الفتى يتابع دروسه على الشيوخ وتزوج من جارية له كف بها ، تسمى " نغماً" فكانت غاية في الحسن خلقاً وخلقاً ولم يلبث القدر ان فجعه بها وهو دون العشرين .

فالتاع لوعة شديدة حتى ليقول انه اقام بعدها سبعة اشهر لا يتجرد عن ثيابه حزناً عليها ولا تحف له دمعة ولم يطب له عيش بعدها وكانت احواله المادية قد تبادت في السوء بعد وفاة ابيه ففار قرطبة عام ٤٠٤ هـ .

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف لابي محمد علي بن حزم مكتبة دمشق ١٣٤٩م ص ٦٦ .

عرف ابن حزم انه لم يخلق للسياسة ففارقها الي غير قاب وعكف على المعارف من كل لون واصبح مفكر عصر اهداه امراء الطوائف.

طوق الحمامة :-

وكتابة "طوق الحمام من الالفه والألاف" الفه في يشاطبه عام ٤١٩هـ وموضوعه دراسة الحب العذري ، والعواطف الإنسانية ، الذي تعتمد الى توكيد على التجربة والملاحظة ، والتحليل النفس ، واستخلاص النتائج وطبيعة ابن حزم ونشأته وظروف عصره قد جعلته يسطر على هذا الكتاب الذي يعجز به الأدب الأندلسي ولعل ذلك مروه ايضا الى تلك الظروف القاسية التي جعلته يهجر بلاده ويعيش مهاجراً غريباً ومثل هذه الظروف جعلت ابن حزم ينطوي على نفسه ويتذكر ايام حسرته ويستعرض ذكرياته وهنا يكون الحديث عن الحب امراً طبيعياً حديث خبير غني بالتجارب والمشاهدات ، حديث أديب مهاجر غريب يحب أن يعرف ماضي قلبه ويعرف عن قلوب الآخرين .

وكتاب ابن حزم صنف في هيئة رسالة ، رد بها على سائل بعث اليه من مدينه المرية يطلب منه ان يصفق له رسالة في صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه (١) .

وقد يكون الكتاب فعلاً بناء على طلب هذا السائل وقد يكون ابن حزم قد قدم على ذكر هذا الطلب من نفسه ومعروف ان ابن حزم فقيه ولا باحث عن الحب فغريب ان يساله سائل او يحدثه حديثاً مفصلاً عن الحب ومعانيه لا عن الفقه والأصول والتوحيد الي من ذلك حماس شأنه يسأل عنه .

هذا وقد جعل ابن حزم كتابة في ثلاثين بابا يتبع فيها الحب في نشأته وتطوره ودرجته وانواعه وهو في كل باب يتحدث عن الموضوع الذي يعرض له محلاً ومعللاً ونراه يتبع ذلك ببعض الحكايات الواقعية التي شاهدها او سمع بها وكلها تدور حول اندلسيين وهو يضمن كلامه قطعاً من شعره قد قالها في مثل التجربة او الظاهرة التي يسوق عنها الحديث .

(١) طرق الحمام ص ١٠ .

وقد صدر كتابة ، بيان فطنه فقال : - وقسمت رسالتي هذه على تلاميذ بابا منها في أصول الحب عشرة ، فأولها هذا الباب "مائة الحب" ثم باب في "علامات الحب" ثم باب من احب في النوم "وباب ، من احبب ذكر بالوصف" و"باب من احب من نظره واحدة ، و"باب التعريض بالقول ، ثم باب المراسلة ومنها في اغراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة ، اثنا عشر بابا و"باب الصديق المساعد و"باب الوصل و"باب طي السر و"باب الطاعة و"باب الوفاء و"باب الغدر و"باب الفتى و"باب الموت ومنها الافات الداخلية على الحب وهي ستة ابواب ومنها بابان ختمتا بهما الرسالة وهما باب الكلام في قبح المغضبة و"باب في فضل التصف (١) .

القيمة الفنية للقصة :-

وليست قيمة طوق الحمامة فيما اشتمل عليه من افكار عن الحي فحسب وانما قيمته ايضا في تلك الحكايات الكثيرة التي يرويها ابن حزم والتي تكشف الكثير عن الحياة الاندلسية وتوقفنا على اسرار حكام وزوساء ترفع الستائر عن بيوت وقصور وتتبعه الى صنوف النساء من نشاط في دنيا المحبين كالطبية والمعلمة والمقنية والماشطة وما الى ذلك وهناك قيمتان اخريتان للكتاب الأولى استحالة على كثير من الأخبار التي تلقي ضوءاً على حياة ابن حزم نفسه والثابتة تضمنه للكثير من شعره بالاضافة الى نثره فهو عمل ابن حزم الأدبي الأول الذي يدخل به مع النثرين والشعراء المجيدين من اوسع الأبواب .

وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهي عنه اذا القلوب بيد مقابها ولا يلزمها غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب وان يعتقد الصحيح باليقين واما المحبة فخلقها وانما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة ونراه في مقطوع بمزج فيها بين النظم والنثر وتكاد الثقافة الدينية تطل من على الأبواب .

وهو القائل:-

ولا احدث الأمور تباني

ليس في القلب موضع لحبيبان

غير فرد مباعد أو مواني

بعيد عن صحة الايمان

وكفور من عنده دنيان^(١).

فكذا القلب واحد ليس يهوي

هو في سرعة المودة ذو شك

وكذا الدين واحد مستقيم

ولاحب سلطان على النفوس لا يرد كلمة وأمر لا يخالف، وربما استحسّن المحب من محبوبته صفة يستقيمها آخرون والوفاء بين المحبين من كريم الشيم وفاضل الأخلاق بين المحبين وأنه أقوى البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر وهو أن يقى الإنسان لمن يقى له ، وهذا فرض لازم، وحق واجب ، على المحب والمحبيب لا يحول عنه إلا لمن لا وفاء ولا عهد له .

ومجمل القول أن القصة العربية في الأندلس تمثل ثمرة بالغة من ثمرات الثقافة العربية فهي قد ولدت في ظل الحضارة ولدت نامية متطورة شابة بغير طفولة مكتملة من ناحية البناء الغني والفكري على أيدي عمالقة الفن والأدب .

لقد تطورت في القرن الرابع الهجري وهو القرن الذي تميل قمة الحضارة الإسلامية والعلوم العربية وأزهارها والذي يعتبر القمة الحضارية لثقافة المسلمين والذروة الفكرية للعقول العربية وما أن أذنت ملامح هذه الحضارة بالأقوال حتى بدأت القصة العربية تتحدر من علياء القمة التي وصلت إليها في سرعة مذهلة وكانت راسخة ناجحة تربة متسامية حتى أنها فرضت نفسها على مجتمع الأدباء وأثرت في آداب أخرى عديدة لمجتمعات وعناصر مختلفة شملت بلاد الأندلس.

(ب) الرسائل

١- الرسالة الجديدة والرسالة الهزلية لابن زيدون

٢- رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد

(٢-٣) الرسائل :-

يتمثل النثر الفني في الأندلس بجلاء ووضوح في الرسائل بجميع أنواعها لأنها حظيت بعناية كتاب معظمهم من خرسان الشعر الأندلسي كانوا شعراء في معظم الحالات كابن زيدون وابن دراج وابن شهيد ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم .

لهذا استطاع كتاب الأندلس بما اوتوا من موهبة شعرية متوقدة وزوق أدبي ولطف في الخيال أن يرتقوا بأساليب النثر العربي ومذاهبه حتى صار كالشعر المنثور لا ينقصه غير الوزن والقافية وأبدع الأندلسيين في فنون الكتابة وأنواعها حتى فاقت الكتابة الشعر لفترة معينة وكانت لهم جهودهم في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية والعلمية .^(١)

الرسائل الديوانية لابن زيدون :-

وتسمى أحياناً السلطانية أو الرسمية وهي ما يصدر من ديوان الخليفة أو الملك أو الأمير موجهة إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه وأحياناً يوجهها إلى أعدائه متوعداً ومهدداً . والذي يتولى الكتابة الديوانية كاتب خاص يكون من كبار الأدباء .^(٢)

وهؤلاء الكتاب يحتلون منزلة سامية ومكانة رفيعة يحسدون عليها في الدولة وذلك لارتباط الكتابة بالسلطان وأموره . فأجلهم عامة الناس وخاصتهم ومما زاد من مكانتهم أنهم كانوا يعملون إلى درج الوزارة وذلك لما فيهم من ميزات ومواهب .

إلى درج الوزارة وذلك لما فيهم من ميزات ومواهب .

والرسائل الديوانية منها :-

رسائل للإنذار والتهديد والتخويف والوعيد وترسل للخارجين على الدولة وأحياناً يمزجها بالترغيب والمصانعة الاستحالة ، ورسائل ترسل إلى خليفة أو أمير يطلب منه العون والمدد والنجدة .

(١) فضائل الأندلس وأصلها رسائل جمعها صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد بيروت، ص ٢٢٥

(٢) أنظر بهجة المجالس وأسس المجالس ابن عبد البرج . ص ٢٦٩

الرسائل الإخوانية :-

وهي ما تدور حول مراسلات بين الإخوان كما تشمل الرسائل التي يرسلها الكاتب إلى عتاب صديق أو هجاء أو رثاء أو شكوى وشوق . ومن الرسائل الإخوانية :-

الرسائل الجدية :-

وكتبها ابن زيدون وهو في غياهب السجن لأبي الحزم بن جهور أمير قرطبة أيام الفتنة يستعطفه فيها ويطلب منه العفو مبرئاً نفسه مما ألصق بها من التهم وقد حظيت هذه الرسائل بعناية الأدياء شرحها الصفري في كتابه أسماء عام الستون شرح رسالة ابن زيدون و لها شرح آخر طبعه مصطفى عنان عام ١٩٠٦م في كتاب سماه اظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون .

يقول ابن زيدون في الرسالة الجدية :-

يا مولاي يا سيدي الذي ودادي له، واعتدادي به، وامتدادي منه، أبقاك الله ماضى حدّ العزم وارى ندى الأمل، ثابت عهد النعمة. إن سلبتني أعزك الله - لباس إنعامك، وعطفتني من حلي إيناسك، وأظمأتني إلى برود^(١) إسعافك، ونفضت بي كف^(٢) حياطتك ، وغضضت عن طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك ، وأحسن الجماد باستحمادي^(٣) إليك ، قلا غرو قد يقص بالماء شاربهُ ، ويقتل الدواء المُستشفي به ، ويؤاتي الحذر^(٤) من مأمنه ، وتكون منيّة ، المتمني في أمنيته ، والحين^(٥) قد يسبق جهّد الحريص :

كل المصائب قد تمرّ على الفتى وتهون غير شماتة الحساد
وإني لأتجلّد ، وأرى الشامتين أني لربيب الدهر لا أتضعضع ، فأقول^(٦) : هل أنا
إلا يذ أدماها سوارها .

(١) برود : بارد ، استعار الماء للإسعاف .

(٢) كناية عن عدم عنايته به ، ونفضت : طرحت ، والحياطة : الرعاية .

(٣) استحماده : طلب حمده ، وفي رواية : باستنادي إليك .

(٤) مثل ومعناه واضح .

(٥) الحين : الموت ، والعبارة كلها مثل مشهور .

(٦) بعد أن بدأ الرسالة بالاستعطاف والتذلّل ، أخز يسرى عن نفسه بضرب الأمثال .

وجبين عَضَه إكليله (١) ، ومَشْرِفِي (٢) أَلصِقَه بالأرض صَاقِلَه ، وَسَمَهْرِي (٣)
عرضه على النار مُتَقَفَه (٤) ، وعَبْدُ ذَهَب سَيده مذهب الذي يقول (٥) .

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أحياناً على من يرحم
وأكون كالدبالة المنصوبة تُضِي للناس وهي تحترق (٦) ، فلك المثل الأعلى
وهو بك ، وببي فيك ، أولي .

ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأي أن أتحوّل (٧) إذا بلغنتي الشمس ونبا
بي المنزل ، وأصْفَح (٨) عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال ، ولا أستوطئ
العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور ، فيضرب بي المثل : خامري أم عامر (٩) . وإني
مع المعرفة بأن الجلاء (١٠) سبأ ، والنقلة مثله (١١) :

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى مصارعَ مظلومٍ : مَجْرًا وَمَسْحَبًا
وتُدْفَنُ منه الصالحاتُ ، وإن يسئ يَكُنْ ما أساءَ النارَ في رأسِ كَبْكَبَا (١٢)
لعارف أن الأدب الوطن الذي لا يخشى فراقه ، والخليط الذي لا يتوقع زياله ،
والنسب الذي لا يُجْفَى ، والجمال الذي لا يَخْفَى . ثم ما قران السعد بالكواكب أبهى
أثراً ، ولا أسننى خطأ ، من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً معه ، فإن
الحائزَ لهما الضاربَ بسنهمَ فيهما — وقليل ما هم — أينما توجه ورد أعذب منهل ،

(١) الإكليل : التاج .

(٢) المشرفي : السيف ، والصائل : الحداد الذي يجلود .

(٣) السمهري : الريح .

(٤) متقفه : صافله وصانعه .

(٥) ينتر قول العباس بن الأحنف :

(٦) بصرت كأنني ذبالة نصبت تضى للناس وهي تحترق .

(٧) هنا ثارت نفس ابن زيدون ، فأخذ يهدد بفراقه للوطن ، وأنه لا يصير على الهوان .

(٨) أصفح : أضرب وأعرض .

(٩) خامري : أشتري ، وأم عامر : الضبيع ، وهو مثل يضرب لمن عرف الدنيا ومصيرها وتقلباتها ومع ذلك لا تزال نفسه متعلقة
بها .

(١٠) الجلاء : النزوح عن الوطن ، والسبأ : السبي والأبىر .

(١١) مثله : نكال وعقاب .

(١٢) كيكب : اسم جبل بعينه ، وهو الجبل الذي تجمله خلف ظهرك إذا وقفت مع الإمام بعرفات (عن معجم ما استعجم) والبيتان
للأعشى .

وَحَطَّ فِي جَانِبِ قَبُولِ فَنزَلِ ، وَضَوْحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ، وَأَعْطَى حُكْمَ الصَّبِيِّ
عَلَى أَهْلِهِ :

وَإِذَا أَمْرٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ فَكُنْهَا مِنْ مَالِهِ^(١)
أَسْلُوبُ الرِّسَالَةِ :-

المستبطن لنفس ابن زيدون سيدرك أبعاد هذه النفس التي وهبت دقة الإدراك وحساسية الشعور وإيقاع الموسيقى وجمال التصوير فإذا شكت تشكو حرقة القلب المملوء شعوراً مرهفاً وعاطفة جياشة فنراه يمزج كل ذلك بالصبر والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وموادت الحياة وخطوبها ، ويضرب الأمثال كي يسكن بعض ما في نفسه ، ولعل ذلك مرده إلى تكرار بعض العبارات والمثل في رسائله الجدية وموضوع الرسالة متصل اتصالاً وثيقاً بحياة ابن زيدون السياسية حين سجنه أبو الحزم بن جهور ، يستعطفه برسالته ليعفو عنه ويفك قيده غير أنها لم تؤثر تأثيراً واضحاً في نفس ابن جهور ، وربما يرجع ذلك إلى صعوبة ألفاظ الرسالة وفهم مراميها والرسالة كما يبدو من كلماتها الثقافة العالية الواضحة ، وسجع قليل وازدواج كثير إلى جانب صيغ الدعاء المتنوعة وكثرة حروف الجر مع استغناء المعاني وكثرة المترادفات التي لونت طابع الرسالة وجعلت لها طابعاً مميزاً وهو متأثر في كثير من عباراته بأسلوب الجاحظ وسنعرض إلى التكوين النفسي لابن زيدون والجاحظ وأثر ذلك في نتاجهما الأدبي وذلك لاستشهاده بأبيات الشعر بين الحين والحين مما أضفى على الرسالة وقفات تأمل جعلت القارئ يسترسل متابعة قراءة الرسالة رغم صعوبة ألفاظها^(٢) .

وعند ذكر الأبيات الشعرية كان لا ينسبها إلى قائلها . وينهي رسالته بقصيدة حتى يكون قد خاطب صاحبه باللغتين النافذتين . كما اشتملت الرسالة على الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية كما تأثر فيها بالحكم والأمثال كل ذلك قد تم في أسلوب قوي الألفاظ جزل المعاني وتلاحم أجزاءها .

(١) البيت لأبي تمام .

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

فرسالة ابن زيدون التي يظهر فيها استعطافه ولكن في غير تذلل ولا صنف
حيث أبان فيها عن السبب الذي أغضبه وهو في سجنه ، وذلك لأن منصبه لا يليق
بأن يحبس مع اللصوص ، وهو الذي لقبَ بذي الوزارتين وفي أثناء ذلك يرسل
استعطافه ويتبعه بقول أو حكمة لتقوية محبته . وذلك يدل على عبقريته وقدرته
حسن التصرف في ضروب القول . فقد غلب عليها شكوى الزمان والتبرم من
الحياة والحرمان وكان المصائب لم تخلق لأحد سواه .

الرسالة الهزلية لابن زيدون :-

أما بعد ايها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، (١) الفاحش غلطة
العائر في زيل أن تراره الاعمي عن شمس نهاره والساقط سقوط الذباب على
الشراب المتهافت تهافت الفراش في الشهاب (٢) . فان العجب (٣) . اكذب ومعرفة
المرء نفسه اصوب وانك راسلتني مستهدياً من صلته ما سفرت (٤) منه ايدي
امثالك ، متصدياً من خلته (٥) ولما قرعت (١) دون انوف اشكالك مرسلأ خليلتك
مرتادة ، مستعملا عشيقتك فؤاد كاذب نفسك انك ستنزى عنها الى وتخلف بعدها
على :-

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل

وانك تقول فيه كل الصيد في جوف الفراء ، و :-

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والمعنى ابني تمام قد صورت نفسك لم تزدها على ما فيه من كرم الطباع والمراد
بقول ابي الطيب .

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

فكدمت في غير مكرم واستسمنت ذا ورم ونفخت في غير

(١) سقط القول : خطوة .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) العجب : ما يعجب الانسان من نفسه وبذلك اخبر عنه بذلك اكذب أي انه يدعو المرء الى ان يتخيل الى ما صحه له يكذب نفسه

(٤) سفرت : خلت .

(٥) خلته : مودته .

(٦) القرع : الضرب .

ولا شك انها قلتك (١) اذا لم تضمن يك ، وملتك اذا لم تغير عليك ، فانها اعزرت في السفارة لك ما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة ان المروءة انت معناه والانسانية اسم انت جمسة وهيولاه (٢) قاطعة (٣) انك انفرت بالجمال واستاثرت بالكمال واستعليت في مراتب الجلال واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت ان يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه وان امراة العزيز راتك فلست عنه وان قارون اصاب بعد ما كنزت ، والنطف (٤) . عثر على فضل ما ركزت (٥) حمل غاشيتك وقيصير رعى ماشيتك والاسكندر قتل داراً في طاعتك وارديشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك والضحاك استدعى مسالمتك وجزيمة.

وكتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولاده لابن عبدوس منافسه في حبها وهي رسالة من حيث الأسلوب الذي اتبعه فيها إذ أجرى على لسان معشوقته تهكماً واستهزاءً بهزيمة بلغ فيها شأواً بعيداً في الإجابة ..
فالرسالة تصف رسوله إليها حتى خيلت لها أنه جمع كل الفضائل من جمال وقوة وسلطان وحسن منادمة وشجاعة ووفاء وحلم وكرم ودهاء وذكاء وعقل وفلسفة وهو المثل الأعلى في ثقافة وفي كل لون من ألوان الأخلاق وكل ضرب من ضروب الثقافة فذكر شخصاً يمثله من ملوك الأعاجم وسادة العرب وفلاسفة اليونان وأصحاب الكلام والفقهاء .

كل ذلك يجري مجرى التهكم والهزاء به والصب بعقلة وهي مليئة بالشتائم . (فكان ابن زيدون بهذه الرسالة يؤلف له متناً من المتون فالإنسان لا يخلص من معرفة شخص ممن يشير إليهم حتى يقع في مثل أو في حادثة أو في بيت شعر

(١) قلتك : ابغضتك .

اعزر : اتى بما صار به معزوراً أي ان صاحبتك بلغت الجيت في السفارة .

(٢) هيولاه : مادته .

(٣) قاطعة : مؤقتة .

(٤) حسانك باراك في الحسن .

(٥) امراة العزيز معروفة في قصة يوسف .

يحتاج إلى فضل من الشرح) (١) ولهذا كله عمد ابن نيانة إلى شرح رسالة ابن زيدون (٢).

أسلوب الرسالة الهزلية :

أما الرسالة الهزلية فهي على ما فيها من مرح بادٍ وسخرية لاذعة وفكاهة عذبة وفيها ترده ثقافية وأدبية عالية . والذي لا شك فيه أن أسلوب الرسالة الهزلية وقد تأثر في منهجه الفكاهة الساخرة بكتابة الجاحظ وتهكمه في رسالة التريبع والتدوير لأحمد بن عبد الواهب البغدادي وذلك حينما رسم له صورة ضاحكة تتال من قدر الرجل وإذا نظرنا الرسالة الهزلية لابن زيدون وجدنا دافعاً إلى كتابتها إلى ابن عبدوس وحققه عليه ولمنافسته له في حب ولادة وهو يريد أن ينال منه فهده تفكيره ألى أن يكتب رسالة على لسان ولادة نفسها حتى يقطع الطريق عليه في صلته بها وحتى يكون النيل منه أعمق جرحاً وأكثر حرجاً ومن أكثر فقرات الرسالة الهزلية فيها من التشبيهات والمقارنات المضحكة الساخرة ويظل ابن زيدون ساخراً من ابن عبدوس حتى يكاد يقذفه من عل ويرسل إليه ألواناً من المهانة . وقدراً كثيراً من الإهانة .

وفي ذلك يخيل إليه أنه قد شفى فيه غليله ونال منه ثأر العزيم . ومهما يكن من أمر فإن الرسالة الهزلية تضمنت كسابقتها الشعر والنثر والأمثال العربية وتفويض بشعراء مغمورين في العصور المختلفة من جاهليين وأمويين وعباسيين مبتدئاً بامرئ القيس منتهياً بالمتنبي مع صعوبة ألفاظها وتورية معانيها .

من المؤسف حقاً أن هذه الرسالة لم تحقق الغرض الذي من أجله أنشأها ابن زيدون فلا هي نالت من ابن عبدوس بالقدر الذي أرادته ولا هي أعادت إليه ولادة . بل ربما كانت الرسالة سبباً في توسيع شقة الخلاف بينهما لأنه كان قد أهانها وعرض بها حين أراد الثأر منها والسخرية بابن عبدوس وكان يلقبه بالفأر في قوله :-

(١) ابن زيدون استوفى حنيف ص ١٠ نوابغ الفكر العربي دار المعارف

(٢) أنظر شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ابن نيانة ص ٤٢٠

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحب وما في ذلك من عار
أكل شهى أصبنا من أطاييه بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار

ومهما يكن في الأمر فابن زيدون في شعره فريد عصره وفي فترة يعتبر
في مقدمة كبار الأندلس . ولعل ملكة الشعر النثر لم تجتمع في فرد واحد كما
كانت عند ابن زيدون ، فرسائله فيها انفعال الشاعر وعمق الكاتب وثباته .

اختلاف التكوين النفسي لابن زيدون والجاحظ وأثر ذلك في نتاجهما الأدبي .
تبرز مكانة ابن زيدون النثرية ، في رسائله وفي تلك الأساليب التي
يستطيع أن يستعملها في إبراز غرضه ثم في الوضع النفسي الذي يشكل أساس
نظرتة إلى الناس والحياة ، وكل هذه أمور تحكمت إلى حد بعيد في ترسله
وظهرت آثارها بوضوح في كتبه وجعلت صلته بالجاحظ صلة عارضة .

ولا شك أن عوامل اختلاف البنية النفسية والثقافية لها أثرها الكبير في ذلك
فابن زيدون شاعر غنائي يدور شعره حول ذاته سواء أن شكا أو استعطف أو
مدح أو تغزل وعاتب . والجاحظ مفكر بارع .

لذا فاتفقهما في المزاج والأفكار لم يكن قوياً وربما يكون مجرد تأثير فقط
وصرح بذلك ابن زيدون نفسه بأنه عرف قديراً لا بأس به من كتابات الجاحظ
وكان بها كلفاً معجباً . وليس في ذلك ما يدل دلالة واضحة توافقهما في المشاعر
والعوامل النفسية والطبع والمزاج والأفكار ونحن نعلم أن علماء الأندلس أثروا
ثراءً كبيراً في مجال التأليف واهتموا بالأدب وفنونه وليس هناك كتاب أدبي ولا
رسالة نثرية ولا ديوان إلا ونقلوه إلى بلادهم فور ظهوره في المشرق ومما نقلوه
مؤلفات الجاحظ ومنها البيان والتبيين ، ورسالة التريب ، والتدوير وغيرها من
المؤلفات الأخرى (١) من ذلك يتضح لنا أن الأندلسيين عرفوا مؤلفات الجاحظ في
وقت مبكر من تكوينهم الثقافي والفكري بوجه عام .

وقد أكدت المصادر التاريخية أنه لم يمضي القرن الثالث الهجري إلا
ومؤلفات الجاحظ قد دلفت إلى الأندلس وهو بعد على قيد الحياة (٢) .

(١) الذخيرة ص ٢٢٨

(٢) الذخيرة ص ٢٢٥

وعلى الرغم من اختلاف البنية النفسية لكل من الكاتبين لم يجعل " من ابن زيدون شاعراً فحسب وإنما جعله شاعراً متقناً حافظاً من ناحية وشاعراً نباهاً من ناحية أخرى ولم يجعل من الجاحظ مفكراً فحسب وإنما جعله مفكراً فيلسوفاً شكلياً من ناحية ومفكراً ساخرًا من ناحية أخرى" (١).

فليس من الغريب أن ينتقل ابن زيدون من الشعر إلى النثر أو الفكر في رسائله بل قد اتخذ من الشعر مكملاً لنثره في رسالته إلى ابن الأقطس إذ يقول :-
(إذا ليس الحاجب أعزه الله رداء المجد معلقاً وحمل لواء الحمد معلناً
فاستطار بارق فخره واستطاع فائح ذكره ، وشهدت محاسنه على كل لسان
وسارت مآثره مسيرة الشمس بكل مكان لما سوغ من كرمه وأسبغ من نعمه ،
ووطا للأملين من اكنافه وهز إلى الراغبين من اعطافه .) (٢)
ويتبعها بما يناسبها شعراً فيقول :-

هو الحاجب المعتلى للعلا	شماريخ كل منيف أتم
عليك إذا ما سابقته الملوك	حوى الخصل أو ساهمته سهُم
فأطولهم بالأبيادي يداً	واثبتهم في المعالي قوم
واروغ لابتقى رفده	يخيب ولا جياره يهتضم (٣)

فالرسالة الأندلسية نتاج لكتاب هم في الأصل شعراء وكما يبدو من مضمون رسائلهم لفظه منتقاة وعبارة رشيقة ومعان مبتكرة وخيال وفكر عميق تمد قارئها فيض من المعارف الإنسانية والأحوال النفسية وجروح القلب الغائر التي لا تكاد تنتهي .

(١) دراسات في الأدب الأندلسي ص ١١٢

(٢) الذخيرة القسم الأدبي ص ٢٢٢

(٣) نص المرجع والصفحة.

رسالة التوابع والزوابع

لابن شهيد

وابن شهيد هو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ٣٨٢-٤٢٦هـ .

هي قصة خيالية يحكي فيها ابن شهيد رحلة في عالم الجن فقد اتصل خلالها بشياطين الشعراء وناقسهم وأنشدهم وأنشده وعرض أثناء ذلك بعض آرائه في الأدب واللغة ، وضمنها شعره ونثره كما نقد مضمونه دوافع عن فنه مع الفكاهاة والطرائف والدعابات .

وقد اختار ابن شهيد لرسالته أسم التوابع والزوابع لأنه جعل مسرحها عالم الجن وأتخذ كل أبطالها من الشياطين فالتوابع جمع تابع أو تابعة وهو الجن أو الجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب والزوابع جمع وزايعه وهو أسم شيطان أو رئيس الجن .

وقد وجه ابن شهيد رسالته على شخص كناه بأبي بكر، وقدم في آخر رسالته بما يشبه المدخل إلى القصة فذكر عن نفسه كيف تعلم ونبغ وكيف تعجب صاحبه أبو بكر من عبقريته وأقسم أن تابعة تتجده وزايعه تؤيده لأنه ما يأتي به من أدب ليس في قدرة الأنس . ثم أقر ابن الشهيد أبا بكر على تفسيره فبين أنه كان يرثي حبيباً له قد مات فاختلف عليه النظم وعجز عن تكميل ما هو بسبيله من شعر وإذا بالجنني أسمه زهير بن نمير يصوره له على هيئة فارس ويلقي إليه بتكملة الشعر حياً في اصطفائه ورغبة في مصاحبته كما صاحب التوابع الشعراء . (١)

ثم ذكر له هذا الجنني أبياتاً يستحضره بإنشادها حتى أراد وأرتب بعد ذلك فرسه جدار الحائط وغاب ويذكر ابن شهيد لأبي بكر أنه كان حكماً ارتج عليه أنشد الأبيات فيتمثل له صاحبه الجنني زهير بن نمير فيض قريحته فينطق لسانه حتى تأكدت الصحبة بينهما .

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة / أحمد ميكل ص ٢٧٨ .

بعد ذلك التمهيد ينتقل ابن شهيد إلى صلب القصة يذكر أنه تذاكر يوماً مع تابعه هذا فتناول أخبار الشعراء والخطباء واصحابه من التوابع والزوابع ، قائلاً: هل من حيلة إلى لقاء من أتفق منهم فقال له زهير حتى استأذن شيخنا ، فكان ثم عاد وقد أذن له . فقال لابن شهيد حلّ على متن جواد ، فصار مع تابعه عليه ثم سار بهما كالطائر يجتاب الجو حتى أتى أرض الجن وهناك طاف به تابعه على صاحب أمرئ القيس وصاحب طرفة وصاحب قيس بن الخطيم بن أبي هليل ثم على صاحب أبي تمام وصاحب البحرى وصاحب أبي نواس وصاحب أبي الطيب وابن شهيد في كل لقاء يصور الجو الذي لقي فيه صاحبه الشاعر وتابعه يرسم التابعة نفسه بكثير من الملامح التي عرف بها الشاعر في الحياة ثم يسمع من هذا التابعة وينشده وينال آخر الأمر إعجابه .^(١)

ثم يذكر ابن شهيد أنه طلب من تابعه زهير بن نمير أن يلقي به توابع الكتاب وهو يسميهم الخطباء ويحكى أن زهيراً سار به إلى هؤلاء التوابع وقد اجتمعوا للمذاكرة ببعض المروج وفيهم تابعه الجاحظ وتابعه عبد الحميد . وقد زهير ابن شهيد إلى صاحب الجاحظ الذي شهد له ولكنه أخذ عليه كلفه بالسجع وقد دافع ابن شهيد عن نفسه بما حمل صاحب عبد الحميد على التدخل في النقاش^(٢)

وكان يتهم ابن شهيد ولكن ابن شهيد ناظره وصمد له حتى رضى عنه الصحابان وسألاه أن يقرأ لهما بعض رسائله فلما قرأ استحسنا كتابته وهنا شكنا لهما حساده من الأندلسيين . حتى وصل إلى أبي القاسم الأفليلي^(٣). ونراه يتخذ من صاحب الأفليلي رمزاً لهؤلاء الذين عكروا صفوة حياته من المؤدبين والمعلمين ؟ وفي أثناء ذلك حيث أراءه في الأدب والنقد والشعر . وقبل أن نخوض في عرض آرائه النقدية والأدبية يحسن بنا أن نطرح هذا السؤال -

(١) جزوة المقتبس للحميدي ص ٢٢٢ ()

(٢) مطمع الأنف لابن خاقان ص ١٦ .

(٣) ملامح التجويد في النثر الأندلسي / مصطفى محمد أحمد علي السيوفي ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م ص ١٠٠ .

هل كان ابن شهيد محقاً في موقفه من إبراهيم من الأفليلي ؟

ورد السيوفي على ذلك بقوله ونقول قبل الإجابة على هذا السؤال يجدر بنا قبل الحكم على الرجل ، أولاً أن نستأنس بجملة الأقوال التي قالها المترجمون لابن الأفليلي ومن خلالها ينجلي الموقف فيجئ الحكم صادقاً كل الصدق بعيداً عن الظن والاحتمال وذلك ما قاله صاحب " المغرب " (١)

وهو القائل في يحيى بن حمود :-

أنت خيرُ الناسِ كلِّهم يأمَنَ ما مثله بشر
فإذا ما لَحْتُ بينهم قِيلَ هذا البدوُ والحضرُ

ويعلق ابن شهيد على أبيات الأفليلي ويعدها من مصايب القول لقد وصف ممدوحه بخير الناس كلهم فأين هو من الأنبياء والمرسلين ؟

موقف ابن شهيد من رسالته :-

لقد كان طابعه العام التندر بابن الأفليلي والوقوع فيه مغلفاً ذلك بالاستهزاء والتهكم والسخرية في كل موقف أو مشهد من مشاهد التوابع والزوابع وحسبك من أولئك ما يصفه به حين يتناول أوصافه وهيبته فيقول :-

ليست شبيقة شبية أديب ولا جلسته جلسة عالم ولا أنفه أنف كاتب ولا نغمته نغمة شاعر . (٢)

لقد نال ابن شهيد من حساده جميعاً متخذاً من ابن الأفليلي طريقاً إلى ذلك . لقد قدر لابن شهيد أن يسخر ملكاته ليثار من حساده وما جرى فضله ليظهر براعته في الأدب والسياسة في آن واحد، فاستغل موهبته احسن استغلال وصب غضبه وذمه عليهم متمثلاً في ذلك بابن الأفليلي.

ولابن شهيد مواقف اعتمد فيها على قريحته أكثر من اعتماده على قريحة كبار الشعراء والخطباء وهو من خلال مشاهدته يمنع ويطرف ويسخر ويفكه ويصف ويجادل ونراه حيناً يترك عالم الإنسان من الجن إلى عالم من الحيوان

(١) المغرب ص ٧٢

(٢) المغرب ص ٧٢

ولكنه حيوان أديب شاعر عاشق وتطلب إليه إحدى تابع الجن أن يحكم بين حمار وبغل شاعرين فيستقبح زهير تابع امرئ القيس شعر الحمار ويجدها فرصة سانحة للتعريض بشعر الناقة ثم يجري منافسة طريفة بينه وبين بغلة يتضح فيما بعد أنها بغلة صديقه أبي عيسى ويتخذ الحوار طابع المودة وأسلوب السخرية ويطارحان الذكريات وتساله بغلة أبي عيسى عن أصدقاءها من بغال الدنيا فيجيبها في سخرية لاذعة أن من إخوانها من بلغ الأمانة وأن منهم من انتهى إلى الوزارة فلنستمع إلى ابن شهيد يقص علينا هذا الجانب الطريف من هذا المشهد قبل أن ينتقل إلى غيره!

ومشيت يوماً بأرض الجن أنا وزهير نتقري الفوائد ونعتمد أصل الآداب منهم إذ أشرفنا على قراره غناء^(١) تفتت عن بركة ماء فيها عانة^(٢) من حمر الجن وبغالهم قد أصابها أدلق^(٣) منها تصطك بالحوافر وتتفخ من المناخر وقد علا ثحيجها^(٤) ونهاقها فما بصرت بنا أجفلت إلينا و هي تقول :- جاءكم على رجليه فارتعت لذلك فتبسم زهير وقد عرف القصد وقال لي تهباً للحكم^(٥).

لما لحقت بنا بدأتني بالنقدية وحيثني بالتكنية فقلت ما الخطب ؟ حمى حماك وأخصب مرعاك . قالت سهران لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضيناك حكماً قلت : من اسمع . فنقدمت إليّ بغلة شهباء عليها جلها وبرقعها لم تدخل من سوء العجلة فقالت أحد السعيرين لبغل من بغالنا وهو :-

سقام على حرّ الجوى ونحولُ	على كل صبٍ من هواه دليلُ
إذا ما اعترى بغلاً فليس يزولُ	وما زال هذا الحب داءً مبرحاً
فسحّرُ وأما خدّها فأسيلُ	بنفس التي أمّا ملاحظ طرفها
إذا هي بالث بُلّت حيثُ تبولُ ^(١)	وما نلتُ منها نائلاً غير أنني

(١) القرار : المطمئن من الأرض ، الغناء : الكثير العشب أو التي تمر فيها الريح غير صافية الصوت لكثافة عشبها .

(٢) العانة : القطيع من حمر الوحش .

(٣) الأدلق : الجنون .

(٤) الثحيج : صوت البغل .

(٥) رسالة التوايع والزوايع لابن شهيد ص ١١٥ / وجنات الأعيان ١٦/١ .

(٦) انظر رسالة التوايع والزوايع لابن عامر شهيد تقديم بطرس البستاني ط بيروت ص ١١٥ .

الهدف والغاية من رسالة التوابع والزوابع :-

الدافع من وراء تدوين ابن شهيد للتوابع والزوابع دافع شخصي وذلك لأن أهل عصره من الشعراء والكتاب لم ينزلوه من المنزلة التي تليق به أو التي رأى نفسه أهلاً لها ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل لأنهم كانوا يضمرون له الحقد ويكيلون له الكيد ومن ثم ذهب يلتمس التكريم والتقدير عند الشعراء والكتاب الأفاضل الذين هم أعلى قدراً من أهل عصره جميعاً .

وفي أثناء هذه السياحات في وادي الجن والشياطين يلقى بعظيم اللوم لخصومه من المؤيدين مازحاً ذلك بأرائه الخاصة في القضايا الأدبية والنقدية والموازنات والسراقات الأدبية إلى جانب عبارات الفكاهة وأساليب الاستهزاء .

وهناك ثمة أمور وقرت في نفس ابن الشهيد من بينها حب العربي المتقف للعلم وشقفه بالتقليد حيناً وبالمحاكاة في أحيان كثيرة وذلك لما لاحظته طغيان المعلمين وسطوتهم ومن ثم هجم على جمهور المؤيدين حتى علماء النحو المشاهير من أمثال سيبويه كما هجم على الكتب التي ألفوها وأضاف قضية أخرى هي " أن الله تعالى يهب الفصاحة وليست الكتاب ولا المعلمون . (١) "

وقد وقعت في التوابع والزوابع فكاهات نبض الأنيس في النفس ففيها فيه روح ابن شهيد وأسلوبه الفكه الطريف .

وذلك حينما حكى محوره مجلس أدب من مجالس الجن يدور الحديث فيه حول الموازنة وتعبير شعراء مختلفين عن معنى راحو كل بطريقته ثم ينتقل إلى إوزة كانت في بركة ماء وهي تابعة لبعض شيوخ اللغة أسمها العاقلة وقد تعرضت له الإوزة وأرادت مناظرته في النحو والغرائب ، وهو يريد منازلتها في الشعر والخطابة ولكن ابن شهيد زجرها وذكرها بحماقتها فقالت الإوزة لأبن شهيد :-

أيها الفأر المغرور كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟ وما الذي تحسن قلت ارتجال شعر واقتضاب خطبة على حكم المقترح والنسبة .

(١) رسالة التوابع والزوابع لابي عامر بن شهيد : تقديم بطرس البستاني ط ص ١٢٥ .

ثم يتحاور حول الشعر والخطابة والنحو والتعريب ثم خاطبها قائلاً
(يا أم عفيف يا الذي جعله غذاءك ماء ، وحشا رأسك هواء ، ألا أيما أفضل
الأدب أم العقل ؟ قلت فهل تعرفين في الخلائق أحق من وزرة ودعيني من مثلهم
في الحبارى قالت لا : قلت : فتطليبي عقل التجربة إذ لا سبيل إلى عقل
الطبيعة (١).

من هذه اللوحة الفكهية وأسلوب التندر والسخرية الذي عرض له ابن شهيد
في التوابع والزوابع نرى قدرته الفائقة على الهزل والنادرة وأنواع التعريض
وذلك مما جعل له مكانة سامية في نفوس الأدباء .

الفصل الثالث

الشعر في الأندلس

المبحث الأول

أبرز موضوعاته وأغراضه

**الطبيعة في الأندلس ومزجها بأغراض
الشعر المختلفة**

(٣-١) الطبيعة في الاندلس ومزجها بأغراض الشعر المختلفة :-

الاندلس بلاد الطبيعة الجميلة السخية الثرية الساحرة المعطاءة ، والاندلسيون يغلب عليهم الادب ويأسرهم الشعر ، والجمال ، فتقنوا في وصف مباحج الطبيعة الخلابة التي عبرت فيها الارض عن نفسها اجمل تعبير .

فهذه الارض الطيبة ، بما فيها من حدائق وبساتين ورياض وازهار وجداول وانهار وخلجان وغدران وزوارق تلّوج وامطار وكل ما يخطر على النفس من جميل يتصل بالطبيعة ، فنجد الشعراء قد رسموا لوحات بالحروف ، وزخارف دبجتها. اخيلة الشعراء في نطاق العبارة البسيطة السهلة واللفظ المنتقاة والعبارة الموسيقية الاخاذة وقد تضمنت قصائدهم الزينات اللفظية والمعنوية وموضوعات البيان والبديع ، ويمكن ان تكون هذه الظاهرة قاعدة عامة لشعر الطبيعة .

فهذه البقعة الكريمة الغنية بشتى المناظر والمشاهد التي تأسر الطرف وتستهوئ الافئدة وتستثير المشاعر والعواطف التي شفخت بها القلوب وهاجت بها النفوس ومن هذا كانت المصدر الاول الذي استلهمه شعراء الاندلس واستمدوا منه الفيض الزاخر من اغاني الطبيعة التي نظموها درراً في وصف رياضها ومباحج حياتها وقد حباها الله سبحانه وتعالى بطبيعة جميلة وسحر خلاب حيث كانت الثمرة اليانعة للعلم والادب والفلسفة ، شاعدت الطبيعة الفاتنة على نضوج الشعر وحلاوته فالشعراء والاندلسيون كانوا من افصح الالسن التي نطقت بالطبيعة فهم الدوحة الغناء والبلابل الشجية التي تغنت على ذراها . وكان لمجالس الانس والطرب الاثر الكبير في تنوع أغراض الشعر وخاصة الوصف منه ، فالشعراء قد وصفوا الطبيعة ، الفاتنة والحدائق الغناء كما وصفوا القصور والابنية الفاخرة والتمائيل والبرك ووصفوا مجالس الشرب والسحر الغناء والرقص والالات الطرب ووصفوا الاساطيل البحرية وغير ذلك من أغراض الشعر المتعددة .

والمتذوق لشعر الطبيعة ، يشعر بهزة وطرب لجمال وروعة الأداء والوصف والتشبيهات والسحر والصياغة وعذوبة الألفاظ. وكأنما هذا الشعر أنفاس هذه الطبيعة. فالشعر منحها الحركة والإحساس والألوان والمشاركة الوجدانية فوجدوا فيها متنفساً لبث شكواهم ، ووجدوا من تفتح أزهارها وعزوبة أنهارها تفتحاً لتلك

النفس التي غمرتها السعادة والهناء. فشعر الطبيعة قد تداخل في اكثر المناسبات وفي ثنايا الغزل والمديح والحنين والشوق إلى الاوطان والوصف بأنواعه والرتاء والمنادمة ومجالسة الشرب والانس وسوف تجيب النماذج التالية على كل ما تعرضنا له في هذا المجال .

الحنين إلى الأوطان :-

الحنين إلى الاوطان يمثل جانباً كبيراً من امانى شعراء الاندلس فهذا عبد الرحمن الداخل ، قد عاوده الحنين والشوق إلى المشرق فنظر من على اللبعد ليرى نخلة هاجت ذكرياته واحزانه فانشد يقول :-

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تتأمت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التئائي عن بني وعن اهلي
نشأت بارض انت فيها غريبة	فمئلك في الاقصاء والمنتاي مثلي
سقتك غوادي المزن في المتناى الذي	يسخ ويستمري المساكين بالوبل
أنا الشمس في جو العلوم منيرة	ولكن عيني ان مطلعني الغرب
ولو انني من جانب الشرق طالع	لجدد لي ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو آفاق العراق صباية	ولا غرو ان يستوحش الكلف الصب (1)

الشوق للأوطان أمنية عزيزة لكل من حكمت عليه الأقدار بالفراق ، فالشاعر لا تكاد العزة والرفاهية اللتان يحياهما في الأندلس تثنيه عن موطنه فتذكر ماضيه ووجد من تلك النخلة شبيهاً له في الغربة والبعد فترقرت عيناه بالدموع وتدفقت عواطفه تحرقاً وشوقاً إلى الديار الحانية .

وهذا يذكرنا بقول المتنبي :-

وليلِ كليلِ العاشقينِ كمفته

ارقبْ فيه الشمسَ ايان تغربُ

واصرعُ أي الوحشِ قضيته به

وانزلُ مثله حين اركبُ

لحا الله ذي الدنيا مناخاً لراكب

فكل بعيد الهم فيها معذبُ

احنُ إلى اهلي واهوى لقائهم

واين من المشتاقِ عنقاء مغربُ (١)

لقد وصل المتنبي إلى قمة المعاناة حين صور حالة في يوم رتيب مثقل بالهموم فقد ظل يراقب موعد غروب الشمس وذلك ما قطعه على نفسه دائماً من موعد الرحيل فلم تكن رحلته نزهة بل رحلة نفس انتقلت إلى عالم آخر . لقد مل الشكوى والعتاب انه يحتاج إلى اهله ويحن اليهم فاين هم الان ؟ ان شوقه اليهم كمن اشتاق اى عنقاء مغرب .. انه قد استمد من الطبيعة وحيه الهامه فذكر الشمس والغروب والليل والكواكب فعاش للترحال والتجوال والليل ومغادرة الحنين الجارف وهكذا ديدنه عندما يفتقد الرفيق والحبيب . ما اروع شعر ابن خفاجة واشجاه حين يقول بعد ان هاجت به نوازع الحنين إلى شقر .

حيث القت بنا الأمانى عصاها	بين شقرٍ وملتقى نهرها
بين تاويها وبين سراها	لعبت بالعقول الا قليلاً
فرحاً في بطاحها ورباها	فانتئينا مع الغصون غصوناً
الاعشية او ضحاها	تلك ولت كانها لم تكن تلبث
أه من دور لا يجيب صداها	أه من فرقة لغير تلاق
يتمنى سواده لو قدأها (٢)	ما لعيني تبكي عليها وقلبي

(١) ديوان المتنبي المعروف بالتبتيان في شرح الديوان لابي البقاء العبكري تحقيق مصطفى السقا واخرون ط مصطفى الحلبي

القاهرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

(٢) انظر ديوان ابن خفاجة ط صادر بيروت ط مصر ١٩٨٦هـ - ص ٣٦٣ .

لقد تغلب عليه الحنين والشوق إلى شقر فعاد إليها زاهداً سفي كل شيء إلا العيش
فيها فهو بين الحنين والحنين يتذكر ماضيه وتؤفه ذكرى شبابه فيبكي بكاء النادم
ولم يزل ذلك دابة حتى مات .

وجزيرة شقر كان يقصد إليها نفر من شعراء اهل الاندلس كانت جميلة ساحرة
عطرة مبهجة للنفوس ، صحيحة الاهواء زاهية الازهار ، يحيط بها نهرها العذب
ونشرت الابل ذوائبها والروض قد عطر جوانبها باريجه الفواح (1) .

ويقول ابن مالك الرعيني وقد مرت به ذكر غرناطة
فانتابته نشوة عارمة وازمة انفعالية قوية هزت مكنون نفسه وهو الشاعر الملمه
فقال :-

لا تظنوا ان شوقي خمداً بعدكم او ان دمعي جمدا
كيف اسلو عن اناس مثلهم قل ان تبصر عيني احدا
وقال بعضهم :-

أغرناطة الغراء هل لي اوبة اليك؟ وهل يدنو لنا ذلك العهد
شقي الجانب الغربي منك غمام وقعق في ساحات روضك الرعد
لياليك اسحار وارضك جنة وتربك في استنشاقها عنبر وورد

يقول ابن حميدس الصقلي وقد عاودته ذكرى صقلية فتحدث عن نفسه وعن الجنة
التي اخرج فيها دون ان يطلعنا عن الخطيئة التي كانت سبباً في خروجه من هذه
الجنة .

ذكرت صقلية والأس يهيج للنفس تذكرها
ومنزلة للتصابي خلست وكان الظرف عمارها
فاذا كنت اخرجت من جنة فاني احدث اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي انهارها (2)

الشاعر كان يحس بانه اقترب ذنباً عظيماً عوقب من اجله بالخروج من صقلية انه
يعيش مع موطنه لحظة بلحظة حيث موطن صباه وارتع لهواه ويحلم بعودته .

(1) نفع الطيب ص 177 .

(2) ديوان ابن حميدس ص 173 .

اليه وكان يقوى هذا الأمل في نفسه . ما كان يقوم به ابن عباد من حملات متتالية على شواطس صقلية ، بتخليص ابن عباد لجزيرته من طغيان الروم وسجل انتصارات ابن عباد بقرر قصائده وكان يحاول نسيان الآلام التي عصفت به نتيجة غربته وضياعه بالانغماس في اللهو والمتعة ومشاهدة حفلات الرقص التي غصت بها قصور اشبيلية وقرطبة ولكن اني له ذلك ؟ انه لم ينس الغربية والحنين إلى الاهل والوطن .

الوصف :-

مزج الشعراء الطبيعة بالوصف وعالجوا هذا الغرض بجرأة وتفنن وإبداع وعبقرية وذلك مما اضفى على اشعارهم البهجة والجمال :-
وصف الجبل لابن جفاجة الاندلسي للجبل والقصيدة من بحر الطويل :-

١- بعيشك هل تدري أهوج الجنائب

تخب برحلى ام ظهور النجائب

٢- فمالحت في أولى المشارق كوكباً

فاشرقت حتى جبت أخرى المغارب

٣- وحيداً تهاداني الفيافي فاجتلى

وجوه المنايا في قناع الغياهب

٤- ولا جار الا من حسام مصمم

ولا دار الا في فتود الركائب

٥- ولا أنس الا ان أضاحك ساعة

تغور الأمانى في وجوه المطالب

٦- بليل اذا ما قلت قد باد فانقضى

تكشف عن وعد من الظن كاذب

٧- سحبت الدياجي فيه سود ذوائب

لا عتق الامال بيض ترائب

٨- فمزقت جيب الليل عن شخص اطلس

تطلع وضاح المضاحك قاطب

- ٩- رأيتُ به قطعاً من الفجر اغشياً
تأمل عن نجم توقد ثاقب
- ١٠- وارعن طمّاح الذّوابية باذخ
يطاول اعنان السماء بغارب
- ١١- يسد مهبُ الريح عن كل وجهة
ويزحم ليلاً شهبةً بالمناكب
- ١٢- وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليلي مطرق في العواقب
- ١٣- يلوثُ عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمزُ ذوائب
- ١٤- اضختُ اليه وهو اخرسُ صامت
فحدثني ليل السرى بالعجائب
- ١٥- وقال : الأم كم كنت ملجأ فاتك
وموطن أواه تبتل تائب
- ١٦- وكم مر بي من مدّج ومؤوب
وقال بظلي من مطبي وراكب
- ١٧- ولاطهم من نكب الرياح معاطفي
وزاحم من خضر البحار جوانبي
- ١٨- فما كان الا ان طوتهم يد الردي
وطارت بهم ريحُ النوى والنوائب
- ١٩- فما خفق ايكي غير رجفة اضلع
ولا نوح وُرقي غير صرخة نادب
- ٢٠- وما غيض السلون دمعي وانما
نزفت دموعي في فراق الاصحاب
- ٢١- فحتى متى ابقى ويظن صاحب
أودع منه راحلاً غير آيب

٢٢- وحتى متى ارعى الكواكب ساهراً

فمن طالع اخرى الليلي وغارب

٢٣- فرحماك يا مولاي دعوة ضارع

يمد إلى نعماك راحة راغب

٢٤- فاسمعي من وعظة كل عبرة

يترجمها عنه لسيان التجارب

٢٥- فسلى بما ابكى وسرى بما شجا

وكان على ليل السرى خير صاحب

٢٦- وقلت وقد نكبت عنه لطية

سلام فاننا من مقيم وذاهب (١)

أضواء على القصيدة :-

ابن خفاجة من اكثر الشعراء الاندلسيين التفاتاً إلى الطبيعة وامتزاجاً بها وقد اعترته الوحشة في اخريات حياته التي جاوزت الثمانين ، فتنسك وتمالكة هاجس الموت . حتى ذكر الضبي نقلاً عن بعض شيوخه أنه كان يخرج من جزيرة وقد كانت وطنه في اكثر الاوقات . كان يذهب إلى تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة مكانة اذ صار بين جبلين نادي باعلى صوته (يا ابراهيم تموت) ويعني صوته فيجيبه الصوت ولا يزال كذلك حتى يخر مغشياً عليه (٢).

وقد انعكس هذا الاحساس على نظرتة للطبيعة في تلك الفترة من حياته ففارقته روح المرح التي تصدر عنها في اوصافه لها ، وتحول موقفه منها من البهجة والبشر إلى التأمل وطول النظر وتحولت الطبيعة من امرأة فاتنة لعوب إلى صديق يرتدي ثياب الوعظ والحكمة، فاستنطقها واستمع إلى عظاتها وعبرها، واشرك النفس بسرها وخطابها خطاباً جديداً ، كما يتمثل في هذه القصيدة ونجده واتخذ من الجبل معادلاً موضوعياً لنفسه وعمره الطويل .

(١) انظر ديوان ابن خفاجة ص ٦٣ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ويتكشف النص منذ بدايته عن ذات قلقة مضطربة غير مستقرة تبدو في حالة ارتحال وتظهر وهي غير متماسكة وقد اختلطت الرؤية امامها وفقدت القدرة على التحكم في امرها . ويكتشف اسلوب القسم الذي تستهل به القصيدة عن حالة الذات إلى من يشاركها همومها ، لذلك فهي تتجه بخطابها إلى الخارج دون ان تحدد شخصاً بعينه ، مما جعل الخطاب يخرج إلى دائرة اوسع فالبيت الاول له دلالات تشير إلى ان الك الرحلة هي رحلة الحياة ذاتها وهي رحلة معفوفة بالمخاطر وليست هذه (الرياح الهوجاء) او هوج الجوانب الا رمزاً إلى ما يواجهه من مخاطر تكاد تعصف به ولكن الانسان لا يملك زمام نفسه فتخطت عليه الرؤية ويتضاعف احساسه بالحيرة وفي صورة من صور الترابط العضوي يأتي البيت الثاني ليصور الواقع المتقلب حيث لا يستقر حال .

ونجده قد شبه نفسه بالكواكب احساساً منه بالفجر والتعالي والبيت الثالث يشير إلى كشف معاناة الذات في تلك الرحلة .

وحيداً تهاداني الفياقي فاجتلى	وجوه المنايا في قنّاع الغياهب
ولا حار ال من حسام مصمم	ولا دار الا في قنود الركائب
ولا انس أن أضاحك ساعة	ثغور الإماني في وجوه المطالب ⁽¹⁾

ان نفسه تبدو حيرة تتقاذفها الفياقي وتلوح لها وجوه الموت في خضم الظلام فلا جار ولا دار ولا انيس .

وتشير الصورة الاستعارية ثغور الاماني إلى طموح النفس وامانيها ولننظر إلى صورة الليل في تلك اللوحة التصويرية وكلما شددت ازرها وحاولت الخروج من ازمة الليل وظلامه تكشف لها الواقع عن وعود وظنون كاذبة .

ونجده قد اتخذ من الدياجي السود شكل الزوائب في طولها وكثافتها ومن هن تتكشف الحقيقة حيث بدا بياض الصبح يخالط ظلام الليل .

(1) ديوان ابن خفاجة تحقيق د. سيد غازي منشاء المعارف الاسكندرية ص ٢٩٦ .

ثم تأتي وقفة بن خفاجة امام الجبل :-

وارعن طماح النواية باذخ يطاول اعنان السماء بغارب
يُسد مهبَ الريح عن كل وجهة ويزحم ليلاً شهبة بالمناكب
وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه طوال الليلي مطرق في العواقب (١)

لقد اثار الجبل كوامنه وراى فيه صورة من ذاته فاتخذه صديقاً يؤنس وحدته بعد ان عز عليه الانيس والجار ، ولم يكتف بذلك ، بل خلع عليه احساسه وعواطفه وامتزج به امتزاجاً تاماً موضحاً صفاته الخلقية والخلقية فاذا هو ذلك الشيخ الوقور الذي يتجلى بعمامته السوداء ذات الذوائب الحمر واذا هو يواجه العواصف والرياح النكباء مثله .

ولاظم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البحار جوانبي (٢)

ومع ذلك فهو يبدو متماسكاً شامخاً يطاول اعنان السماء ، ويزاحم الشهب ، ولكنه سرعان ما تكشف ان الجبل يبدو مثله مهموماً مطرقاً متاملاً في الوجود تشغله حقيقة الحياة والموت والمصير ويبدو ان بن خفاجة يستنطق الجبل كأنه انتقل عنه بينما هو في الواقع متحد معه ، بحيث يصبح حديث الجبل هو حديث الذات لقد وقف معه ليلاً حيث التأمل والسكون والوحدة .

أصخت اليه وهو اخرس صامت فحدثني ليل السُرى بالعجائب
وقال الا كم كنت ملجأ فانتك وموطنن اواه تبتل تائب
وكم مرّ بي من مدلج ومؤوب وقال بظلي من مطى وراكب
ولاظم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البحار جوانبي
فما كان الا ان طوتهم يد الردي وطارت بهم في رحابه النوى والنوايب (٣)

ونرى عنصر المقاتلة واضحاً حيث يجمع في رحابه الفاتك الفاسق والعابد المتبيل ويمر به المدلج ويستريح بظله عند القيلولة ، ولكن يد الردي طوتهم جميعاً وبقي هو وحيداً يندبهم ويبكيهم ويرفض العيش بدونهم وهنا يبدو التوحيد .

(١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

بين الجبل والانسان في اكمل صورة . فنرى في شكوى الشاعر وهمومه صورة من شكوى الجبل، ونجد ان كل منهما يتلاشى في الاخر ، واذا بابن خفاجة هو هذا الجبل الذي سئم الحياة ، وملّ البقاء وذلك بعد ان راي مواكب البشر يرحلون بلا عودة تتدفق وتنزف في فراق الأصحاب والأحباب وهنا يطرح الجبل الإنسان سؤاله المصيري :-

فحتى متى ابقى ويظعن صاحب اودع منه راحلاً غير آيب
وحتى متى ارعى الكواكب ساهراً فمن طالع اخرى الليلي وغارب (١)

وهنا تبدوا تجربة الشاعر النفيسة والتي قد اتجهت إلى قضايا الموت والوجود والمصير . وقد سببت غير قادرة على استيعاب حقيقة الموت ، ففقدت تماسكها واصابها الزعر والسام وهي ترى الأهل والأحباب والأصحاب يرحلون عنها بلا عودة ووجدت نفسها وقد امتد بها العمر تقف وحيدة كالجبل تتلقى ضربات العواصف من كل اتجاه يحاصرها الظلام ، وهنا يبدو الرحيل إلى الشاطي الاخر حيث الاحباب الراحلون هو الملاذ والأمل الذي تقصده . وفي النهاية أدركت ان لا مفر من التسليم بحقيقة ان الاحياء بين مقيم وذاهب ومصيرهم الموت .

وهكذا اختلفت نظرة ابن خفاجة للطبيعة ، فلم ينظر إلى أحد عناصرها باعتباره موضوعاً وصفيّاً ، وخلع عليه عواطفه واحاسيسه فكان ابن خفاجة هو ذلك الجبل وهو يشاهد مواكب الإنسانية ترحل امامه موكباً اثر موكب إلى غير رجعة .

القصيدة تعتبر لوناً جديداً في المشاركة والعواطف التي يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة . كما استطاع ابن خفاجة في هذه القصيدة ان يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم .

ومنهم من بث في الطبيعة الحياة فنجد ابن سهل يقول :-

والشمس تنتظر نحوه مصفرةً قد شمّرت نيل الوداع لتتهضاً (١)

(١) نفس المصدر ص ١٢٧ .

(٢) نفع الطيب ٢١٣/٢ .

فجعل الشمس إنساناً تنظر وتنتظر الوداع، ونشعر به فتشمز ذيلها استعداداً
للنهوض .

وابن خفاجة يقول في وصف زهرة حيث انه خلع عليها الحياء وشبه حمرة الورد
بالخد والزهر بالكافور والنهر بالسور .

ومائسة تزهى وقد خلع الحيا
والفجر ينظر من وراء غمامه
عليها حلي حمراً واردة خضرا
والليل شمط الذوائب كبره
عن مقله كحلت بها زرقاء
خرف يدب على عصا الجوزاء (٢)

وفي صورة موحية للمشاركة الوجدانية والأحاسيس وقوة المشاعر فهو يجعل من
نظرات الفجر من وراء الضخامة فطرات تتم عن مقله مكتملة قوية حملته الى بقعة
التعبير فجاءت الابيات تحمل في مكنونها الفرحة والسرور وهذا انعكاس لحياته
النفسية المملوءه بالمرح والإعجاب بجمال الحياة وسمرها .

ومن قول ابن سهل :-

أنظر إلى لون الأصيل كأنه
أو قوله :-
لا شك لون مودع لفراق

شفق وشتته حمرة في خضره
فكأنه خد الحبيب معرضاً

هذا الوصف الرائع قد فتن به ابن سهل ، وجعل منه توافقاً بالألوان الزاهية، فالف
بينهما وبين أشات الحسن على أنها مظاهر للجمال في ظلال الطبيعة وفتنتها
وسحرها .

ولابن خفاجة قصيدة يصف فيها الليل :-

وليل كما مد الغراب جناحه
به من وميض البرق والليل فحمة
وسال على وجه السجل مداد
يقرب منى العزم إنسان مقله
شرار ترامي والغمام زناد
بحرق لقلب البرق خفقة روعة
لها الأفق جفن والظلام سواد
سحيق ولا غير الرياح ركائب
به والجفن النجم فيه سهاد
هناك ولا غير الغمام مزاد

أجوب جيوب البید والصبح صارم له الليل غمد والمجر نجاد (١).
تصوير دقيق ظلمة الليل ينتشر في الدنيا شاملاً الأرجاء فلا يقع الطرف الأعلى
سواد. فابن خفاجة جعل من الليل كآبه وسواداً في ظلامه الحالک ووحشته. فإذا
إضاف الى ذلك بريقاً يلوح في الأفق او جعل لهذا الليل نجماً منيراً ينعكس على
صفحة المياه فيكسبها بهاءً ورونقاً، و لكن حتى وميض البرق الذي ذكره أثر له
في أزاحه شئ من الظلام الحالک السود. فالآبيات أوشكت ان تحرق فكلها غمام
وزناد وموت وسواد وجرم ورماد وایباتها تسبب الرهبة والخوف والهلع
ولننظر الى امرئ القيس أمير الشعراء في العصر الجاهلي في وصفه لليل ففيه
اجاده ورقة .

وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تمطي بصلبه
على بأنواع الهموم ليبتلي
وأردف اعجازاً وناء بكلكل
بصبح وما الاصبح منك بامتثل (١)

المديح:-

أما مزج الطبيعة بالمدح ليست بالجديد ، فقد بدأ ذلك واضحاً في شعر ابي تمام،
والبحثري في مديحهما للعباسيين. لذا لقد مدائح ابن زيدون في المرتبة الأخيرة من
مظاهر عبقريته، فقد كانت على ما فيها من جمال الفن وروعة الأداء وموسيقى
الألفاظ وسحر الأسلوب لا تصدر في الغالب عن بواعث نفسه ولا ينفعل بها
إحساس أو شعور، وإنما كان يدعوها اليها التفنن وإرضاء الممدوحين . وهكذا
شعره في المدح تقرأ فيه المعاني العامة التي ردها الشعراء في الممدوحين من
قبله يقول ابن زيدون :-

ولولاك لم يسهل من الدهر جانب
ولا ذل منقاد ولا لان معطف
ثم يقول مواصلاً مدحه في جو من الطبيعة البهيج :-

(١) ديوان ابن خفاجة د. سيد غازي منشأة المعارف الاسكندرية ص ٩٦.

(١) شرح القصائد القصير للتبريزي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مصر ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ص ١٢٦.

فلولاك لم يسمح من الدهر جانبُ
ثم يقول :

ولا أهتر أعطافاً ولا لأن اخدعا^(١)
تكف حروف الحادثات وتُصرف^(٢).

هو الملكُ الجعدُ الذي في ظلاله

يقول ابن عمار في مدح المعتمد بن عباد :-^(٣)

أدرُ الزجاجة فالنسيمُ قد أنبريَّ
والصبيحُ قد أهدى لنا كافوره
والروضُ كالحسنا كساءَ زهرة
أو كالغلام زها بورد رياضه
وروض كأن النهر فيه معمم
وتهزة ريح الصببا فتخاله
والنجمُ قد صرف العنان عن السرى
لما استردَّ الليلُ منّا العنبراً
وشياً وقلدة نداء جوهراً
خجلاً وتاه بأسهن معذراً
صافٍ أطل على رداء أخضرا
سيف بن عباد يبدد عسكر^(٤)

وبعد أن افتح قصيدته بوصف الطبيعة مجدداً في هذا المنهج تخلص منها ببراعة ولطف الى مدح ابن عباد وهو يجول في ميدان القتال، يبيد بسيفه التيار من حوله من الجنود. لقد اختار اجزاء صورة في المدح من الطبيعة فاخفي ذلك على اشعاره البهجة والجمال . فنراه قد وصف النسيم في اعتلاله والنجم والسرى ليلاً ونكر الروض بازهاره وكافوره ، فتناول وجه الحياة المشرق الباسم انها ضرب جديد من ضروب المديح الذي استهل بوصف الطبيعة في صورتها البهية ثم واصل موجه في جو من الطبيعة الغناء .

عباد المخضر نائل كفه
أندى على الأكباد من قطر الندى
والجو قد لبس الرداء الأخضر
وأذ في الأجفان من سنة الكري^(٥)

لقد عالج في المديح بكل ابداع وتضمن وعبقريته :

ويمدحه بقصيدة اخرى قائلاً :-

أثمرت ريحك من رؤوس ملوكهم
لما رأيت الغصن بعشق مثمرأ

(١) ديوان اب زيدون ابي الوليد احمد بن عبد الله للمخزومي ط صادر بيروت ١٩٦٠م - ص ١١٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) المغرب ١/٣٩١ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم
لما رأيت الغصن بعشوقٍ مثمرًا
أصبغت درعك من دماء ملوكهم
لما رأيت الحسن يلبس أحمرًا
نمقتها وشياً بذكرك مذهبا
وفنقتها مسكاً تجمدك ازقراً .

مزج الطبيعة بالمديح عند الأندلسيين له صورته الواضحة الصريحة ، حيث يرتفع صوت الشاعر عاليًا في جرس عذب ورنين وإيقاع صاخب . على عكس المشاركة حيث القصيدة عندهم تجري في ترددٍ وحزر شديد عند بعضهم .

ولكن يجب ان نقف وقفة متأنية في البيت الثاني حيث نجد أن ابن عمار قد أتى بمعنى جديد وذلك حينما وصف صورة الدرع وهو مصبغ بالدماء من كثرة القتلى بجمال الزهر وحسنه وروعته حينما كساه الورد احمراراً .

والجدير الغريب عند الأندلسيين هو مزج الطبيعة بالحروب والدماء والقتلى . وبحيله خفية استطاع الشاعر أن يحول وجه الطبيعة الضاحك البهيج المليء بالحسن إلى صورة حرب ودماء ، فنجدته قد سخر المعنى لخدمة غرضه الجديد الذي اقحمه عليه اقحاماً .

٣ - الشكوى :-

نجح ابن زيدون في مزج شكواه بالطبيعة في رائيته التي ارسلها الى صديقه أبي القاسم بن رفيق (يتودد اليه يتحسر على ايامه السابقة :-

ليت شعري والنفس تعلم أن ليس
بمجد على الفتى ليت شعري
هل لحالي زماننا من رجوع
أم لماضي زماننا من مكر
ابن أيامنا وابن ليال
كرياض لبس افواف زهر
وزمان كأنما دب فيه
وسن او هنا به فرط سكر
حين نغدو إلى جداول زرق
يتغلغلن في حدائق خضر
في هضاب مجلوه الخشن حمر
وبواد مصقولة البنت عفر
نتعاطى الشمول مذهبه السر بال
والجو في مطارف غير (١)

وفي جو من البهجة والسرور الممزوج بالشكوى يتحدث ابن زيدون عن سالف
ايامه التي عاشها مع صديقه فكلماته لوحات رسمتها الحروف وزخارف دبحتها
اخيلته الواسعة في نطاق اللفظة الانيقة المنتقاة مع الأمانى الجميلة واستفهام يرجع
به الى ايامه العذبة وحرارة لقياه مع صديقه الذي ربطته به وشيجه العلاقة
الحميمة. تلك الايام بمثابة قطع الرياض في زهرها وتنوعها وجمالها. فهو يحن
اليها ويتمنى عودتها، فتداخلت الطبيعة مع شكواه وشاركته مشاركة وجدانية في
جو البهجة والوان المتعة مع مباحج الحياة .

اتصل (ابن زيدون) بدوله الجمهوريين (قرطبة) ونال الحظوة لديهم ومدحهم بغرر
شعره غير أن الحزم بن جهور ، تغير عليه نتيجة لوشاية ابن عبدوس، فقد أخبره
بأنه يحاول أن يكون له أمر (قرطبة) دونه ، فيقبض عليه ويسجنه ويقضي في
السجن ما يزيد على الخمسمائة يوم ، ويظل خلالها يستعطف ابن جهور ليعفو عنه
ومن سجنه أرسل إليه عدة قصائد منها تلك القصيدة التي مزجها بشكوى الزمن
ولعله قد اتخذ من الطبيعة منفذاً لشكواه وفيها يقول :-

من يسأل الناس عن حالي فشاهدا	محض العيان الذي يغني عن الخبر
لم تطو برد شبابي كبرة وأرى	برق المشيب اعلى بي عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كذب	وللشبية غصن غير مهتـصر
ها إنها لوعة في الصدر قاذجة	نهار الأسى ومشيب طائر الشرر (١)

وعندما ذهبت تؤسلاته أدراج الرياح، قرر الهرب، ففر من سجنه بمساعدة الوليد
بن حزم (وقصد (اشبيلية) حيث أدناه (المعتضد) من مجلسه ، غير أن الحنين كان
يشده إلى بلده (قرطبة) فعاد إلى الزهراء ضاحية (قرطبة) مستخفياً وأرسل
أصدقاءه خلال إقامته مستشفعاً الحزم ، ولم يكتف بذلك ، بل كان يرسل (الوليد)
متوسلاً ليبدل مساعيه لدى الأب فيعفو (الحزم) عن الشاعر بمساعدة ابنه الوليد .

الرثاء :-

أخذ شعراء الأندلس في مزج الطبيعة بالرثاء فاصبحت هناك رابطة قوية بينهما واعتمدوا على وسائل فنية جديدة وعلى رأس هؤلاء ابن خفاجة الأندلس حين رثا الوزير ابا محمد عبد الله بن ربيعة في همزتيه التي بداها بقوله :-

وبكل خد فيك جدول ماء	كل ناد منك روض ثناء
تحت البكاء ورنه المكاء	ولكل شخص هذه الفن الندى
اسفاً عليك كمنشأ الأنواء	يامطلع الأنواء ان بمقلتي
يمشي والا موعد للقاء	وكفى اسى الاسفير بيننا
ثوب الشباب وحلية النبلاء	فيما التجمال في زمان بزني
وعطلت الامن حلى بكاء	فعربت الامن قناع كآبه
او رسم دار للصديق خلاء	فاذا مررت لمعهد لشببية
كالقيم ومن فجال دون سماء	جالت بطرفي للصبابة غيره
تندي ما فيه وبين دعاء	ورفعت كفي بين طرف خاشع
استنزل الرحمة من الخضراء	وبسطت في الغبراء خدى ذله
بابي محمد المحمل النائي ⁽¹⁾	لا هزني امل وقد حل الردى

لقد مزج ابن خفاجة رثاه بالطبيعة وهذا لون جديد من الوان شعر الرثاء فالطبيعة عندهم ليست للمرح وبث الشكوى والصبابة فقط فان كان الأمر كذلك لجف عودها وجذبت أرضها ، ولمات الإنسان الحزين كمدأ وحسرة، لشاعر قد اختار لوحة حزينة جعل اطارها من عناصر الطبيعة الأندلسية التي افنتت الشعراء بها، وتعبدوا في محرابها ،ولجا اليها الشاكي والباكي والحزين والمسرور وإذا تتبعنا ابيات القصيدة وجدناها صادقة المشاعر، حزينة النغمات وان صدرها المشققة من الطبيعة انت لتجسم احزانه والأمة .

ويمضي الشاعر في رثائه متخذاً تجسماً لمعاني الحزن:

(1) ديوان ابن خفاجة تحقيق غاندي ص ١٧٨ .

والألم يعتصر الشاعر على فقيدته ويناجي الطبيعة مناجاة حزينة لتشاركه احساسه ومشاعره ، واستعمل الجناس كي يبرز المعنى ونشد الطبيعة من آزره. ويشبه الفقيد بالزهرة التي جف ماؤها فهو يحمل لفقيد ه السيرة العطرة والذكر الحميد وبياته وكلماته ما هي الا ترجمان لمشاعر الحزن فنجدها محكمة الصنع متينه النسيج وذلك حين يقول :-

أرى زهرة العلياء تجف وماؤها يغيض وارواح البشاشة تركد
ولم انسه والنعش قد صار روضة تبسم عن ذكر يغير وينجد
تهاداه اعنان الرجـال وانما يسير على الأمان حزم وسودد

أنه يشبه النعت ، وهو على أيدي الرجال تتهاداه يزهرة . فقد اختار تلك القافية لتأكيد المعنى وصدق العاطفة وحرارة الاسى ورنات الحزن والموسيقى الباكية .
الغزل :

لقد امتزجت الطبيعة بالغزل وهو أمر مقبول وتزواج طريف بين الفين رقيقين
ففسح الشعراء وشتى المعاني البهيجة وتائقوا في العبارة العذبة واختيار اللفظة
الناعمة الندية من هؤلاء ابن زيدون .
الذي امتزج غزله بالطبيعة ، بعد إن بث فيها الحياة والشعور ، فعطفت عليه
وشاركته الأمة وذكرياته وتجاربه واحلامه، فكانت مظاهرها متقنة لهواه وحبه
مفسرة لآلامه ومشاعره .

غريب يا قصى الشرق يشكو للصبا تحملها منه السلام إلى الغرب
ما ضر أنفاس الصبا في احتمالها سلام هوى يهديه جسم إلى قلب⁽¹⁾
لقد اتحدت الآمال والعواطف فاصبحت الطبيعة جزء منه. فحمل ربح الصبا
اشواقه المفعمة وجعلها الرسول لا يصال مكنون نفسه الى قرطبة. وطبيعي لهذا
الشاعر الذي اختبر أوتار القيثارة العربية ارق اختبار واستمع الى شذوها ونفحاتها
ارهدف استماع فتجاوبت معه الطبيعة في همساتها ونجواها .
ويقول :-

وإني ليستهويني البرق صبوه
وتذكرني العقد المرن جمّانه
الى برق ثغر ان بدأ كاد يخطف
مرنات ورق في ذرا الايك تهتف^(١)

صورة جميلة ومعان رائعة واحساس صادق ، لقد استمد من قلبه عناصر شعره. وامتزجت المشاعر والهوى وتوافق المزج والفكر وماضي الذكريات. لقد اهتزت المسامع باغاثيه والحانه وموسيقاه العذبة الندية فجاءت النفحات بصره عن الفن والجمال .

ويزداد شوق ابن زيدون الى ولادة فيصدق كي يصدق الطائر المهاجر لفراق ائكه ومن خلال اللوعة وأماني القلب وذكرى حبه العميق ويظل الشاعر المحب ذاكراً ولاده اينما ذهب واينما حل فمعاني الشوق عنده لا تنفد، فتأتي المعاني مزوده بقريحة الشاعر في رقة وعدوية .

يا نازحاً وضمير القلب مثواه
الهتك عنه فكاها تكدبها
انستك دنياك عبداً انت مولاه
فليس يجري ببال منك ذكراه
عل الليلي تبقيني الى أمل
الدهر يعلم والايام معناه

لقد فجرت ولادة طاقة الشعر الكبرى، واشتعلت جزوة الصباية في نفس ابن زيدون وروحـه فشكا الى الزمان والليالي ان يتوصله الى بر الامان. لقد بعدت الشقة بينهما فـشعر بالـغربة، وظل بعيداً عنها الى آخر لحظات حياته. والتي انتهت بموت غرسه في اشبيلية دون ان يتمكن من الرجوع الى قرطبة التي اودعها ما استطاع ان يودع من اسرار فنه وروعة شاعريته بين حسن ايقاع وسحر ونغم فيقول في هذه الابيات :-

أبو حسني الزمان وانت انسي
واغرس في محبتك الاماني
ويظلم لي النهار وانت شمسي
فاجنى الموت من ثمرات غرسي

أما غزل ابن خفاجة فمعظمه من الغزل الحسي ،الذي يتحدث عن مفاتن المرأة والجمال الخارجي وقيل منه اقرب الى العذرى وذلك حينما يتحدث عن الدموع وغياب الأحبة مستمداً من جمال الطبيعة الوحي والسحر والالهام .

وهو القائل :-

لقد زاد من اهوى على غير موعد
وعاتبته والعتب يحلو قريته
وقد بلغت روعي لديه التراقيا⁽¹⁾
من الشعر بيتا والدموع سواقيا
وقد يجمع الله الشيتين بعد ما
يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

فقد صور فاتنة بالبدر الذي ياتي دون موعد سابق ولم يصف الى هذا الوصف
وصفاً آخر من اوصاف الجسد .

ثم تحدث عن فرحه بلقائها ، وضاع من ذلك شعراً ، وسالت دموعه بحراً وقد
اجتمعاً بعد تفرق والله سبحانه قادر على جمع الشيتين بعد فقد الأمل بعد فقد اللقاء
وقد ضمن مقطوعته السابقة بيتاً لقيس بن الملوخ وهو البيت الأخير وتراه قد افتتح
بعض قصائده بالغزل التقليدي الخالي من توقد العاطفة مقلداً بذلك شعراء العربية
السابقين .

وهكذا نجد ابن خفاجة قد برع في فنون الشعر المختلفة ، وحاز قصب السبق في
اغراضها وخاصة في وصفه للطبيعة لذلك وصفه النقاد بشاعر الطبيعة الأول .

ذكر الفتح بن خاقان صاحب "المطعم والقلائد" ان الخطيب ابا الوليد بن
عباد مر على مصر في طريق عودته بعد اداء فريضة الحج وتطلع الى لقاء
المتنبي وكان اذ ذاك في مصر فصار اليه حيث جالساً في مسجد عمرو بن العاص
وبعد ان جرى بينهما بعض الحديث قال له المتنبي انشدني لمليح الاندلس يعني
ابن عبد ربه فانشده :-

يا لؤلؤاً يسبي العقول انيقاً
ورشا بتقطع القلوب رقيقاً
ما ان رايت ولا سمعت بمثله
ورداً يعود من الحسياء عقيقاً
واذا انظرت الى محاسن وجهه
ابصرت وجهك في سناه غريقاً
يا من تقطع حضره من رقه
ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

فلما اكمل ابو الوليد انشاده، استعادة المتنبي ثم قال يا ابن عبد ربه ، لقد تاتيكَ
العراق حبواً^(١) ونراه يكتب شعراً في لوعة الحب وانصراف القواني عن العاشق
فانه يأتي بالطريف من المعاني في ثوب من جيد الشعر ورقه الايقاع :-

ان الغواني ان رايتك طارياً بُرد الشباب طوين عنك وصالاً

ولابن عبد ربه مقطوعة قالها في بعض من احب وكان قد ازمع على الرحيل^(٢).

في غداه بغيتها فاتت السماء في تلك الغداة بمطر غزير حالت دون رحيل ذلك الذي اسمه هيب

ودعتني بزفرة واعتتاق

وتصدت فاشرق الصبح منها

يا سقيم الجفون من غير سقم

ان يوم الفراق افضع يوم
لتبني من قبل يوم الفراق^(٣)

ان السمات الواضحة ، في هذه الأبيات من شعر ابن عبد ربه ، يتضح من خلالها
شيوخ الرقة والسلاسة والسمة الغنائية التي تتمثل في الجانب الموسيقي واتضح
العنصر العاطفي .

(١) فلانذ العقبان ومطعم الانفس / الفتح بن خافان .

(٢) المعقد الفريد لابن عبد ربه ٢١٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١٦ .

وهذا لون جديد من ذلك القرن في شعر الاعمى النطيلي في حوارهِ مع ام المجد
التي كانت تتولى تمهيد السبيل بينه وبين محبوبته، والتي خشي ان تتعالى عليه
وتعرض عنه ولا تلتفت اليه. وهي اشبه بالشعر القصصي عند ابن ابي ربيعة .
لما التقينا وقد قيل المساء اتى
واضلعي بين منقبض ومنقصف
واملنتي "ام المجد" قائله
فقلت قلبي مسبي وانك لـ
وأعرضت ثم قالت قد اسأت بنا
فقلت اني امرؤ لما لقيتكمو
حسبت فؤادي ذات الخال قادرة
اصابت القلب لما ان رمته ولو
حتى اذا ما الانت تلك جانبها
طففت الثم كفيها وقد جنحت

صور من الخيال الرائع وقصة من الحوار الهادي ومعنى من معاني الصباية
الصفيفة والحديث الممتع . وقد جاءت صياغته السهلة واسلوبه المتدفق مناسباً
كمى تتساب قطرات الندى على الأوراق فتسكبها نضرة وبهاء. (١)
وفي الأندلس تدفقت شاعرية ابن حمد يس وذبح غرر قصائده وفي احدى مجالسه
تلك نعم بمغنيه ذات صوت شجي تعزف على عود بانغام ساحرة فاسكره النغم
والجمال فقال يصور ذلك .

فاوضت في الوصل عيني عينها
فانثنت كبراً وقالـت ويلتا
انا شمس وبعيرـد فلـكي
لو بدأ امرك لي من قبل ذا
فازدهت عجباً وقالت ما لديك
او هذا كله يُـطلب ويك
وضيائي نافر من راحتك
ما رات ناظرتي ناظرتيك (٢)

(١) تاريخ الأدب العربي في الأندلس / ابراهيم على أبو الخشب دار الفكر العربي القاهرة من ١٢٥ .

(٢) ديوان ابن حمديس الضفلي لعلي مصطفى المعراتي ط١ دار سكتة .

ظل الشاعر يضرب على هذا الوتر حتى وصل الى نهاية متوقعة وهي رفض
المحبوبة التي تركت في نفسه ذل وانكسار. انه قد اتى بالتشبيه البليغ في قوله انا
شمس وذلك حسب ما تتطلبه الصورة والسياق فمزج غزله بالطبيعة التي هام بها
حياً كهيام نظراته من شعراء الأندلس الذين سحرتهم بلادهم الفاتنة. (١)

(١) ديوان ابن حمديس الصقلي لعلي مصطفى المعراتي ط١ دار مكتبة الفكر ليبيا ص ١٦٦

اللهو والمجون :-

لم يكن لشعر الهو والمجون أثر يذكر في العصور الأولى ، عقب فتح المسلمين للأندلس . لأنها فكانت عصور جهاد ونضال وحروب ونزال كما كان الحماس الديني ما زال قائماً في النفوس وله قداسته وأصوله واحترام وتقدير . هذه الأصول والخشية من الله وظل الحال هكذا إلى عصر الطوائف وإسراف الأمراء من البزخ والترف والإسراف فشاع شراء الغلمان للسمر واللهو والغناء وشرب الخمر وانتشرت الخمور ، أصبحت كالأثاث في القصور والدور وصار الامراء لا يتورعون في المجاهرة بشربها فآخذوا يسمرون ويلهون ويستمعون إلى غناء القيان مقلدين بذلك الخلفاء في العصر العباسي وسمحوا للشعراء بتصوير تلك المظاهر في اشعارهم فتقنوا في تصويرهم ها غاية التفنن .

وانتشر اللهو والمجون بين عامة الشعب فأقبل الناس على شرب الخمر ودخول الحانات لسماع المغنيات والتغزل في القينات . فنشط شعر اللهو والمجون نتيجة لتملك بعض المجتمعات ومالوا للهو من شرب للخمر ولهو وعبس ورقص واقتناء لحسان الجواري ممن كثر سببهن ضمن ما كان يسبى في الحروب الكثيرة (١) .

فنجدهم قد صدروا ما دار في مجالسهم من عبث واستهتار دون عرف او تقاليد او اخلاق وقيم فنجدهم قد شربوا حتى الثمالة وادار الغيان كؤوس الخمر في لهو وغناء وعبث وفعل الطبيعة .

ومن قصيدة لابن خفاجة حدثنا فيها عن ايامه السابقة التي قضاهما في اللهو والمجون وبداها بالمعرفة الطللية مقلداً فيها الاقدمين في النهج والاسلوب .

ورب ليالي بالغميم أرقتها لمرضى جفون بالفرات نيام (٢)

يطول على الليل يا ام مالك وكل ليالي العتب ليل تمام

وهكذا تستمر كلمات القصيدة في لهوه ومجونه وسكره في أيام شبابه :-

وقال على بن محمد العلوي :-

(١) الألب الإنطلس لهيكل ص ٢٧٤ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٥٢ .

كان السحاب الغر اصبحن اكواساً
إلى ان رأيتُ النجم وهو مغربٌ
لنا وكان الراح فيها سنا البرق
واقبل رايات الصباح من الشرق
كان سواد الليل والصبح طالعٌ
بقايا جمال اللحن في الأعين الزرق^(١)
لقد بات ليلاه شارباً معربداً فاذا اشرقت شمس الصباح قال هذه
الابيات مصدراً لهوه ومجونه خلال هذه الليلة .

ومن قول ابي الحسن الكاتب يصف الخمر والتغزل بساقها .

يا رب ليلٍ قد هتكت حجابها
يسقي بها ساقٍ اغر كانها
بزجاجة وقادة كالكوكب
من خده ورضاب فيه الاشنب
يسعى ببدن جانح للمغرب
والصبح يطرده بياز أشهب^(٢)
والليل متحفزٌ يطير غرابية

لقد صور الشاعر زجاجة الخمر بكوكب هتك حجاب الليل واناظر ظلمته . ولا شك
ان في لفظة هتك ، توحى بالعريضة والفجور ثم جعل لون الخمر مستعاراً من خد
الساقى لقد نعم بشرب الخمرتين خمرة الكأس وخمرة الثغر وظل يشرب حتى
يطرد ظلام الليل بياز اشهب يطير غرابياً .

ولقد سبقه إلى هذه الصورة المعرى حين قال :-

يا لله يا دهر اذق غرابها موتاً في الصبح بياز كرز^(٣)

يقول ابو الفتوح وقد مزج وصفه للخمر بوصف ساقها .

ومدامه صفراء عللى بها
صهباء تغرب ان بدت في كفه
رشا كغصن البان من حركاته
في فيه ثم تلوح في وجناته

لقد اكتفى بوصف الخمر دون وصف اثرها كما وصف الساقى ومفاته

وينبذوا ان بعضهم قد فاق من غفوته واصبح اكثر اتزاناً وابلغ ادباً واعمق رأياً
وروية بقول ابو اسحاق بن خفاجة في ذم الخمر .

لقد ذم بعض الخمر قوم لانها
تكر على دين الفتى بفساد

(١) زهر الأداب وثمر الابواب ابو اسحاق ابراهيم بن على الحضري القيرواني دار الكتب العربية بيروت ط ٢ من ١٥٦ .

(٢) الذخيرة ص ٢٨٨ .

(٣) سقط الزندي للمعري ط دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م ١٩٤٨ م ص ٩٥ .

وقد سلموا قول الذي قال انها
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى
فيمضي كريماً سيداً ثم يقتدي

تحل من الدنيا باعظم ناد
لمدمنها من طارق وتلاد
سفيها حليف الغنى بعد رشاد (١)

فبعد ان ظل الشاعر اسيراً لسحر الطبيعة ، حليفاً لكأس الخمر في ظل ايكة او
على متنى زورق ، نراه ينشئ ابياتاً يزعم فيها الخمر وشاربها ، وما تفعله بخلداهم
وعقولهم وما فيها من كساد وضياع للمال ، والبعد عن الكرامة والعزة والشرف .
الغزل بالمذكر :-

ومن الغزل الذي ظهر بالأندلس الغزل بالمذكر فتغزلوا بالمذكر غزلاً
تقليدياً محضاً فقلدوا بذلك شعراء العصر العباسي امثال حماد عمر وابي نواس
وحسين الصماك وغيرهم (٢) .

غير أن معظم الغزل بالمذكر اتى من الفاظ عفيفة وممن تغزلوا بالمذكر في
فتاه اليهودي موسى :-

ولما عزمنا ولم يبق من
بكيت على النهر أخفي الدموع
ومن الفراق بتوذيعة
وقبلت وجنتيه بالدموع

مصانعه الشوق غير اليسير
فعرضها لونها للظهور
فشبهت ناعي النوى بالبشير
كما التقطت وردة من غدير (٣)

لقد اسرف في تفسير هذه الظاهر و الشعراء حتى الذين ترتبط اسمائهم بسمات
من الوقار والتحشم قد تورطوا في الغزل بالغلمان كانها من أساسيات الحياة في
المجتمع الأندلسي .

(١) الاحاظة في تاريخ اخبار غرناطة ص ١٧٨ .

(٢) النخيرة ٢١٦/٢/١ .

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

الزهد :-

إن طبيعة تطرف اصل الأندلس وشعرائه لم تنحصر في إطار اللذة والتمتعة وحدها بل لقد تطرفوا في الناحية المقابلة وهي ناحية الزهد ويبدو ان عدد الزهاد في الأندلس كان من الكثرة بمكان وأن الزهد في اغلب الاحيان تمثل رد فعل للأسراف في امور الدنيا والاغراق في الترف .

فهذا السمير الالبيري الذي افحش في الهجاء على نفسه وعلى الناس في سب اعراضهم يعد إلى التوبة ثم يمزجها بالطبيعة والزهد في الحياة .

يقول :-

مثل ما قالوا سرابُ	جملة الدنيا ذهب
فخراب دياب	والذي منها مشيد
ابداً فيه اضطراب	وارى الدهر بخيلا
سؤال وجواب (1)	وليوم الحشر أنعام

رثاء المدن والملك الزائل :-

الرثاء في ذاته لم يكن جديداً على الشعر العربي ، لانه نوع من الألم
لحبيب تولى أو عزيز ارتحل أو صديق مضى . ومن الامور الوجدانية ، الحزن
والفرح وهما مثلاً متلازمان فالرثاء تعداد لمناقب الميت وتعداد لمحاسنه وذكر
لمزاياه ، ولكن البكاء على الطلل والرسم الدارس والدموع على غير الصديق أو
اهل أو غريب امر يلفت النظر ويثير العجب . ولا غرابة في ذلك ثمانية قرون
مجيدة عاشها العرب المسلمون في الأندلس ، وكان لسلطان المسلمين قداسة
واحترام وقوة ودفاعاً للدين فلما ارغمتهم الايام واعداء الدين والاسلام ان يتخلوا
عن ذلك المجد ويرتحلوا عن البلاد بعيدين من مسرح الحياة هنالك ، كان لهذا كله
على انفسهم موضع حسرة والم ممضى ، فليس لديهم حيلة إلا الدموع الغزار
يزرفونها وتلك الصيحات الحزينة يرسلونها فكان بكاء الملك الزائل لوناً جديداً في
الأدب العربي احدثوه ونظموا فيه القول درراً . بقول بعضهم في رثاء طليطلة
وهي أول مدينة أغار عليها الاسبان فاخذوها حين وقعت في يد الفرنس السادس
عام ٤٧٨هـ .

طليطلة اباح الكفر منها	حماها ان ذا نبأ كبير
وكانت دار ايمان وعلم	معالمها التي طمست تنير
فعادت دار كفر مصطفاة	قد اضطربت باهليها الامور
مساجدها كنائس أي قلب	على هذا يقر ولا يطير
انترك دورنا ونفر منها	وليس لنا وراء البحر دور

قال ابن جفاجة وهو يرتي الاخوان والابرار ويتوجع لوفاتهم من الطويل :

الاغرس الاخوان في ساحة البلى	وما رفعوا غير القبور قبانا
فدمع كما سح الغمام ولوعه	كما ضربت ريح الشمال شهابا
اذا استوقفنتي في الديار عشية	ترددت فيها جيئة وذهابا
اكر بطرفي في معاهد فنته	تكلتهم بيض الوجوه شبابا
فقال وقوفي بين وجد وزمره	انادي رسوما لا تحير جوابا

وقد درست اجسادهم وديارهم فلم أر الأقبراً ويبابا
لعل الشاعر قد استعمل بحر الطويل في هذه القصيدة حيث النفس الطويل والاهات
والتوجع وقد ساعد حرف المد على ابراز الصورة الحزينة انهم قد ضمتهم احجارا
وقبوراً فتذكر ايامه ومعاهد شبابه وصباه وعهده بالرفاق الذين ولوا وارتحلوا
وليس امامه الا ان يقف حزينا يبكي الديار التي خلت من اهلها وفارقوها وارتحلوا
فخلت الديار من ساكنيها فلم يجد الا البكاء والنحيب والشجو .

مضى الإسلام فابك دماً عليه
فما ينقى الجوى الدمع الغزير
ويح وأندب رفاقاً في فلاة
حياري لا تحط ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم وحارب
عسى ان يجير العظم الكسير^(١)

ويقول ابن عميرة المخزومي يبكي بلنسية بعد استيلاء الملك ارغون عليها عام
٦٣٦هـ

إلا ايها القلب المصروح
اهالك من بادي الصبابة من بد
وهل من سلو يرتجى لم يتم
له لوعة الصادي وروعة ذي الصد
يحن إلى نجد وهيئات حرمت
صروف الليالي ان يعود إلى نجد
يا اهل ودى والحوادث تقتضي
خلوى عن اهل يضاف إلى الورد
امن بعد رزء في بلنسية ثوى
باحنائنا كالنار مضمرة الوجد
الا ليت شعري هل لها من مطالع
تعاد إلى ما كان فيها من السعد
وهل اذنب الابناء ذنب ابيهم
فصاروا إلى الاخراج جنة الخلد

وهناك قصيدة رائية لشاعر مجهول قالها في شعبان عام ٨٩٧هـ تزيد عن المائة
بيت (٢) . فالشاعر يصور ما حل بالاندلس من خراب وتدمير وقتل وتشريد وسلب

ونهب لان الكارثة قد حلت والمصيبة قد نزلت وفيها يقول :-

احقا حنا من جو رنده نورها
وقد كسفت بعد الشموع بدورها
وقد اظلمت ارجاؤها وتزلزلت
منازلها ذات العلا وقصورها

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٥٧ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٠ .

فيا ساكني تلك الديار كريمة
سقي عهدهم مزن يصون نميرها
احقاً اخلائي القضاء ابادكم
ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل واسر لا يفادي وفرقه
لدى عرصات الحشر باي سفيرها (١)

انه يثير فيهم العاطفة الإسلامية التي تجمعهم باخوانهم الاندلسيين ، وذلك لان مساجدهم حولت إلى كنائس واستبدلت بالقبلة النواقيس والصليبان، وشكت المنابر انه بهذا يستنفر المسلمين ليهبوا إلى الجهاد لانقاذ البلاد من الظلم والطغيان .

يقول الرندي :-

يا رب ام طفل جيل بينهما
كَمَا تفرق أرواح وابدان
وطفل مثل حسن الشمس اذ طلعت
كانما هي ياقوت ومرجان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان

وهكذا ظل الرندي يتحسر ويتالم على حال المسلمين من ضياع وحسرات وفرقة وشتات في صورة قريبة من الاستفهام والتمني وذلك ليوضح فجيرة الاسلام واهله كان بعض الشعراء يخفون ما كتبوا حتى لا يقع عليها الحاكم الظالم الذي يسير بقومه في طريق الهزيمة والغناء ان الكاتب الاديب الشاعر ابا عبد الله محمداً الغازاري يكتب بعض خواطره شعراً ويخفيها ولقد وجدت هذه الابيات في جيبه بعد وفاته .

الروم تضرب في البلاء وتغنم
والجورُ ياخذ ما بقي والمغرْمُ
والمالُ يورد كله فشتاله
والجند تسقط والرعية تظلمُ
وذرو التعين ليس فيهم مسلم
الا معين في الفساد مسلمُ
اسفي على تلك البلاد واهلها
الله يطف بالجميع ويرحمُ

ومما يدعو إلى مزيد من الحزن ان هذه الابيات وقف عليها احد سلاطين الفرنج فقال قولته الشهيرة لو كان جياً لضربت عنقه واستنكر ان يجرؤ مواطن على مثل هذا النقد .

اللمحظات الأخريرة في مقاومة المعتمد للمرابطين يصفها لنا الفتح بن خاقان في عبارات مسجوعة بقوله (١). ولما انتشر الداخلون في البلد وامنوا القوى والجد خرج المعتمد .

وحسامه يعد بمضائه ويتوقد عند انتصائه فلقبهم في رحبه القصر ، وقد ضاق به فضاؤها وتضعضت من رحبتهم اعضاؤها فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا وملاتهم فرقا وما زال يوالي عليهم الكر المعاد حتى أوردهم النهر وما بهم من جواد وادعهم حشاه كانهم له فؤاد ثم انصرف وقد ايقن بانتهاء حالة وذهاب ملكه وارتحاله وعاد إلى قصره واستمسك يومه وليلته مانعا لحوزته دافعا للذل عن عزته ((.

وصور لنا (المعتمد) نفسه هذه الساعات الاخيرة التي خاض فيها ضد

المرابطين حرباً مستميتة دفاعاً عن أهله وعرضه وشرفه في قوله (٢)

لما تماسكت الدموع	وتنبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فليبدُ منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع	على فمي السم النقيع
أن يسلب القوم العدا	مُلكي وتسلمني الجموع
لم استلب شرف الطباع	ايستلب الشرف الرفيع !؟
قد رمت يوم نزالهم	الا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص	على الحشا شئ دفعوع
وبذلت نفسي كي تسيل	اذا يسيل بها النجيع
اجلى تاخر لم يكن	بهسواي ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا	ل وكان من املي الرجوع
شيم الإلى انا منهم	والأصل تتبعه الفروع

(١) فلانذ العيان ج ٢ ص ٤٥٢ .

(٢) الحلة السراء ج ٢ ص ٦٥ وديوان المعتمد ص ٨٨ والنخيرة ج ٢ ص ٥٢ .

وسقطت (دولة بني عباد) وخبا نجمها الذي سطع حيناً في سماء الأندلس ، وضاءً
 عالياً ، ولكنها سقطت ابيه كريمة في مناظر من الفروسية الشامخة ، لم يكن سقوط
 هذه الدولة واسر المعتمد وآل بيته بيد الظافرين خاتمة المحنة ، بل كان بداية محنة
 أفظح والم للنفس وهي محنة الاعتقال والذل والهوان والنفي والعذاب بل وقتل
 أبنائه الأربعة بيد المرابطين الفتح المأمون ويزيد الراضي والمعتمد بالله ومالك
 ولم يبق المرابطون على حياة (المعتمد) الا ليتجرع كأس الذل والهوان ولتمرغ
 كرامته ، وعزته في التراب. لان (يوسف بن تاشفين) كان يرى في (المعتمد)
 قطب الفتنة التي عمت أرجاء الأندلس ، وحليف النصارى الخانع المذنب في حق
 دينه ووطنه ففي تعذيبه معنوياً اشد وأقسى من موته لان الموت (في رايه) راحة
 له . ثم سيق المعتمد واهله إلى السفن التي ستنقلهم إلى المنفى سارت بهم من
 اشبيلية تخر عباب نهر الوادي الكبير في طريقها إلى العدو في مناظر تذيب
 القلب حزناً ولوعة وضجت جموع الشعب الغفيرة المحتشدة على ضفتي النهر
 لوداع المعتمد بالبكاء والنواح حينما رات سيدها وراعيها بالامس القريب تحقيق به
 ويجمع له اغلال الاعتقال والذل ، ويغادر موطن سلطانه وعزه إلى مصيره
 المجهول وفي تصوير هذه اللوحة الباكية يقول (ابن البادية) شاعر المعتمد (١)

نسيت الا غداه النهـر كونهم	في المنشآت كاموات بالحداد
والناس قد ملأوا البرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة	ومزقت اوجة تمزيق ابراد
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداه ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعها	كانها ابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دموع وكم حملت	تلك القطائع من قطعات اكباد
يا لها من لحظات قاسية وطويلة ،	كانها الدهر . فالامير واهله غادروا اشبيلية
باجسادهم لا بارواحهم والناس قد ملأوا البرين والسفن تحملهم إلى اغمات ،	
والبكاء عزيز والحزن مخيم والنسوة يولولن ويلطمن الخدود ويشققن الجيوب	

ويصرخن ساعة الوداع لقد تمنى جميع المحتشدين ان يفدوه بارواحهم لو ينفع
الفداء وسارت السفن مودعة بالنواح والصراخ والاكباد المتقطعة والمهج المشدودة
يا لها من ماساة نجح الشاعر في صياغتها بدقة واحكام وبرع في رسم لوحته
الفنية للوداع بعقرية والمعية واضفى عليها بدقة من احساسه الحزينة ومشاعره
المتدفقة الما ما زاد من حيويتها وقدراتها عل الايحاء والتاثير فجعلنا نعيش معه
الاحاسيس نفسها وفجيئته في المعتمد وآله .

وسارت بهم السفن إلى ان وصلت (طنجة) فمكثوا بها اياما ومنها واصلوا
الرحلة حتى وصلوا (مكناس) واثاء السير راي المعتمد جمعاً من الناس يصلون
صلاة الاستسقاء فقال معبراً عن الأمة واشجانه وان دموعه الغزيرة المتواصلة
تغني هؤلاء الناس عن المياه التي ينتظرونها غير انهم وجدوا المياه المتجمعة من
دموعه ممزوجة بدمائه فلا تنفعهم (1)

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم
قالوا حقيق في دموعك مقنع
دمعي ينوب لكم عن الأنواء
لكنها ممزوجة بدماء

ثم واصلوا ارحلة حتى وصلوا (أغمات) في أواخر سنة ٤٨٤هـ وهناك ظل
اعواماً يتجرع كؤوس الذل والمهانة وضيق عليه في سجنه فلم يكن معه ما يكفيه
ويكفي اهله من الثياب حتى اضطروا للبس خشن الثياب وامتهنت بناته واتخذت
الغزل مهنة ليساعدن والدهن والاسرة في تحمل اعباء الحياة فراهن الأب يوم العيد
وهن يغزلن الصوف فقال (2)

في ماضي كانت بالاعباد مسرورا
تري بناتك في الاطمار جائعة
يرزن نحوك للتسليم خاشعة
يطان في الطين والاقدام حافية
فساءك العيد في أغمات ما سورا
يغزلن للناس لا يمكن قطميرا
ايصارهن حسيرات مكاسيرا
كانها لم تطا مسكا وكافورا

ومر به وهو سجين (سرب قطا) فغبطهن على ما هن فيه من حرية وانطلاق متمنيا ان
يكون مثلهن طليقاً فناجاهن قائلاً:

(1) ديوان المعتمد ص ٨٩ .

(2) ديوانه ص ١٠٠ .

ولكن حيننا ان شكلي لها شكـل
وجيع ولا عيناى يبكيها تـكل
ولا ذاق منها البعد من اهلها اهل
اذا اهتز باب السجن او صلصل القفل
وصفت الذي في حيلة الخلق من قبل
سواي يحب العيش في ساقه كبل
ولم تك والله العليم حشاده
فاسرع لا شملي صديق ولا الحشا
هنئياً لها ان لم يفرق جمعها
وان لم تبت ليلا تطير قلوبها
وما ذا مما يعتريني وانما
لنفسى إلى القيام الحمام تشوق
وفي السجن كان الشعر هو سلواه الذي بيته همومه واحزانه فنظم به قصائد تفيض اسي
وتسيل لوعة ، باكياً فيها حظه وسوء طالعه ، وعبره (أحياناً) عن استسلامه للقدر
وصروف الدهر فمره تذكر ايام نعيمة وملكه باشييلية فقال (١).
قبح الدهر فما زاد صنعا
كلما اعطى نفيسا نزعا
قد هوى ظلماً عن عادته
ان ينادي كل من يهولها
ومن سجنه بعث إلى (ابن حمديس) قصيدة اودعها كل اشجاناه والامه وهمومه واحزانه
يقول فيها (٢).

تتشق بريحان السلام فانما
وقل لي مجازاً ان عدمت حقيقة
افك في عصر مضى بك مشرقاً
واعجب من افق المجره اذ راى
لئن عظمت فيك الزرية اننا
قناة سعت للطعن حتى تقسمت
اقضى به مسكا عليك مختماً
لعلك في نعمي فقد كنت مُنعماً
فيرجع ضوء الصبح عندي مظلماً
كسوفك شمساً كيف اطلع انجماً
وجدناك منها في الرزية اعظماً
وسيف اطلال الضرب حتى تنلما

وبعد ان تالم وتحسر على حال المعتمد وما فيه من ذل الاسر بعد عز السلطان قال:
حكيت وقد فارقت ملكك مالكا
مصاب هوى بالنيرات من العلا
تضيف على الارض حتى كانما
ندبتك حتى لم يخل لي الامس
ومن ولهي احكي عليك متمماً
ولم يبق في ارض المكارم معلماً
خلقت واياها سواراً ومعصماً
دموعها بها ابكي عليك ولا دماً
وهكذا كانت ماساة المعتمد ودولته الضاربة من اعظم المأسى ومن اقسى النكبات.

(١) القلائد ص ٢٤.

(٢) القلائد ص ٢٥.



خصائصه ومميزاته

خصائصه ومميزاته

كان الشعر الأندلسي عقب الفتح الإسلامي غير متميز الملامح مجهول الهوية وذلك لانصراف المسلمين إلى الحروب لتوطيد أركان الدولة الجديدة لذا عاش الأندلسيون في الحقب الأولى على التقليد من إخوانهم المشاركة في المضمون والشكل ومن هؤلاء "أبو الأجرى بن الصمة" ومنهم أيضا "أبو الأخطار بن ضرار" (١).

ويعد عصر الفتنة بداية عصر الطوائف ٤٢٢هـ - ٤٨٤هـ وبالرغم من النزاعات المتواصلة بين ملوك هذا العصر إلا أنه بعد عصر ذهبياً للشعر والشعراء إذ أصبحت له المنزلة الرفيعة والمكانة المرموقة عند الجميع يتسابقون إليه ويتبارون في جني ثماره واستنشاق رياحيه حتى بلغ من منزلة الشعر عند الشعراء ، إن أبياتاً من الشعر كانت كفيلاً بالتجاوز عن كل ذنب ونسيان كل إساءة (٢).

واحتل الشعر المكانة المرموقة فاق الشعراء الأندلسيون غيرهم وتربع الشعر على عرشهم وأصبح الناس يتسابقون إلى قرص الشعر وحفظه فاحتل في نفوسهم مكانة مرموقة .
وتطور الشعر حتى أصبح كبار الأندلسيون يتراسلون بالشعر أمثال المعتمد بن عباد، إلى أن صارت حياتهم كلها شعراً.

ومما ساعد على ازدهار الشعر ، الطبيعة الفاتنة التي كان لها الأثر العميق في نضوج الشعر وازدهاره، وبدأ شعراء الطبيعة يخرج عن المؤلف والابتعاد عن القصيدة إلا في حالات قليلة. ويعمد الشاعر إلى المقطوعات التي تستوعب طاقة خيالية وتصور عطاء شاعريته غير عابئ بعدد الأبيات أو النظام التقليدي للقصيدة.

والشعر الأندلسي يمثل صورة دقيقة لبيئة الأندلس . وحبه الجم مما جعله يفضلها على غيرها من البيئات .

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى السقوط للخلافة أحمد ميكلص ٦٩

(٢) تاريخ الادب الأندلسي إحسان عباس ص ١١٩

ومن أهم خصائصه، يستثير في المسلمين النخوة الإسلامية والعاطفة الدينية فالقوم في الأندلس قد زالوا بعد عزوا واستعبدوا بعد سيادة ، وصاروا إلى ضياع بعد منعة وقوة إلى عف فتفرق شملهم .

ومن أهم خصائص الشعر الأندلسي ،الصدق الفني حين أفصح الشاعر عن مكنون نفسه في صراحة عن الحنين القوي إلى المدن والأحداث التي مرت بهم من حروب وظلم وترف وانغماس وعدم الاكتراث والاستعداد للعدو والفتنة وأحياناً بالحديث عن مصائب الدهر بالعظة والتأسي والتجلد والسلوان . فرسم الشعراء لوحات فنية صادقة في اعظم صورها و أبهى زينتها وانضر حللها .

إهتمام الشاعر الأندلسي بالتشخيص وروعة التصوير، فجاءت قصائدهم على نحو إنساني بديع تموج بالحركة والحياة والنشاط معظم قصائدهم في الوصف كانت تحمل الجانب السار الذي يدخل في النفس البهجة والانشراح وكانت العلاقة وطيدة قوية بين الوصف وجمال المرأة والطبيعة والخمر وأثرها في النفس . الإعتناء بالأوصاف ،لحسية وحياة لترف واللهو والمجون وشغفه بالزخرف اللفظي مما دفعه أن يعطينا صوراً مما يحسه .

الشاعر الأندلسي يهتم برسم الصور لكل ما وقعت عليه عينه من مشاهد الحياة فأجاد وأبدع وقد نمت في نفسه حسبه المرهف وذوقه السليم . ميل الشاعر إلى الغزل الحسي الذي يتحدث عن مفاتن المرأة إذ كان الشاعر يفتح بعض قصائده بالغزل التقليدي الخالي من توقد العطفة مقلداً بذلك شعراء العربية السابقين .

ومن مميزات الشاعر الأندلسي كان بعيد عن الغلو في مدائحه وكان يراعي الصدق الفني في بعض قصائده .

الصفات التي كانت مثله الأعلى في ممدوحه، هي الصفات نفسها التي عكف على ترديدها الشاعر العربي قديماً وحديثاً مثل الشجاعة والكرم وحماية الجار ولكن الشاعر الأندلسي أضفى على تلك الصفات روحاً من نفسه وذاته .

الشاعر الأندلسي في بعض قصائده أشبه بالرسالة التي تبدأ بالغزل او بالوصف ثم تعدد صفات الممدوح ثم يصف معركة حربية ثم يفخر بشعره و أخيراً يدعو

لأميره ألفاظه بصورة عامة جذلة قوية تناسب الغرض الذي فيه . وفي بعضها
سهلة رقيقة .

في بعض رثائه يتمثل الصدق واللوعة عميق الحزن تهتز له المشاعر
وتفيض له الدموع بينما جاءت دون ذلك في البعض الآخر .

الشعر الأندلسي في جملته يمتاز على الشعر العربي عامة بما فيه من المعاني
المبتكرة الجميلة التي كان يعالجها الشعراء بين الوصف والبديع والذوق الفني
والإبداع أساليب الخيال . ويرسم صورة من أحوال المجتمع وعاداته .



أشهر أعلامه

١- ابن دراج القسطلي

٣٤٧هـ - ٩٥٨م

ابن دراج القسطلبي ٣٤٧هـ - ٩٥٨هـ

حياته وشعره

حياته :-

في قسطلبة غرب الأندلس ولد أحمد بن محمد عيسى بن دراج وكنيته أبو عمر في سنة ٣٤٧هـ - ٩٥٨هـ في بيت رفيع الشأن من بيروت قسطلبة وكانت تنسب البلوة إلى جده الأعلى فيقال لها قسطلبة دراج . لأن أجداده ظلوا يتناوبون رياسها حنياً وتنتمي أسرته إلى صنهاجه البربرية (١) .

أما عن نشأته الأولى فيحوطها الضمر من الشديد إذ لم يتعرض لها المؤرخون من قريب أو بعيد غير إننا نرجح انه تنشأ نشأة أدبية وتزود بالثقافة التي تعينه على فرص الشعر من لغة وتاريخ ونحوه وكان ناثرة بالشعر الجاهلي والشعر الإسلامي قوياً وخصوصاً شعر مدرسة المحافظين ويبدو أن اعجابه ما بين هانئ وبالمتنبي كان أقوى ، لذلك تأثر بشعرهما تأثراً كبيراً . وعندما فاضت شاعريته ونضجت موهبته اراد الاتصال بالمنصور بن ابي عامر، لما بلغه عنه من تقديره للشعراء وعلى رأسهم صاعد الذي نال الخطوة عنده لعلمه وشعره فنظم قصيدة يعارض بها قصيدة صاعد لعلها تكون همزة الوصل بينه وبين المنصور

والتي يقول في مطلعها :-

عن الدنق المغني بحر هواها

أضاء لها فجر النهى فناهاها

وقد كان يهديها إلى دجاها (٢)

وضللها صبح جلا ليلة الدجي

ثم يصف فيها رحلته إلى الأمير وتركه الأهل والديار مع شيء من الغزل :-

والقت بربغ المكرمات عصاها

فحطت بمعنى الجود والمجد رحلها

بعيني الرضا حسب المنى وكفاها

لدى ملك أحدى لواحظ طرفه

سعى فتعالى جده فتناهى

هو الحاجب المنصور والملك الذي

(١) وفيات الاعيان ط١ ص ٢٧٢ .

(٢) جزوة المقتبس ص ١٠٢ والديوان ص ٣٦٣ .

ثم يضرب بنغمات شجية على قيثارة المرح ، فيخلع على المنصور من الصفات اعظمها لتستجمل قلبه ويستدر أريحته فيصفه بالسمو والعظمة والشجاعة والكرم وعراقه المحتد إلى غير ذلك من صفات جليلة يقدرها العربي بل يقدها .
ويبدو أن قصيدته قد أثارت من حوله الشكوك لحق الحاقدين إذا راوا في وصول ابن دراج إلى بلاط المنصور فطراً على منزلتهم عنده .

فرموا قصيدته بالسرقة وإنها منحولة من شعر غيره . فلما علم المنصور بهذا الإتهام ، صمم على اختبار ابن دراج ليتأكد من صدق ادعائهم حتى لا يوجد الرجل ظلاماً . فاستدعاه إلى مجلسه واقترح عليه النظم في عرض معين فنظم شعراً جيداً استولى على تقدير المنصور وملك عليه إعجابه . حينئذ تبين افتراء المدعين وحق الواشين وكافأه بمائة دينار وسجل اسمه في ديوان العطاء وكانت لهذه الحادثة الأثر القوي في تنمية مواهبه وثقافته . فكب ينهل من موارد الثقافة العربية ويحفظ من أشعارها ما وسعه إلى ذلك سبيلاً . ثم أكد شاعريته لدى الأمير بقصيدة أنشدها في مجلسه مطلعها :-

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا وعطف نعماك للحظ الذي انقلبنا
يا ملكاً أصبحت كفى وما مَلَكت ومهجتي وحياتي بعض ما و هبا (١)

ثم عقد مقارنة بينه وبين الشعراء الحاقدين ، فخياله خصب ونسيح بينما خيالهم سطحي وخمل ومن توقد ذهنه وقوة خياله استطاع أن يكتب شعراً ونثراً يفوق الحاقدين ونثرهم .

عبدك لنعماك في كفيه فجر هدى سار لمرحل يجلو الشك والريبا
أن شئت أملى بديع الشعر أو كتبا أو شئت خاطب بالمنتشور أو خطب
كروضة الحزن أهدى الوشي منظرها والماء والزهرة والأنوار والعشب
وبهذه القصيدة استولى على اعجاب المنصور وحبه وتقديره حتى أصبح من كبار شعراء بلاده وقد قلده منصب الكتابة في ديوان الإنشاء .

ونراه قد لازم المنصور في الحرب والسلم والرخاء والشده ويصور كل ذلك بغرر
قصائده لأنه نال الجاه والمال في بلاطه ومن مدائحه نوبته التي بدأها بقوله (١) :-

ما كفر نعماك عن شاني فيثنييني
ولا ثنائي وشكري بالوفاء بما
حق على النفس إن تبلى ولو فنيت
ها إنها ما زال في كوكبها
عن توالي لنصر الملك والدين
او لييتي دون بذل النفس يكفيني
في شكر أيسر ما اضحيت توليني
إليك في ظلمات الخطب يهديني

ونراه قد أحسى بعجز جسمان احال دون مشاركة المنصور في حروبه .

وحاش للخيل أن تزهى على بها
وربما كنت امضى في مكارمها
لكن سهام من الأقدار ما برحت
على مراصد ذلك الماء ترميني
والبيض والسمر أن تحظي بها دوني
قدماً واثبت في أهوالها الجون

ونراه في معظم قصائده كان يركز على افتتاحها على الشكوى من فراق الزوجة
والولد فان تعذر عليه ذلك افتتحتها بالغزل ، ثم يلح في كسب ثقة المنصور
واستمرار عاطفته ورضاه. ومدح ابن المنصور بعد وفاة والده ، ومدح كذلك
رجال الدولة العامرية ومنهم الوزير ابو تناقض حينما قتل هذا الوزير ايام عبد
الملك بتهمة انصرافه إلى الدولة الاموية فقد هاجمه بقصيدة يقول فيها :

شكراً لمن اعطاك ما أعطاك
ملك اذل لملك الاملاك

وحين شبت الفتنة بالأندلس بعد فترة الحجاب ، وحكم ، قرطبة وحين انتصر
المستعين ، ودخل قرطبة اقبل عليه الشاعر مهنتاً بهذا النصر لعله ينتشله من
عوزه وضياعه حيث قال :-

هنئياً لهذا الملك روح وريحان
فإن قعيد الخزي قد تل عرشه
وللدين والدنيا أمان وايمان
وإن أمير المؤمنين سليمان

غير أنه قد خاب ظنه وعاد من الأمير خالياً وإمام هذا الفشل قرر الشاعر الرحيل
وكتب إلى الأمير يستأذنه في ذلك . والأمير يقدم له مبلغاً من المال كي يمنعه من
الرحيل وقال في ذلك :-

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ
ما أوضح العذر لي لو انهم عذروا

حمر الحواصل لاماء ولا شجر
واجمل الصبر بي لو انهم صبروا (1)

شعره :-

وقف ابن دراج ديوانه على من المديح ، الأ من بعض الآثار القليلة التي تكاد تضيع في زحمة المديح فله قصيدتان في الغزل وثالثة في الاستهداء ، وبلغ درجة عالية من التفوق في المديح غير أنه مزجه بالصفة ، ومما دفعه إلى ذلك الظروف القاسية التي عاناها والفقر الشديد وكثرة العيال ضاعفت من حاجته إلى المال ، وفي ظل تلك الظروف حاول الاتصال ببلاط المنصور ، غير أن اعداءه حاولوا بينه وبين الوصول اليه فسدوا أمامه الطريق كي لا ينافس منزلتهم التي ينعون بها في ظل المنصور فما كان منه إلا أن عقد العزم على تدعيم مخزونه الثقافي بمدد جديد فسهر الليالي لينمي ثقافته ويوسع مداركه بقراءه اشعار السابقين وحفظ الكثير منها محاولاً التأسى بفجول الشعراء في ابراز المعنى وتوسيع الفكرة . ولكن وجد ان الطريقة الوحيدة للوصول إلى المال هو الاتصال ببلاط الحكام وذلك حين يقول :-

لما تدانت للوداع وقد هفا
تتأشديني عهد المودة والهوى
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت
فكل مغداه الترائب موضع
وطار جناح الشوق بي وهفت بها
بصبري منها انه وزفير
وفي المهد منعدم النداء صغر
له أزرع محفوفة ونحور
وكل محياه المحاسن ظير
جوانح من دعر الفراق تطير (1)

فالشاعر بدأ قصيدته بمناجاة زوجة مبرراً سفره بشتى الرسائل ومختلف المعازير . ثم يصور موقف الوداع الحزين بينه وبين زوجته وولده تصويراً حزيناً إذا الألم يعتصر قلب الزوجة فحين اقتربت منه تودعه صدرت منها زفرات حارة وأانات ملتهبة وأمام هذا المنظر المؤلم لم يتمالك الشاعر نفسه ولم يستطع السيطرة مع مشاعره ، فصدرت منه تأوهات ثم راحت زوجته تستحلفه بالله وبكل غال جمع

(1) ديوانه ص ١٢٦ .

(1) ديوانه ص ٢٠٦ .

بينهما من محبه ووفاء الأ يذهب ويتركهم للوحدة والاشجان ، ثم ينتقل إلى طفله الرضيع الذي يستلقى في مهده لا يعي ما يقول ولكنه بالحنان يرمقه نظره عتاب ولكنه ورغم ذلك تركه ومعنى وجاءت لحظة الوداع وما اقساها والشاعر قد نجح في ابراز تلك الصورة الفنية الحزينة .

أما صورة المديح ، فتتمثل في قصيدة مدح بها المنصور بن ابي عامر، والقصيدة في مقدمتها ، مديح ثم جنح الشاعر مرة أخرى إلى الوصف الحسي الممزوج بالاحساس النفسي للوداع والفراق .

ولله عزمي يوم ودعت نحوه
وربه خدر كالجمان دموعها
وبنت ثماني ما يزال يروعني
وموقفها والبين قد جد جده
تشكي جفاء الاقربين اذا النوى
واقسم جود العامري ليرجعن
نفوساً شجاني بثها وشجاها
عزيز على قلب شطوط نواها
على النائي تذكاري خفوق حشاها
منوطاً بحبلي عاتقي يداها
ترامت برحلي في البلاد فتاها
حفا بها من كان قبل جفاها (١)

فالمشهد الحسي نراه يتمثل في دموع الزوجة وتوسلاتها وتعلق طفلته به والنفوس في لوعة الفراق والأمة (٢) .

وابن دراج بهذا الكم الهائل من اشعاره ، نجده قد طرق جميع اغراض الشعر، وغاص في اغوار النفس الإنسانية وخلل المعاني وجمع بين اشتات اللغة و معانيها. فوصف في الخيل والرماح والطبول ووجد من ظلم الأيام وتعسفها ، فذاق حرارة الفرقة والشتات والبعد عن الأحبة والأهل . فضمن جهده الشعر والنثر في براعه وابداع مع جزاله اللفظ وفخامة العبارة وتطويها لاغراضه المختلفة، فجاءت قصائده تمثل الجودة في لغتها وموسيقاها وروحها و اخلاقها ، وحملت كلماته مشاعره الدفينة واحاسيسه الخفية. فجمع إلي جانب الوصف الداخلي للمشهد الوصف الحسي والاحساس النفسي في براعة وابداع وجوده .

(١) ديوان ابن دراج القسطنطي تحقيق د/ محمود مكي ط ١٩٦١م ص ٢١٢ .

(٢) انظر الشعر العربي في الأندلس كراتشكو فسكي ترجمة الدكتور محمد بند موسى القاهرة ص ١٢٦

- ابن شهيد

٣٥٠هـ - ٤٢٦م

أبو عامر أحمد بن عبد الملك

ابن شهيد ٣٥٠ - ٤٢٦ هـ

ابو عامر احمد بن عبد الملك

كان والده عبد الملك "ابو مروان" من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية ،
مقرباً عند المنصور بن ابي عامر، وقد استعمله المنصور والياً على الجهات
الشرقية، جهات بلنسية وتدمير، فبقي هناك تسعة أعوام ثم سئم العمل ، فكتب إلى
المنصور بذلك . وقد اعفاه المنصور من الخدمة حسب رغبته وقال إلى قرطبة
وقد اثرى إذ كان معه حين عودته اربعمائة الف دينار ومائة الف من الذهب
ومائتان من الرقيق ولم يحاسبه المنصور على هذا الثراء وكانت نفقته الشهرية من
القمح سبعين مدياً ومن الشعير ثمانين رابه.

وفي قرطبة أصبح ابو مروان من ندامى المنصور ومستشاريه. وكان من الناحية
الثقافية كثير الاهتمام بالتاريخ واللغة مع سعة رواية الحديث والآثار. وقد ألف
كتاب التاريخ في الاخبار . ورتبه على السنين بداية سنة اربعين وانتهت إلى
اخبار زمانه. اصيب بالنقرس في شيخوخته فاهدى اليه ابن ابي عامر محفة من
خيزران ليحمل بها. وكان في مجالس الإنس ويستخفه الطرب فيرقص إذا أخذ
منه الشراب ويرتجل الشعر ومما ارتجله قوله (١).

هاك شيخ قاده عذر لكما	نام في رقصته مستهاكاً
لم يطق يرقصها مستثنياً	فأثنى يرقصها مستمسكاً
عاقه من هزها معتدلاً	نقرس انمي عليه فاتكاً
أنا لو كنت كما تعرفني	قمت اجلالاً على رأس لكاً
قهقهة الابريق مني ضحكاً	ورأي رعشة رجلي فبكي

وفي شيخوخته كان قوي ، منطلق النفس في أهوائه ، الا أنه تتسك في اخريات
ايامه ، ثم ادركته منية حين اصابته ذبحة وقبيل وفاته كان المنصور قد نقله إلى
ضيعه النعمان ليكون قريباً منه .

(١) انظر برمجته من خلال الديوان ص ١٧ .

وفي الحي المسمى منيه المغيرة وفي الدار المعروفة بدار ابن النعمان ولد احمد بن عبد الملك وشهد عز أبيه في ظل العامرين وثرأهم وقصورهم وكان طفلاً شديداً الحساسة فانطبعت في ذاكرته منذ الصغر . فقد ظل يذكر كيف أنه دخل على المنصور وهو في الخامسة فرأى بين يديه نقاحة كبيرة فأخذ يتأملها تأمل الشره فأمر المنصور أن يأخذها ويأكلها . فلما أطبق على بعضها فمه لم يستطع أن يقطع منها شيئاً بل أن يده ضاقت عنها . فتناولها المنصور منه وأخذ يقطع له منها ويطعمه . ونجده قد شعر بفقدان عطف والده له إذ كان مشغولاً بمجالسة وبأمور الدولة أكثر من النظر إلى أبنائه .

ثم سلمه المنصور ، إلى من حمله إلى بيت المنصور ، حيث السيدة زوجة ولم ينسى ما استقبل به من حفاوة من النساء وكيف غمرته بالهدايا . وقدمت له زوج المنصور الف دينار من نفسها وثلاثة آلاف من زوجها وظن الطفل أنه جر التصرف فيما أهدي إليه لأنه يملكه . ولكنه ما كاد يعود إلى البيت حتى استولى أبوه على كل شيء فوزع منه ما وزع واستبقى منه ما شاء . وتلك حادثة اثرت في نفسه أحمد تائيراً عميقاً يشبه الحق ، ذلك لانه كان يرجو أن يشع رغبته من تلك الآلاف بشراء اللعب فحسب .

ومن قصيدة لم يبق منها الا مقدمتها الغزلية ، اصبح أمر قرطبة في يد بني جهور ٤٠٧هـ . غير انه واجهته بعض الخطوات والصعاب فقد ماله . فكتب إلى ابن حمود رسالة في صفة السجن والمسجون والحق بها قصيدة يمكن ان يستنتج منها أنه كان يعاني الضيق الشديد من الفقر والانحباس في السجن إذ يقول :-

فراق وسجن واشتياق ودله وجبار غلاظ على عتيد

فمن مبلغ الفتيان اني بعدهم مقيم بدار الظالمين وحيد

جمع بدار ساكنوها من الأذى قيام على جمرة الحمام قعود (١)

ثم يستعطف المعتلي بن حمود صاحب ملعة واشبيلية بقوله :-

وراضت صعابي سطوة علوية لها بارق نحو الندى ورعود

تقول التي من بينها خف مركب
فقلت امري إلى من سميت به
وفيا يقول مصرحاً بذكر المعتلي :-
إلى المعتلي عاليت همتي طالباً
ظمنت إلى صافي الهداء وطلقه
ومنها قوله يمدح المعتلي :-
غناك سقدك في ظل الصبا وسقى
صفته واخلاقه وثقافته :-

اقربك دان ام نواك بعيد
إلى المجد ابناء له وجدود
لكرمه إن الكريم يعود
فهل لي يوماً في رضاك ورود
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتقفاً

كان ابن شهيد اصم، وفي مرة كان ابن العباس يترنم بابيات من الشعر لم يسمع
ابن شهيد ما كان يقول واضطر ان يسأل احد الجماعة ليسمعه ما مان يترنم به،
وربما كان لصممه اثر بعيد في تكيف علاقاته بالناس وقد اشتهر بين معاصريه
بخلل اربع .

أولاً :-

ميله إلى النهو والبطالة قال الحجازي في وصفه كان الزم للكأس واولع بها من
خيال الواصل بالهجران (1) .

ثانياً :-

استرافه في الكرم ، حتى اشرف في نهاية حياته على الفقر ومن ذلك القصة التي
رواها صاحب المغربي عن رجل من طليطلة قصد ابا عامر فالقى اليه صنوف
الإكرام بل وهبه داراً في قرطبة ومركباً وخادماً وفرساً وثيره (2)

ثالثاً :-

عزه النفس وقد تنازل عن عزة النفس المصحوبة بالعجب في حالات اعساره وفي
ذلك يقول .

سنخ وغدت منه العلا تلبانها

والنفس نفس من شهيد سننخها

(1) المغربي ط ١ ص ٨٥ .

(2) نفس المصدر .

رابعاً :-

الفكاهة والميل إلى الهزل ، وقد كان محبباً إلى نفوس اصدقائه . يانسون بمجلسه ويفترقون من كرمه ويقضون الوقت في داره منتزهين في البساتين او متحدثين في جامع قرطبة على انه مع ذلك دائم التيرم من الزمان .

اما من ناحية ثقافته فلم تكن عميقة ولا واسعة الاطراف وقد قرأ وحفظ كثيراً من شعر المشاركة ونثرهم ، منهم بشارا وأبا نواس ، وابتا تمام ، والمتنبى وابن المقفئ والجاحظ وعند وفاته لم توجد له كتب ما عدا العليل .

شعره :-

كان متوقد القريحة وانفذ بصرأ في نقد الشعر . وكان تلميذاً للجاحظ وبتدبع الزمان . قد استطاع ان يفصل بين شعره ونقده ، عرف تطور الشعر وتقدمه ونقده . وانه سلك في شعره مسلكاً متوسطاً . انه قد عارض المحدثين كالبحتري وابن نواس ومالك اعجابه بالشعر الجاهلي وعمر بن ابي ربيعة - ولكنه كان قلقاً لببت المتنبى :

وأظماً فلا أبدى إلى الماء حاجة وللشمس فوق اليعملات لعاباً
فا عجب بالمتنبى وملاك عليه فكره واعجابه . (١)

وحيثما مرض ابن شهيد كتب إلى ابن حزم بابيات يذكر فيها اخوته وصدقائه ويطلب اليه ان يؤنبه ويشبع ذكره ويدعو له الله ان يغفر ذنبه (٢)

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي عليك سلام الله اني مفارق
فلا تنسى تاتيني اذا ما فقدتني فاجابه ابن حزم بقوله :-

ابا عامر ناديت لا مصافياً والمت قلباً مخلصاً لك ممحضاً
يُفديك من دُهم الخطوب الطوارق بؤدك موصول العرى والعلائق

(١) الجبوة ص ١٢٥ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

علته ووفاته :-

مرض ابن شهيد في ذي القعدة سنة ٤٢٥هـ^(١) ولازمه حتى قضى نحبه ومعنى ذلك انه ظل مريضاً سبعة اشهر كاملة قاسي فيها العذاب الشديد. يقول ابن بسام ان الفالج غلب عليه ولكنه لم يقض على حركته تماماً فكان تبكا على عصا مره واعتماداً على إنسان في اخرى وفي ايامه الأخيرة تعطلت حركته تماماً ولما بلغت به الأوجاع مبلغاً شديداً هم بقتل نفسه ثم اثر الرضى مقيضاً الله وفي ذلك يقول^(٢) :-

أنوح على نفسي وأندب نبلها . اذا انا في الضراء ازمعت قتلها

رضيت قضاء الله في كل حالة . على واحكاماً تيقنت عدلها^(٣)

وعلى ما اصاب جسمه من رهن بقي ذهنه متفتحاً وقريحته فوقه وان الشعر الذي صدر عنه في فترة المرض انما صدر عن نفسه يائسة متألمة وكتب إلى صديق له اسمه عمرو يقول :-

أقر السلام على الاصحاب اجمعهم . وخصّ عمراً بازكى نور تسليم

وقل له يا اعز الناس كلهم . شخصاً على واولاهم بتكريم^(٤)

وكتب اكتب إلى جماعة من اخوانه يقول^(٥) :-

هذا كتابي وكف الموت تزعجني . عن الحياة وفي قلبي لكم ذكر

إن اقضكم حكم من قلة عمري . اني إلى الله لاحق ولا عمر

وفي أبيات له تحدث اصدقائه الذين سيذكرونه بعد موته فقد كان يرتاح للذكر بعد الموت ، ثم وصف سطوه الموت نفسه وفي كل اشعاره تلمح هذه الأسس على فراق اصدقائه ، وموقفه خوف من الموت ولكنه يتجلد في الغالب واخر ما قاله مودعاً لأصدقائه :-

(١) انفتح ط ٢ ص ٨٠٦ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) جمهرة انساب العرب لابن حزم الطبعة الأولى تحقيق الاستاذ ليفي برد فنتسال ط دار المعارف بمصر ١٩٤٨ ص ٨٥

(٤) الزخيرة ١/١/٦٦ م

(٥) نفس المرجع والصفحة .

استودع الله اخواني وعشرتهم

وفتية كنجوم القذف ببرهم

الله يعلم اني ما افارقه

كنا البغين فان الدهر الفتنا

وكل خرق إلى العلياء سباق

يُهدي وصائبهم يُودي باحراق

الا وفي الصدر مني حر مشتاق

واي حر على صرف الردي باقي (١)

وقد اوصى قبل موته بهذه الوصايا أن يصلي عليه الرجل الصالح ابو عمر

الحصار فتغيب وصلى عليه جهور بن جهور ابو الحزم صاحب قرطبة. وان يثني

التراب عليه دون لبن او خشب ولم ينفذ هذا. وأن يدفن بجانب صديقه ابي الوليد

الزجالي (٢)

(١) نفس المصدر ٢٨٠/٢/١ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

٣- ابن حمدیس

٥٤٤٥ھ - ١٠٥٣م

حياته وشاعريته :-

ولد ابن حمديس الصقلي بجزيرة صقلية من جز البحر المتوسط عام ٤٤٧هـ وهي تحت سلطان ملوك الطوائف الا ان هذا السلطان كان جهوداً بالزوال محارباً بالخلافات الداخلية وكان الاوربيون يضمرون الشر للمسلمين. لذلك نجده لم تطب له الإقامة في وطنه، ولم يقر له قرار في بلاده، ولم يشعر ببرد الراحة في مسقط رأسه، وظل يترقب اللحظات التي تمكنه من الهجرة وتساعد على الرحلة، ويتحقق له فيها ان يكون في بلد اسلامي هادي يحتضن ادبه ويتعهد بنوعه ويرى ظمائه .

وكانت صقلية في هذا الوقت قد أغار عليها النرمانديون واخذوا بها من الفوضى والاضطراب ما يبغض العيش فيها والاطمئنان إلى جوارها. ففكر ان يرحل إلى اشبيلية ليعيش هناك في رحاب الشعر وفي دولة الأدب. وهي في ذلك الوقت في سلطان المعتمد بن عباد، الشاعر الناقد، صاحب الذوق الناضج والحس المرهف والقريحة الوقادة والقلب الكبير والعقل الواعي والرأي السديد ، الا انه لم يعرض نفسه عليه معرض السلعة، ولا ان يتقدم اليه. فظل في اول امره في اشبيلية اشبه بالهمة الحائرة والفكرة المنسبة لا يشعر به احد ولا يحس بوجوده انسان ولا يعرف قدره جاهل ولا متعلم. وفي هذه الفترة من الزمن سمع به المعتمد بن عباد فاستقدمه اليه وطلب ان يحضر بين يديه ولما التقى به واستقر به المجلس تجاذب معه اطراف الحديث من كل جانب .

فاستحسن المعتمد في ابن حمديس توقد ذهنه وحضور بديهته وخصوبة تفكيره وسعة خياله وذوقه واعتدال مزاجه . والمعتمدين عباد كان في الاندلس زهرة يانعة وورده فواحة ومنذ هذه اللحظة التي ابتدأت حياته بها في بلاط ابن عباد ابتدأ عهداً في تاريخه الأدبي ناصح البياض لامع الصفحات وذلك من حيث ذبوع ادبه واكتمال شاعريته .

كان شعره مرآة لحياته النفسية ومشاهداته واراته. أما اسلوبه ففيه الصيغة الفنية الشخصية التي تميز الشاعر. وشمل شعره جميع انواع الشعر واغراضه من

وصف ومدح وغزل ورتاء وشكوى. ومن المعاني التي وردت بخاطره جزيرة صقلية حيث يبكي فيها صباه، وتملى عليه ذكرياته الماضية كثيراً من الألام وأحياناً تذكره ما كان هناك من سرور. وكثيراً ما نجده يبكي وطنه لما حل به من المصائب ويمزج ذلك بذكر الشباب والشكوى على المشيب بقوله :-

ذكرت صقلية والاسى
ومنزله للتصابي خلّت
فان كنت اخرجت من فيه
ولولا ملوحة ماء البكاء
وقوله :-

يهيج للنفس تذكراها
وكان بنو الظرف عمارها
فاني احدث اخبارها
حيث دموعي انهارها (١).

ولو أن ارضى حره لا تيتها
ولكن ارضي كيف لي بفكاكها
امثلها في خاطري كل ساعة
ومن يك ابقي قلبه رسم منزل
بعزم بعد السير حريته لازب
من الأسر في ايدي العلوج الغواصب
وأمرى لا ذرف الدموع السواكب
تمني له بالجسم او به آيب (٢).

وقد أثر بن حمديس الهجرة (٣) على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده وكان لهذا اثر عظيم في نفسه وخياله الشعري حتى اصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدّره من الصدور المتقبضة، واستولى عليه اليأس بسبب هذه الحوادث فهاجر إلى اسبانيا ونزل باشبيلية دعّابين في حاشية المعتمد بن عباد. وسار في جملة شعرائه وتبعه في منفاه ولم يكن ابن حمديس معروفاً عند قدومه إلى اشبيلية فقال له إقمت لما قدمته اشبيلية على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلى ولا يعبا بي، واذا بليلة من الليالي اذا بسلام معه شمعه ومركوب، فقال لي اجب السلطان فركبت من فوري ودخلت عليه. فقال لي افتح الطاق التي تليك ففتحتها واذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه وواقدة تفتحها تارة فحين تاملتها قال لي اجز .

انظرهما في الظلام قد تجمعا فقلت
كما زنا في الدجنة الاسد

(١) ابن حمديس الصقلي لعلي مصطفى المراني ط دار مكتبة الفكر ليبيا ص ٢٢٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٥ .

(٣) بلاغة العرب في الأندلس ص ٩٥

فقال يفتح عينيه ثم يطبقها
 فقلت فعل امري في جفونه رمد
 واستحسن ذلك وأمر لي بجائزة. أما نفسه فنفس رجل رتبته الحوادث ونالت منه
 الايام وإذا قته مرها قبل حلوها فاخرج من وطنه فلما اضطر إلى الهجرة والنزول
 في غير اهله، فاظلمت الدنيا في وجهه، وكثر حنينه إلى بلده وصار ذلك من اظهر
 صفاته. وقد ظهر هذا في شعره حتى في الغزل والمدح والوصف وكان ميالا إلى
 ادراك الاشياء والمعاني، وكان دائم الشكوى من الزمان وكان كثير الكلام في
 الخمر ومجالسة مع شئ من المجون. وكان واكثر تاثره بالمعاني الاجتماعية وقد
 ابداع في شعر الحكم والألم النفسية التي كان يشعر^(١) بها فهو شاعر ناظم على
 الحياة وما فيها وذلك حين قال :-

قناة من الشمع مركوزة لها حربة حربة طبعت من لهب
 تحرق بالنار أحشأها فتدمع مقلتها بالذهب
 تمشي لنا نورها في الدجي كما يتمشى الرضى في الغضب^(٢).

لقد جالت بخاطره افكار كثيرة ون حوادث الحياة ونراه في جميع اغراض شعره
 جاد غير مازح في كلامه فشعره تبدو عليه الحيرة والالام فهو في مقدمة شعراء
 العرب المفكرين كثير التفكير في ظلمات الحياة وميلا إلى التأمل اكثر من التفكير
 والنظر في وجوهها فغلبت على شعره صفة التشاؤم وذلك لان نفسه كانت
 مريضة.

وما اجمل حزنه الشعري وذلك حين قال :-

يا ذنوني ثقلت والله ظهري بان عذري فكيف يقبل عذري
 كلما تبت ساعه عدت اخرى لضروب من سوء فعلي وهجري
 وانا حيث سرت اكل رزقي غير ان الزمان ياكل عمري

وقد تتلون أغراض الشعر عند ابن حمديس واحياناً يقلب عليه زهد ابي العتاهية
 فهو شاعر مجدد له طريقته في التصوير والتعبير والإبداع.

(١) انظر ابن حمديس الصقلي ص ١٢٠.

(٢) النديان ج ١ ص ٣٤

٤- ابن وهبون المرسي

٤١٠هـ - ٤٧٦م

ابن وهبون المرسي ٤١٠ - ٤٧٦ هـ :-

ولد عبد الجليل بن وهبون المرسي بكورة " تدمير " وبها قضى طفولته وشبابه
وعلى اسانذتها وعلماؤها نال قسطاً وافراً من الأدب والعلم .

والمصادر المختلفة نجدها قد اغفلت ذكر تاريخ مولده كما اغفلت التحدث عن
اسرته . وهذا ليس بالغريب فمعظم الشعراء والأدباء الموهبون يصبحون كما
مهملاً ولا يهتم بهم أحد وليس هذا بالمهم فقيماً قال المتنبي .

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجودي^(١)

وشاعرنا ينطبق عليه هذا لذا اهمله المؤرخون كما اهملوا اسرته ولم يتذكره
التاريخ الا حين طرأ على اشبيلية منتحلاً للطب واتصل بالاستاذ ابو الحاج الاعلم
المشتمري ٤١٠ هـ - ٤٧٦ هـ الذي كان زعيم البلد واستاذ ابناء المعتمد .

كما اتصل بابن عمار وتوطدت بينهما أوامر الالفة والصدقة إلى بلاطه وطلب
منه ان يذكره عند المعتمد ويهيئ له فرصة الوصول إلى بلاطه يسمعه شعره فينال
الخطوة عنده فنجح في ذلك ايما نجاح ، حفظ له هذا الصيغ ونوه بذكره وشعره
وعرفه بالمعتمد حتى استخلصه لنفسه واحضره مجالسة أنه^(٢) .

وظلت بينهما روابط متصلة يدعمها الحب والود والعرفان ومن مظاهر اعتراف
ابن وهبون لابن عمار باياديه عليه انه مرحة بغرر قصائده منها بأبيته التي اضفي
عليه فيها من المجد والسؤدد والشجاعة والحنكة والسياسة ما يندر ان تجتمع الا
في وزير مثله .

لولا ابن عمار وفاضل سعيه لا صبح ربع المجد وهو خراب
ما كان يؤتي المجد من حيث يبتقي ولا كان يدري للحوادث باب
ولا أحرقت ارض العدو صواعق ولا مطرت ارض العفاه سحاب
وما كان هارون اصح وزارة لموسى وهل دون السحاب حجاب^(٣)
وبعد أن وصفه بالمهابة والمنزلة الساقية في جده وهزله وصف كلامه يقوله :-

(١) انظر ديوانه شرح ابي البقاء العسكري تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الايباري و عبد الحفيظ شعبي مطبعة مصطفى البابي

الحلبي القاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ص ١٩٥ .

(٢) الذخيرة ١/٢/٤٧٤ هـ .

(٣) تلاند العقبان ص ٢٧٨ .

رقيق كما غنت حمامه أيقة وجزل كما شقّ الهواء عقابُ

هذه الصلة الوثيقة التي جمعت بين الرجلين جعلت ابن عمار يشهد لابن وهبون ما لتفوق في شعره حتى وافته منيته حيث قبض عليه في يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الآخر عام ٤٧٧هـ وجرى به إلى قرطبة في ٦ رجب عام ٤٧٧هـ ثم قتله المعتمد لمجرد خلاف مصل بينهما (١)

ولكن ابن وهبون رثاه بيت واحد بينما لم يرقه احد غيره وهذا البيت يقول فيه:-

عجياً لمن ابكيه ملء مدامعي وأقول لا شلت يمين القائل (٢)

وكان الجبن الذي يسيطر على عامة الشعب ومنهم الشعراء هو الذي دفع بشاعر كإبن وهبون أن يبخل على صديق عمره ومن له أياد عليه بمرتبه واحدة عليها تعادل قصيدة واحدة من قصائد المديح التي مدحه بها في حياته حين كان الحاكم راضياً عليه .

ولعله لم يستطع المجاهره برأيه فوقاً من بطشه بل اظهر خلاف ما يطبق خدعاً للمعتمد في الشعر الاخير بسلامة اليد وكانت تربطه بالمعتمد وأبنائه صلوات وثيقة ومنافع متبادلة مدحهم فنال منهم العطاء الجزل وكان شعره تاريخياً لغزواتهم الحربية.

وكان شعره نتاج شخصي واجتماعي وإنساني فالشخصية الفنية محكومة بعوامل تأتيها من الخارج من المجتمع الذي تتفاعل معه ومن التاريخ الذي يكون نموها ومن العقل الذي يوجه الشاعر فهو متحد بكل المؤثرات التي تدخل عالم الشخصية وتسهم في تكوينها .

ولنظر إلى ذلك الوفاء والإخلاص والصدق على كرم الطبع والعلاقة الوثيقة

والعرفان . الذي عهد به اميره سيف الدولة انه المتنبى سيد الكلمة حين قال :-

مررت على دار الحبيب فحممت جيايدي وهل تشجو الجيايد المعاهد

فلا تعجبا ان السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة إليوم واحد (٣)

(١) الاحاظة ط ٢ ص ٤٩٤

(٢) الحلة السيرة لابي الابرار القضاعي تحقيق دوزي ط لين ١٨٥١ م ط ٢ ص ١٦٠ .

(٣) ذكرى ابي الطيب بعد الف عام . عيد الوهاب عزام دار المعارف عبر ط ١٩٦٨ م ص ١٥٦

أنه يحن إلى لقاء أميره وله مواطن ذكرى عزيزة علقت بقلبه حتى جواده يحن إليه
وهذا يدل على التصاق الشاعر بفرسه .

وهو القائل :-

وما لاقني بلد بعدكم ولا اعتضت من رب نعماي رباً
وإني لا تبع تذكره صلاه الاله وسعي الحسب
لقد صرح في صدق أنه لم يجد بعد رحيله عوضاً له :-

احب الشاعر اميرة حياً وجدانياً صادقاً صدق كلماته فكان شعره سلاماً امضى من
سلاح اميره (١).

ثم اخذ ضارباً على أوتار قيثارته يشكو الضياع والاحساس بالاخفاق (٢) :-

اني لفي دهر فرائس اسده سدى عبثت فيه نيوب كلاب
اخذني على الايام غر منا قبي وقد بز شأوي شاو كل تقاب
ويركبني رسم الخمول وقد غدت خصال العلا والمجد طوع ركابي
ساترضى بهماتي قصار مراتبي وان كان أدناها يطيل طلابي .

انه يحمل على دهر رفع من قوز الخامل واحط من شأن النابه ، ان مناقبه فيه
قضت مشهوده انه يسعى لينال بالمجد وكلما ضاقت به الدنيا هتف قائلاً :-

تزامت الهموم خلال صدري فما تركت لأنفاسي مجالا
وما خلت النسيم يكون تقلا ولا نفحاته تاتي وبالا
كأني كلما استنشقت منه ارد به إلى كبدي نصالا
وكيف يصح ذو قلب أبي اذا كان الإباء له تكالا
مضى ماء الشبيبة في الأماني ومن ولي فما يرجو اقتبالاً (٣)

من هذا المنطلق وهو الإحساس بجور الزمان عليه رغم مما يتمتع به من قدم في

الفضل راسخة يشهد على ذلك أطراف الاسنة بشجاعته ونبوغة قال في ذلك :

لتعلم اطراف الاسنة أنني كفيل بها عند العدا بشراب

(١) الأسن الفنية للإبداع في الشعر خاصة د. مصطفى سويط ط المعارف مصر ١٩٥٩م ص ٢٤٥

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) الذخيرة ١/٢م ٩٨

وليس ندعي غير أبيض صارم وليس سميري غير شخصي كتاب (١)
أما غزله فتقليدي ومن الحسي المكشوف والصفات التي وصف بها محبوبته هي
الصفات القديمة التي توارثها الشعراء خلفاً عن السلف مثل تشبيهه القد بالغصن
والعيون بالرشا والريم .

لولا تبسم ذاك الظلم والبرد
واين بي وبصبري عن جفون رشا
يعدي على اللوم قلبي وهي تالمه
الزهـد :-

قبلت نصحك الا في هوى القيد
غوامض السحر لا ينفثن في العقد
كما تضر كميأ شكه الزرد

وحين تقدمت به السن وخطه الشيب والوقار تأسف على أيام شبابه وليالي اللهو
والصبوة فقال ابن وهبون في ذلك :-

طوعي الزمان ليلات نعمت بها
وقائل الله ادوار السنين فكم
لم يرسم الشيب في فودي خطته
للدهر عندي نبات من تجاربه

رنا بعين الرضا منها لم يلد
مزجن بالسقم ما أحلولي من الشهد
الا ترحلت اللذات من خلدي
أولى واجدر بي من بيضها الخرد

ولا يخفي علينا ما في الالبيات من رنات الأسس واللوعة على فوات الشباب
وانقضاء اللذات مع ما يبدو فيها من تصنع الجزع لحلول المشيب والاعتراف بما
ياتي به ذكر الليالي عن الايام من خبرات وتجارب .

ويبدو ان ابن وهبون قد خدع كثيراً بمظهر الناس فاخلص لهم وتفانى في خدمتهم
ومشاركتهم وشدائدهم ولكنه الا صدم في صداقتهم لانه لم ينل منهم إلا الغدر
والخيانة فهو القائل :-

وإني لفي دهر فرائس اسده
سرى عبث فيها نيوب كلاب
وفاته :-

مات ابن وهبون اثر حادثة قاسية قبل وصوله إلى مرسيه وفي ظروف غامضة
عام ٤٦٤هـ (٢)

(١) نفس المصدر ص ٢٠٥ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي أحسان عباس ط٦ دار الثقافة ١٩٨١م

٥- أحمد بن عبد ربه

٢٤٦هـ - ٣٢٨هـ

احمد بن عبد ربه ٢٤٦هـ - ٣٢٨هـ

نشأ فقيراً خاملاً طلب العلم على شيوخ عصره في جامع المدينة ومن أهم شيوخه. بقي بن مخلد وابن وضاح الخشبي وابن مخلد. كان ذا فضل كبير على الثقافة الأندلسية ، وذلك لكثرة علمه وكثرة تواليغه. ادخل إلى الأندلس كثيراً من كتب المشاركة ، كمصنف ابن أبي شيبة وفقه الشافعي وسيره عمر وغيرها من المؤلفات الأخرى أما ابن وضاح فإنه كان عالماً بالحديث بعيداً بطرقه وأما الخشبي فإنه اخذ الكثير من كتب اللغة ورواية الأصمعي وادخل إلى بغداد كثيراً من الشعر الجاهلي وروايته لذلك نجد ان عبد ربه قد تلقى ثقافة عالية تشمل كتاب الفقه واللغة والأخبار ومعرض هذا كتاب العقد الفريد .

وقد اكتسب ابن عبد ربه بعلمه أولاً وبشعره ثانياً مكانة كبيرة بين علماء الأندلس وأدبائها وفي بلاط أمرائها. كان مغرماً بالشعر والغناء أما الخمر فلم يرد انه كان يشربها ولو انه قد أكثر من ذكرها في شعره وعند تويته في كده كان امرت إلى الاتزان من الانطلاق فقد اورثته ثقافته نظره محافظة^(١) متشردة .

كان ذا صلبة بمسلم بن احمد بن ابي عبيدة الليثي الذي كان عالماً بالحساب والنجوم .

وعلى الرغم مما بلغه من مكانة فقد كان فيما يبدو حاد الطبع سريعاً إلى الهجاء متبرماً بالناس كثير الشكوى من الزمان سئ الظن بالمجتمع ، واذا عاد صديقاً اندفع في هجائه. وقصته مع القلظاط الشاعر الذي كان من اقرب اصدقائه قد تصور حدته وسلطه لسانه اذا هجا. كتب اليه محمد بن عبيد الله بن ابي عبده الليثي مقارضات شعرية^(٢).

كتب اليه ابن ابي عبده يقول :-

اعدها في تصابيها جزاعا فقد قُضيت خواتمها نزاعا
قلوبٌ يستحقُّ بها التصابي اذا سُكبت لها طارت شعاعا

(١) تاريخ الأدب الأندلس عصره سيادة قرطبة للدكتور استاذ عباس المكتبة الازلية دار الثقافة بيروت لبنان ط٢ ص١٨٤

(٢) جزوة المقتبس للحمدي تحقيق الاستاذ محمد تاويت النجي. القاهرة ١٩٥٢م ص٦٢

ومرة أرسل صديق له انابيب من قصب السكر فكتب ابن عبد ربه اليه مرفقاً
قصيدته بهديه (١)

بعثت يا سيدي حلوُ الانابيب عذبَ المذاقة مُخضر الجلابيب

وابن عبد ربه كما يبدو شخصية واضحة المعالم من ناحية علمه واديه وخلقه
وسلوكة ، وفي اثاره العلمية والادبية التي تركها بين يدي الدارسين والمؤرخين
والمثاقبين . وهذه الآثار تتمثل في شعره ومكانته تأتي في الصدارة رغم ان
الدارسين المحدثين لم يعنوا به وربما كان السبب في ذلك هو ضياع شعر الاديب
الكبير الذي كان مجموعة فيما يذكر الحميدي نيفاً وعشرين جزءاً هي جملة ما
جمعه الأدباء من شعره للحكم المستنصر الذي فتن بالكتب فانشا مكتبة فريدة في
ترتيبها وثيقها بين مكاتب ذلك الزمان (٢) .

وقد تواترت الأخبار الأدبية وخاصة عند ابن بسام صاحب الذخيرة ان احمد بن
عبد ربه هو أول من أنشا الموشحات وان لم يأت لنا بنموذج واحد من موشحاته (٣)
وان ما وصل الينا من شعر ابن عبد ربه يترجم عن نفس شاعره رقيقه شفافه
متملكة نواصي الشعر واسبابه ومن روائع شعره والتي يقول يا قوت انها من شعره
السائر (٤) .

هذا ان البيتان الساحران اللذان تأثر بهما ابن زيدون حين كان يبكي حبه لولاده
بنت المستكفي مغترباً في البلاد ضارباً في مشارقه الارض ومضاربها . ومن
روائع شعره :-

الجسم في بلد والروح في بلد يا وحشة الروح بل يا غربه الحسد .
ان تبك عيناك لي يا من كلفت به من رحمة فهما سهمان في كبدي
هذان البيتان حفظهما الملوان وقد وردا في موضع اخر من الرسالة وذلك لروعة
الابداع والافتتان بالكلمات . تماثل كل من اکتوى بنار الغربة وذاق مرارة الحرمان
بعيد عن الأهل والرفاق والأحباب وحقاً قد تكون الروح في بلد والجسم في بلد

(١) نفس المصدر ص ٢٧٦ .

(٢) مناهج التأليف عند العلماء العرب د . مصطفى الشكعة بيروت لبنان ١٩٨٩م ط ٢ ص ٢٩٥ .

(٣) الزخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام السنقريني ط ١ ص ٨١ .

(٤) مطمح الإنس ص ٥٢ ومعجم الأدباء ع/ ٢١٦ .

فتلقى الروح وحشتها ويلقي الجسد غربته وتحترق سهام الجوي تلك الروح
الظامنة للعودة ولكن رحمة السماء واسعة ان تكمل المسعى بالنجاح وتتعم الأنفس
بحلاوة القاء .

وللمتنبى في شعر ابن عبد ربه راي جميل واعجاب باد وكان يطلق على احمد بن
عبد ربه مليح الأندلس وهو بهذا اللقب جدير والفتح بن خاقان صاحب المطمع
وقلائد العقيان (١) .

يذكر ان الخطيب ابا الوليد بن عباد مر على قصر في طريق عودته بعد اداء
فريضة الحج وتطلع إلى لقاء المتنبى وكان اذ زال في مصر فصار اليه حيث كان
جالساً فأنشده .

بليت عظامك والأسى يتجدد والصبر ينفذ والبكا لا ينفذ
يا غائباً لا يرتجي لإيابه ولقائه دون القيامة موعد
بالياس اسلو عنك لا بتجلدي هيهات اين من الحزين تجلد
وأكبداً قد تقطعت كبدي وحرقتها لواعج الكمد
مامات حي لميت اسفاً اعذر من والد إلى ولد (٢)

أنها عاطفة الأبوة المفجوعة بفقد الابناء والأهل وقد ظهرت هذه العاطفة بشكل
لموس عند الكثير من الشعراء الذين فقدوا ابناءهم انها العاطفة التي تؤذن بالجزع
حينما تنهار كل مقومات السائدة في النفس البشرية فلا تملك الا الاستسلام . ان
اساه وحرزته يتجدد بين الحين والآخر انه قد غاب عنه بلا رجعة فهو يتمنى ان
يضمه القبر بدلاً عن ابنه فكبده قد تقطعت حزناً فعاطفه الشاعر في هذه الابيات قد
تما سكت وظهر هذا التماسك من خلال وعي كافي وفر للقصيد وحده متزنة في
المشاعر والأحاسيس .

يقول في وصف المعارك :-

يديرونها راحاً من الراح بينهم بيض رقاق او بسمر ذوابل

(١) قلائد العقيان ومطمع الأنفس للفتح بن خاقان . ص ٢١٦ .

(٢) العقد الفرید لاحمد بن عبد ربه ص ٢٥٠ - ٢٥٣ .

وتسمعهم ام المنية وسطها غناء سهيل البيض تحت المناصل^(١)

و أشاد به الدكتور مصطفى الشكعة وفضله على المتنبى بقوله :-

لقد وصف ابن عبد ربه الحرب قبل وصف المتنبى لها فقال من جملة قصيدة هذه الأبيات وأنه يستعمل الصيغ النحوية في شعره من لا يفسد بها شعره كما فعل المتنبى بعد ذلك تقليداً له فلم يحسن التقليد^(٢).

أضحى لك التدبير مطرداً مثل اطراد الفعل للاسم

رفع العدو إليك ناظرة فراك مطلعاً مع النجم

وجاء بيت المتنبى الذي يقوله فيه :-

إذا كان ما تتويه فعلاً مضارعاً مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم^(٣)

لا بد ان نتامل لشاعر الخيل والليل ونصفه في مصافي الشعراء فالمتنبى قد حظى باهتمام كبير من النقاد القدماء والمحدثين وبخاصة الذين عاصروه وكانت علاقته بهم يشوبها الرضا حيناً ، وذلك لمن وقف بجانبه بناصره ويثني عليه ويرفع من قدره، وحيناً نجد من حط من قدره وانكر عليه شعره ولم يثبت فضله ، ومنهم من اتخذ موقفاً وسطاً فقد انكروه مرة وانصفوه مرة اخرى بعد ان تبين لهم فضله وعلو شأنه . فعلاقته مع الطبقة الأخيرة كانت مجاراة لاحداث جمعت بين السخط والرضا وأن دل ذلك انما يدل على عظمة ذلك الرجل وحظه من الإبداع وعلو شأنه بين معاصريه ، فهو صاحب حركة شعرية متدفقة لا تقيم وزناً لكثير من قيود اللغة وقوالها فادهش بشعره الجميع وشغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأعين وكثر الناسخ لشعره القائض في بحره واستطاع المتنبى ان يكسب انصاراً ومؤيدين لكن وكان له من الخصوم ما اثقل كاهله .

ومن خصومه ابو فراس الحمداني ابن عم الأمير وابن سكره الهاشمي وابن الحجاج وابن لنك والصاحب بن عباد في الكشف عن مساوي المتنبى وممن جاء بعدهم . كالعبيدي زايد خلدون في مقدمته.

(١) معجم الادباء ط٤ ص ٢١٦ انظر ديوان المتنبى تحقيق عبد الوهاب عزام ط١ القاهرة ١٩٤٤ م .

(٢) نتيجة الدهر للتعالبي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ص ٧٥ ط ٢

(٣) ومناهج التأليف الأبيي للدكتور مصطفى الشكعة ص ٤٤٦ .

ومن انصاره العقاد بمقالاته في الهلال وعبد الوهاب عزام في ذكرابي الطيب الف عام و صدق ابن رشيد القيرواني في قوله ملاً الدنيا وشغل الناس ومن قوله يصف جيش سيف الدولة :-

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وامه

وما يفهم الحداث الا التراجم

وقفت وما في الموت شك لواقف

كانك في جفن الردي وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمي هزيمة

ووجهك وضاح وثغرك باسم

إيقاع حماسي وبطولة فذة حوت المعركة وقوع الطبول وفخامة الجيش واختلاف هوياته ولغات جنوده والأبطال جرحى والأمير باسم الثغر بتدبيره الحكيم ورأيه المؤزر .

وما أظن ان المتنبى تمتديده لفتات غيره من الشعراء حتى يقلدهم ولم يحسن التقليد ولو ان الفرق شاسع في المعنى بين البيتين والمناسبة والحدث . فلسنا نرى في قوله ما يستحق اللوم فنجده يستخدم المعاني المتداولة بين عصره يكسوها ثوباً من عنده فتبرز صورة صادقة لنفسه وبواعثه .

واهم مؤلفات ابن عبد ربه كتابة العقد الفريد هذا الكتاب من تسميته الناعمة جمع واقع الأدب مع خيال الشاعر ونجده قد تصدر كل باب جوهرة من جواهر العقد في جيد الحسناء وجيد الحسناء يتكون من خمسة وعشرين خبة لكل منها اسم في اللغة وقد مضى في تأليفه سنوات طويلة نلتمس في صاحبه منهم العالم وذكاء الأديب .

الفصل الرابع

دور المرأة في الشعر الأندلس

١ - الشاعرات الحرائر

وأكبت نهضة الشعر الأندلسي كوكبة من النساء الشاعرات على إختلاف بيئتهن
وبلاذهن وعصورهن وتجديد فنونهن .

لذلك وددت أن أقدم المرأة الأندلسية الشاعرة من مجتمعا وبيئتها وهل هي حرة
أم قينة وافدة أم مملوكة وذلك لما لها من دور فعال في إثراء الحصيصة اللغوية
والإبداع الفني في مجال الأدب .

فالشاعرة الحرة قد مزقت غلالة الحياء وصرحت بالغزل الصريح والصبابة
وبصوت عال ومسموع كما نجد عند الأميرة أم الكرام بنت المعتصم والتي هي
من بيت صمادح وولادة بنت المستكفي تلك التي ملأ بن زيدون الدنيا بغنائها
تغريدا وهديلا وترديدا . ففي شعرها عمق ومن قولها تمكن ، رقيقة في الغزل
فاحشة في الهجاء وكذلك مهجة القرطبية تلميذة ولادة وصديقتها تلك التي قلبت
عليها ظهر المجن وهجتها هجاء نال من عفتها .

وبعضهن كن مؤدبات أمثال حفصة الركونية التي كانت مؤدبة لنساء عبد المؤمن
بن علي كما مر بنا كما وأنها وقعت في حب وزير أبي جعفر ووصفت جمالها في
جراة بقولها هي ري الظامي وواحة المقبل ، فالشاعرات الحرائر عشن في
قصور الترف والنعيم وتأدين على أيدي الأدياء والأديبات وكانت لهن منتديات
يتبارين فيها بقول الشعر والنقد كما إتصف بعضهن بالعفة والعقل .

أما الشاعرات القياني الوافدات فقد وفدن من بلدان مختلفة وليس صورة البيئة
الأندلسية فهن أكثر حظا من الشاعرات الإماء أمثال الشاعرة قمر تلك التي عاشت
في إشبيلية ووفدت من المشرق فأستقر بها المقام في قصر إبراهيم بن الحاج
فأنشدت الشعر الرقيق وتغنت بأعذب الألحان فأدبها أدب قياني لا أدب حرائر
فالقينة يبدو على شعرها الصنعة والتكلف وذلك لإرضاء مملوكها وأعذب المدح
أكذبه فهذه أكثر حظا من الشاعرة الأمة فربما تطاول الأزمان وتمكن الإستقرار
يطفي عليها جرة الحنين إلي موطنها .

أما شعر الإماء :-

فهو أقل شعرا من شعر الحرائر والواقفات وذلك لأن بعضهن مجهولات الأزمان والأخبار والبلدان كذلك قد نشأن في وحدة وعزلة مع إنعدام الرفيق فالشاعرة الأمة محدودة الحركة مع عدم الغاية في التجديد والإبتكار إذا قيست بسابقتها

وهناك نخبة نسوية فأصحاب الأخبار لم يرووا لهن شعرا أو روا لهن بيتين أو ثلاثة أبيات ف شعرهن مقل ومنهن أيضا الكاتبة والعالمة والناقدة والمعلمة والمؤدبة وجميعهن يمثلن المظهر المعرفي للمرأة الأندلسية المتقفة .

ولادة بنت المستكفي شاعرة قرطبة والأندلس

نسبها: هي ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله الذي ثار على المستظهر وإستقل بأمر قرطبة عام ٤١٤ هـ . وكانت ولايته ستة أشهر وأياماً^(١) وورد في بن زيدون أن عصره وحياته وأن مدة خلافته ستة عشر شهرا خلعة بعدها أهل قرطبة ورجع الأمر إلي المعتلي عام ٤١٦ هـ ففر المستكفي إلي ناحية الثغر ومات بأقلش . وقد عرف بالبطالة والجهالة عاقل من كل صنعة وفضيلة وكان مشهورا بالشرب سقيم السر والعلانية وفي أيامه كثر الفساد والخراب والدمار وكانت ولادة تنتظر موت أبيها حتى يخلو لها الجو^(٢).

توفيت عام ٤٨٤ هـ ويقول صاحب الذخيرة أنها عمرت طويلا حتى شارفت الثمانين فهي إذن قد ولدت عام ٤٠٤ هـ وماتت بعد أبيها بما يقارب السبعين عاما إذ أن المستكفي مات عام ٤١٦ هـ^(٣).

شهرتها :- كانت ولادة في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حسن منظر وحلاوة مورد ومصدر وكان مجلسها بقرطبة منتدى الأحرار وفناؤها ملعبا يتبارى فيه الشعراء والأدباء بفنون الأدب :-

وصف ابن زيدون لها :-

كانت بيضاء البشرة ذات شعر أشقر ولها بنت سكري المورويه الجارية الشريفة التي إستبدت بالمستكفي وقد كانت خبيثة^(٤) وقد ورد في نصح الطيب للمقري خلافا لذلك عن سيرتها فذكرها بأنها (كانت واحدة زمانها المشار إليها في أوانها حسنة المحاضرة مشكورة المذاكرة وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف وجاء من أخبارها بأنها بنت الخليفة المستكفي وكانت فتاة أدبية ذات جمال وجاء وعلى قدر كبير من المعرفة والأدب وقرض الشعر .)^(٥) وصفها ابن بسام في

(١) الرخيرة جـ ١ ص ٢٨٠

(٢) ابن زيدون د. شوقي ضيف ، سلسلة نوابغ الفكر دار المعارف القاهرة ص ١٦ .

(٣) نصح الطيب في غمض الأندلس الرطب لأحمد بن محمد المقري التلسان . تحقيق الشيخ محمد عني الدين (دار الكتاب العربي بيروت ص ٢١٦)

(٤) ابن زيدون لشوقي ضيف ص ١٩ .

(٥) المختار من الشعر الأندلسي ، محمد رضوان . دار الفكر المعاصر بيروت ص ٧٥

الذخيرة بالطهر والعفاف ثم يقول ، على أنها سمح الله لها وتغمد ذلك أطرحت
التحصيل وأوجدت إلي القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها كتب
على أحد عاتقها

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتبه تيهها

وكتبت على الجانب الآخر:-

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلي من يشتهيها

اختلفت الآراء حول نسب ولادة وسيرتها فمنهم من وصفها بالطهر والعفاف
ومنهم من ربط نسبها بنسب والدها الخامل العاطل . وأيا كان الأمر فما يهمننا هو
أدبها وذاك النتاج الفني المتميز الذي توج ناصية الأدب حينما إرتبط ابن زيدون
بحبها وبذلك أصبح للشعر طابعا ولونا خاصا وللدارسين شغفا لمواصلة مسيرة
البحث عن تلك السعادة التي لم يكتب لها الخلود . وأيا كان الأمر فهذا ديدن
الموهوبين من الشعراء فلهم من ينصفهم ومن يتحامل عليهم و من يبين عن
موضع ذلاتهم . وولادة شاعرة أهل زمانها وذلك لما نالته من شهرة عالية في
مجال الأدب فقد فتن بها الشعراء الوزراء واستهوت أخبارها العقل واللب متابعة
ودرسا وجمال الحياء فيها تضيفية على مظاهرها من حب وتآلف ووداً وتعاطف ،
فقد أدركت مظاهر الجمال وهذه طبيعة المرأة المرهفة الإحساس .

فهي القائلة :-

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود

جرح يجرح فأجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود⁽¹⁾

وورد في نفع الطيب (عن تعليق ابن نباتة على هذين البيتين وأنه يشك في
صحتها لولادة وربما كان لشاعر وليس لشاعرة .) فمن الناحية الفنية أن ولادة
إمرأة وإذا صح أن يجرح لحظ الرجل حشا المرأة فلا يصح أن يجرح لحظها خده
فإن لحظ الرجل يظهر أثره على خد المرأة فيحمر خجلا ويتورد حياء ولا

(1) أنظر الشعر المرثي في الأندلس كراتشكر فسكي ترجمة الدكتور محمد منير مرسى - القاهرة ١٩٧١ م ص ٨٥ .

ونسب العماد الأسفهانى في كتابه (خريدة القصر) هذين البيتين لشاعر فاطمي هو محمد بن علي الفاشي من شعراء الصعيد توفي عام ٥٤٧هـ .

يوصف خد الرجل بذلك . فهو خليق بأن يكون شعر رجل قاله في محبوبته وليس
لإمرأة .

ابن زيدون وولادة :-

ارتبط اسم ابن زيدون بولادة التي وهبته الحب الوفير من الود فنظم فيها
درر المعاني ووصف أول لقاء لهما فقال :-

لما قدر اللقاء وساعد القضاء كتبت إلي :-

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما ادجي وبالنجم لم يسر^(١)

ويلتقي ابن زيدون بولادة شاعرة الأندلس وأميرتها الجميلة وما يكادان يفترقان
وتبتعد ولادة عنه حتى يقول معبرا عن ذلك :-

ودع الصبر محباً ودعك ذائع من سره ما استودعك

يقرع السنّ على إن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك

يا أبا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أرجعك

أن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك^(٢)

ويتتابع هذا اللقاء في حداثق قرطبة ذات الأزهار الندية وحدث أن فارق ابن
زيدون محبوبته إلي حين .

فكتبت إليه :-

ألا هل لنا من بعد هذا التفريق سبيل فيشكو كل صب بما لقي

وقد كنت أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق

فكيف وقد أمسيت في حالة قطعة لقد عجل المقدور ما كنت إتقي

تمر الليالي لا أرى اليبين ينقضي لا الصبر من ريق التشوق معتقي

سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الويل مغدق^(٣)

(١) ديوان ابن زيدون تحقيق علي بن عبد العظيم ط القاهرة ص ١٩٦ ص ٤٥ .

(٢) المقرئ في فتح الطب في الجزء الخامس ص ٣٢٧ .

(٣) ديوان ابن زيدون ص ١٢٦ .

لقد ترجمت عن مشاعرها تجاه ابن زيدون وحبها إياه في كلمات تجمع بين الصبابة والشكوى وذلك على عادة شاعرات الأندلس فهي تحسن الإفصاح عن عواطفها في غير تصنع أو قصر وإنما تبتد المعاني طوع يديها تسوغها في يسر وبساطة .

ويقرأ ابن زيدون الأبيات فيكتب لها بيتين من نفس البحر والقافية يقول فيها :-

لحي الله يوماً لست فيه بملتقي محياك من أجل النوى والتفرق

وكيف يطيب العيش دون مسرة وأي سرور للكئيب المؤرق

ويؤكد ابن زيدون معاني الصبابة والحب فينشي أبياتاً عذبة من وصف ولادة

يرضي بها كبرياءه فيشكو السهر ويصور محبوبته بهذه المعاني :-

أنت معنى الضني وسر الدموع وسبيل الهوى وقصد الولوع

أنت والشمس ضرتان ولكن لك عند الغروب فضل الطلوع

ليس بالمؤيسي تكلفك العتب دلالاً من الرضى المطبوع

إنما أنت والحسود معنى كوكبٌ يستجيب بعد الرجوع^(١)

وتحدث فجوة في علاقة لابن زيدون ولا يستطيع الشاعر تحمل ذلك الشرخ

والفتور فيبعث إليها بأبيات من العتاب الشديد ولكن صاغ كلماته في عبارات هي

السحر بعينها :-

أسلبُ من وصالك ما كسبتُ وأعزلُ عن رضاك وقد وليتُ

وكيف في سبيل هোক طوعاً لقيت من المكاره ما لقيتُ

أسر عليك عتبا ليس يبقى وأضمرُ فيك غيظاً لا يسببتُ

وما ردي على الواشين إلا رضيت بجور مالكتي رضيت^(٢)

وفي أبيات تفيض بالمعاني والمشاعر يقدمها ابن زيدون في أبيات يعمد فيها إلي

الرقعة عمدا ويذهب في نسجها من الأناقة مذهباً معللاً الصعاب التي لاقاها في

سبيل حبها حتى وشى به الواشون وفي النهاية يوضح لها بأنه راضي عن ذلك

الجور محاولاً الصفح والغفران وتلك لغة المحبين .

(١) الديوان ص ٦٠

(٢) الديوان ص ٥٤

أسباب الفرقة :-

وتكثر لقاءات ابن زيدون بولادة وتجري بينها أسمار وكان منتدى ولادة عامرا بالشعر والموسيقى والغناء وكانت لها جارية سوداء حسنة الصوت بارعة العزف إسمها عتبة غنت ذات ليلة :-

أحبتنا إني بلغت مؤملي وساعدني دهري وواصلني حبي
وجاء يهنيني البشر بوصله فأعطيته نفسي وزدت له قلبي

أعجب ابن زيدون بالبيتين ويبدو أن عتبة أحسنت أداءها فالتمس منها إعادة البيتين واللحن ، فما كان من ولادة إلا أن أصيبت بغيرة النساء فأنشأت أبياتا تدافع فيها عن جمالها وكبريائها ولامت ابن زيدون على ذلك فأنشدت تقول :-

لو كنت تتصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصنا مثمرا بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السماء لكن ذهبت لشقوتي بالمشتري (١)

فشبهت نفسها بالغصن المثمر وجاريتها على العكس من ذلك فأجرت طباقا بين البدر والمشتري اكسب المعنى قوة وتأكيذا .

وهناك سبب آخر ساقه ابن بسام في الذخيرة أدى إلي الفرقة بينهما إذ نقد ابن زيدون بيتا لها قالته فيه وهو :-

سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق (٢)

فانتقد ابن زيدون البيت وذكر لولادة الفرق بين الدعاء له والدعاء عليه فهذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له . وفي هذا أمنية له بالخير وهطول الغيث كعادة الشعراء الأقدمين . وإنما المستحسن قول الشاعر :-

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

وربما يكون ابن زيدون حسن النية والقصد ولكنه لم يحالفه التوفيق في إيصال النقد لتلك المحبوبة بصورة ترضيها فجفته وابتعدت عنه .

(١) بحث عن ابن زيدون السفير الوسيط كتب بمناسبة الإحتفال الألفي لولادة وابن زيدون ٢٩٢-٤٦٣ هـ في الرباط ، المغرب في ١٧/ تشرين أكتوبر ١٩٧٥

(٢) الذخيرة في غماسة أهل الجزيرة لابن بسام ص ٢٢٥

ذكرى ولادة :-

وفي قصيدة تفيض بالولاء والحنين مع الجفاء وفي شدة الأزمة التي ألمت
بالشاعر بعد قطيعة ولادة له مر بالزهراء وهي ضاحية من ضواحي قرطبة كانت
من مربع لهوه وصباه فهاجت أشجانه وذكرياته الجميلة وذلك بعد خروجه من
سجنه وقبل العفو عنه فكتب إلي ولادة قصيدة أودعها ما أستطاع أن يودع من
أسرار فنه وروعة شاعريته بين حسن الإيقاع وسحر النغم فتذكر زهرة قرطبة
الفاتنة بمناظرها الطبيعية وقد خلع عليها الربيع حلله ونثر عليها ديباجة من الورد
المعطر الندى فهاجه الشوق إلي تلك المحبوبة التي جفته وبعدت عنه وهو يتلهف
إلي لقائها فأنشدها هذه القصيدة التي تفيض بالحب والشوق والأسى وناجها من
على البعد فقال :

من البسيط :-

والإفقُ طلق ووجه الأرض قد راقا	إني ذكرتك بالزهراء مشـتاقا
كأنه رق لي فأعتل إشفاقا	وللنسيم إعتلال في أصابـلة
كما شفقت عن اللباب أطواقا	والروض عن مائه الفضي مبيـتم
بتنا لها حين نام الدهر سـراقا	يوم كأيام لذات لنا انصيرمـت
جال الندى فيه حتى مال أعناقا	نلهو بما يستميل العين من زهر
بما بي فجال الدمع رقرراقا	كأن أعينه إذا عانيت أرقى بـكت
منه الضحى في العين إشراقا	ورد تآلق في ضاحي منابته فازداد
نبه منه الصبح أحداقا	سرى يُنافحهُ نيلو فر عبق وسنان
لم يعد عنها الصدر إن ضاقا	كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا إليـك
تطر بجناح الشـوق خفاقا	لا سكن الله قلباً عن ذكركمُ فلم
ميدان أنس جرينا فيه إطـلاقا	كان التجاري بمحض الود مذ زمن
سلوتم وبقينا نحن عشاقا	فالآن أحمدُ ما كنا لعهدكم

نفثات حـرى وذكريات وأحزان ومناجاة تموج بمختلف المشاعر والخواطر ونراه
في بعض أبياته قد جسم الطبيعة كي تشاركه همومة وأحزانه وكلمات القصيدة
تمثل تجربة شعرية عاشها الشاعر في وجدانه وصاغ كلماتها الحـري تعبيراً عن

نفسه والامة و أحزانه وإضطرابه وضياع أملة وحنينه الذي لا يسكن ولا يهدأ
وأصبح لا يملك إلا دموعه وبقايا ذكرى أليمة علقت بخاطرة وزفرات حارات تكاد
تحرق ضلوعه فهو شاعر وجداني عاش الحرقه والألم . فعزفت الموسيقى ألحانها
الشجية لتعبر عن تلك الذكرى الحبيبة إلي نفسه يحدوه الشوق إليها ونجد أثر
المحبوبة واضحا في إبراز الصورة الفنية الحية ولولاها لم أصبح ابن زيدون
شاعرا وجدانيا . وكتبت ولادة إلي ابن زيدون الشاعر الملهم تقول :-

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فأنى راقب الليل أكنم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلج وبالبدر لم يطلع بالليل لم يسر
ويروى البيت الثاني رواية أخرى لا تقل رقة عن الرواية السابقة :-

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدأ وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر
قال ابن زيدون :-

١ . أضحى التتائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

٢ . ألا - وقد حان صبحُ البين - صبحنا

جيين ، فقام بنا للحين ناعينا

٣ . من مبلغ الملبسينا بانتراحهم

حزناً مع الدهر لا يبلي ، ويبلينا

٤ . إن الزمان الذي ما زال يضحكنا

أنسا بقربهم قد عاد بيكينا

٥ . غيظ العدا من تساقينا الهوى ، فدعوا

بأن نقص ، فقال الدهر : آمينا

٦ . فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا

وأنبت ما كان موصولاً بأيدينا

٧ . وقد نكون ، وما يخشى تفرقنا

فاليوم نحن ، وما يرجى تلاقينا

٨ . يا ليت شعري - ولم نعتب أعاديكم

هل نال حظاً من العتبي أعادينا ؟

٩. لم نعتقدُ بعدكمُ إلا الوفاء لكمُ

رأيا ، ولم نتقلدُ غيره دينا

١٠. ما حقنا أن نُقروا عين ذي جسد

بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه

وقد يئسنا ، فما لليأس يُغرينا ؟

١٢. بنتمُ وبنأُ فما أبنتلَّت جوانحنا

شوقاً إليكمُ ، ولا جفتُ مآقينا

١٣. نكادُ حين تتأجيكُم ضمائرنا -

يقضي علينا الأسي لولا تأسينا

١٤. حالت لفقدم أيماننا فغدتُ

سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا

١٥. إذ جانبُ العيش طلق من تألفنا

ومربعُ اللهو صاف من تصافينا

١٦. وإذ هصرنا فنون الوصل دانية

قطافها ، فجئينا منه ما شينا

ليستق عهدكمُ عهدُ السرور ، فما

كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

١٨. لا تحسبوا نايكم عنا يغيرنا

إن طالما غير النأي المحبينا

١٩. والله ما طلبت أهواؤنا بدلا

منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا

٢٠. ولا استقدنا خليلاً عنك يشغلنا

ولا أتخذنا بديلاً منك يسئلنا

٢١. ياساري البرق غاد القصر وأسق به

مَنْ كَانَ صَنْفَ الْهُوَى وَالْوَدِّ يَسْقِينَا

٢٢. وَأَسْأَلُ هُنَاكَ : هَلْ عَنِي تَذَكُّرُنَا

إِذَا ، تَذَكَّرَهُ أَمْسَى يُعْنِينَا؟

٢٣. وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا

مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيٌّ كَانَ يُحْيِينَا

٢٤. فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مَسَاعِفَةَ

مَنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَبَا تَقَاضِينَا ؟

٢٥. رَبِّيبُ مَلِكٍ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ

مَسْكَاً ، وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا

٢٦. أَوْ صَاغَهُ وَرَقًا مَحْضًا ، وَتَوَجَّهُ

مَنْ نَاصِعَ التَّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا

٢٧. إِذَا تَأَوَّدَ أَدَّتَهُ رِفَاهِيَّةٌ

تَوْمُ الْعُقُودِ ، وَأَدَمَّتَهُ الْبُرَى لِينَا

٢٨. كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظَنْرًا فِي أَكْلَتِهِ

بَلْ مَا تَجَلَّى لِيهَا إِلَّا أَحَابِينَا

٢٩. كَأَنَّمَا أَثْبَتَتْ فِي صَحْنِ وَجْنَتِهِ

زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيدًا وَتَزْيِينَا

٣٠. مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا

وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

٣١. وَيَا رَوْضَةَ طَالَمَا أَجْنَتُ لَوْ أَحْظَنَا

وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًا وَنَسْرِينَا

٣٢. وَيَا حَيَاةَ تَمَلِّينَا بِزَهْرَتِهَا

مَنْيَ ضَرْوِبًا وَلَدَاتِ أَفَانِينَا

٣٣. وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ

فِي وَشِي نَعْمِي سَحْبِنَا ذَيْلُهُ حِينَا

٣٤. لَسْنَا نَسْمِيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرَمَةً

وقدركُ المُعتلي عن ذاك يُغنينَا

٣٥. إذا إنفردت وما شوركت في صفة

فحسبنا الوصفُ إيضاحاً وتبينَا

٣٦. يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها

والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

٣٧. إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي

مواقف الحشر نلقاكم ويكفينَا

٣٨. كأننا لم نبت ، والوصلُ ثالثنا

والسعدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا

٣٩. سران في خاطر الظلماء يكتمنَا

حتى يكاد لسانُ الصبحِ يُغشينَا

٤٠. لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت

عنه النهي وتركنا الصبر ناسينا

٤١. إنا قرأنا الأسي يوم النوى سوراً

مكتوبةً ، وأخذنا الصبر تلقينا

٤٢. أما هواك فلم نعدل بمنهله

شرباً ، وإن كان يروينا ويظمينَا

٤٣. لم نجفُ أفق جمال أنت كوكبه

سالمين عنه ، ولم نجهره قالينا

٤٤. ولا إختياراً تجنبناه عن كتب

لكن عدتنا - على كره - عوادينا

٤٥. نأسى عليك إذا حئت مُشعشة

فينا الشمول وغنانا مغنينَا

٤٦. لا أكوسُ الرّاح تُبدي من شمائلنا

سيما إرتياح ، ولا الأوتار تُلهينا

٤٧. دومي على العهد - ما دُمنَا - محافظة

فالحرُّ من دان إنصافاً ، كما دينا

٤٨. فما استعضنا خليلاً منك يحبسك

ولا إستقدنا حبيباً عنك يثنينا

٤٩. ولو صبا نحونا من علو مطلعته

بدرُ الدجى لم يكن - حاشاك - يُصنينا

٥٠. أولي وفاء - وإن لم تبدلي صلة -

فالطيفُ يقنعنا ، والذكرُ يكفينا

٥١. وفي الجوابِ متاعاً إن شفعت به

بيضَ الأيادي التي ما زلت تُوليننا

٥٢. عليك متاً سلامُ الله ما بقيت

صبايةً منك نخفيها فتخفينا^(١)

تحليل النص :-

المرأة هي ينبوع الحنان وسر الحياة وهي التي تحرك العواطف وتثير المشاعر وتفيض بالأنس والألفة والحنين وابن زيدون ممن سعد بهذا الشعور فعبّر عنه وهام بتصويره ومهما يكن من أمر ولادة ونوع حبها فإن ابن زيدون قد أحبها من كل قلبه وارهدف لها كل حواسه وأفرغ لها خلجاته وخواطره ووقف عليها إحساسه ومشاعره ونراه في مواقف يصور لحظات من النشوة والسعادة الغامرة التي لا تقوى على التعبير صورها أو رسم مداها فهي تحس ولا توصف . وتبدو حنكة المحبوب وخبرة العاشق في تصويره للسعادة الحقيقية التي تغمر نفس العاشق وكما ورد في نفع الطيب¹ ((ما في الدنيا حال تعدل محبين إذا عدما الرقباء وأمنا الوشاة وسلما من البين ورغبا في الهجر وبعدا عن الملل وفقداء العزال وتوافقا في الأخلاق وتكافيا في المحبة واتاح الله لهما رزق دارا وعيشا ووقارا وزمنا هاديا)) وكان إجتماعهما على ما يرضي الرب من الحال وطالت صحبهما وإتصلت . والوفاء من حميد الغرائز وكريم الشجن بين المحبين إنه أقوى الآيات على طيب الأصل وشرف العنصر . غير أن حب ابن زيدون لم يكن في كل أطواره بدرجة واحدة، ومير بثلاث مراحل الوصل والهجر والفرقة فقد كان في أول أمره يغيب في نشوة هذا الحب ليستمتع إلي قيثاره ألحان قلبه العذبة مع صدق الشعور والأمل والموسيقى التي تهز السمع، وابن زيدون في هذا الطور نجده يتحدث عن المعاني النفسية والذكريات العذبة الجميلة ويجول جولات واسعة في الخيال فيكون فنيا مبدعا في وصف الأماكن التي إلتقى فيها مع محبوبته والأيام التي سعد فيها بظلالها . وتلك الأيام التي غمرت ذلك الحب العارم خليقة بأن لا تنسى لأنها أثر من الآثار ذلك الحب السعيد في بدايته والغناء في المحبوب الذي إقتصر على أماله ورضاه فهذه المرحلة مرحلة الوصل والسعادة وصدق المشاعر والأحاسيس ولكن الأيام لا تسير على وتيرة واحدة فسرعان ما يتبدد الحال وتختلج المشاعر والأمال ويزيد هجر الحبيب من ضناه فيكون سببا من لوعته وأسائه ويمضي في إذكاء هذه اللوعة حتى يكون الحبيب نفسه يكون هو معنى الضنى وسر الدموع وظل يضرب على هذا الوتر الحساس حتى وصل إلي نهاية متوقعة

وهي مرحلة الفرقة ورحلة اللاعودة إلى تلك الجنة الوارفة الظلال يقطف منها كل ما يشتهي من ثمار الحب أنه يتحسر على تلك الأيام الجميلة التي ولت ، حتى صار لا طعم للحياة بدونها فالفرقة والموت في نظره رفيقان ومسراته تحولت إلى أحزان وضحكاته إلى دموع ووقع ما خافه الشاعر هو الجفاء والفراق . ويكشف الخطاب الشعري منذ بدايته عن تأزم علاقة ابن زيدون بولادة تلك الأميرة القرطبية وتحول تلك العلاقة من الإيجاب إلى السلب أو من الوصل إلى الهجر والفرقة وبذلك يفصح البيت الأول عن حقيقة النص ويحدد للقاري منذ البداية مسار التجربة الشعورية.

ونجد الشاعر يعمد إلى منهج التضاد في تعبيره ممثلاً في المقابلة والطباق بين زمنين زمن الماضي وزمن التذاني أي القرب والوصال وطيب اللقيا وبين الزمن الحاضر زمن اللحظة الراهنة زمن التناهي والتجافي . وبذلك تضعنا القصيدة منذ البداية أمام زمنين متقابلين يستأثر كل منهما بموقف مناقض للآخر وسيظل ذلك سمة أساسية تلون القصيدة كلها .

وما أن تكشف الذات نفسها بالحقيقة المؤلمة وتحولت إلى زمن الفراق فيرتفع صراخ تلك النفس الحزينة وتبدو العاطفة الدافقة والأشواق المتراحمة التي يزين بها ابن زيدون صدر قصيدته فهي صورة حزينة لتلك المرأة التي ملأت عليه حياته أينما حل وحيثما وسرى أو سار .

وتبدو النون الممدودة المطلقة والتي تتردد في ختام كل بيت وكأنها صرخة حزينة يردد الفضاء أصداءها .

وتعكس تلك النفحة الحارة المؤدية عدم تقبل الذات فكره الفراق وعدم تكيفها مع الزمن الجديد كما تعكس ما أصابها من تصدع فلا تملك إلا أن تصرخ وذلك حين تقول :-

١١. أضحى التناهي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

١٢. ألا - وقد حان صبح البين - صبحنا حين ، فقام بنا للحين ناعينا

١٣. من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزنا مع الدهر لا يبلي ، ويبلينا

١٤. إن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

١٥. غيظ العدا من تساقينا الهوى ، فدعوا
 ١٦. فانحل ما كان معقودا بأنفسنا
 ١٧. وقد نكون ، وما يخشى تفرقنا
 ١٨. يا ليت شعري - ولم نعتب أعاديكم -
 بأن نقص ، فقال الدهر : آمينا
 وأنبت ماكان موصولا بأيدينا
 فاليوم نحن ، وما يرجى تلاقينا
 هل نال حظا من العتبي أعادينا ؟

١٩. لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
 ٢٠. ما حقنا أن تقرروا عين ذي حسد
 ٢١. كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
 ١٢. بنتم وبنا فما أبتلت جوانحنا
 ١٣. نكاد حين تتاجيكم ضمائرنا -
 ١٤. حالت لفقدكم أيامنا فغدت
 رأيا ، ولم نتقلد غيره ديننا
 بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا
 وقد يئسنا ، فما لليأس يغربنا ؟
 شوقا إليكم ، ولا جفت مآقينا
 يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
 سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا^(١)

وهكذا تسري ولادة إلي الشعر العربي كنزا من المعاني وذلك لما أوحته من أحاسيس وعواطف وأشواق جعلت ابن زيدون يشدو بتلك الأنشودة العذبة الرقيقة التي صاغها مخاطبا قلب ولادة تلك التي جرحت كبرياهه فكلماتها ينبوع صافي يمثل عصارة القلب وميا يحويه الصدر من أنات حزينة وعواطف متفجرة وموسيقى وإيقاع .

لقد إستجمع ابن زيدون كل شاعريته وفجر كوامن عواطفه ونثر الدر من معانية فجاءت قصائده عبرة لكل محب وسلوى لكل صب لقد جعل من ولادة معرضا للأحاسيس التي تمثل الحنين والجفاء والفرقة واللقيا والأمل واليأس والسعادة والشقاء فنجد تضاد المعاني قد لون أبيات القصيدة فجعلها تحفة نادرة يرددها الملوان على مر الأزمان والأجيال .

ونراه في مقدمة قصيدته قد هجم على المعنى هجوما وكأنه قد شعر بتلك النهاية الحزينة فانعكست تلك النفحة الحادة المدوية لتعلن عن عدم تقبل الذات فكرة الفراق وما أصاب تلك العلاقة من تصدع وذلك حين يقول :-

بنتم وبنا فما أبتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

(١) ديوان ابن زيدون د. شوقي ضيف دار المعارف بمصر ص ١٦٩ وما بعدها

لقد صدر نهاية أبياتة تلك النون الممدودة المطلقة وقصد بجوانحه ذلك القلب الذي تتأقلت عليه الهموم بعد أن كان يعيش في جنة فضاقت منه فظل يبكيها ويتحسر عليها .

ويتضاعف الإحساس بهول الفراق الذي يعبر عنه بصورة دالة على البين وتتضافر الألوان البديعية في تعميق تجربة الشاعر وتلوينها بألوان قائمة فتتحول تلك السعادة إلي النقيض وأصبح اللقاء الحقيقي عبارة عن مناجاة يتحدث فيها الشاعر إلي نفسه وكأن الصباح قد أتى ليحمل في طياته نذيرا بالفراق فلما رآه ناجى في قصيدته الأطلال

وإذا النور نذير طالع وإذا الفجر مظل كالحرير

ويأتي طرح السؤال في البيت الثالث ليثير الوعي ويؤكد حقيقة الفرقة ومن ثم يبحث عن وسيط ينقل إليها رسالته عاتبا على الزمان الذي أبدى السعادة إلي شقاء .

وبالقرب نائيا وبالوصال فراقا وهجرا ولا يفنأ التضاد يمارس دوره الفاعل في تهيج الأحزان وإستثارة المشاعر بوضع الحاضر المفعم بالمرارة والألم إزاء الماضي المشحون بالأنس والسعادة ويؤدي طباق السلب علي الوزن فيبدو غير قابل للغناء والتلاشي والبلى فيكشف عن تجربته ويكسبها عمقا ومن ناحية أخرى فإن طرح السؤال في البيت الثالث يكشف عن أول ملمح من ملامح صورة المحبوبة فهي تبرز في ثوب معنوي ولا يستخدم الشاعر ضمير المفرد في وصفها بل ليصفها بصيغة الجمع (من مبلغ الملبسينا بنتراحهم)

وهو إستخدام له دلالة إذ يخلع على المفرد قدرات الجموع فيبدو الأثر مضاعفا وكان بعدها يعادل بعد الناس جميعا ، أو كأن أحزان الناس جميعا انصبت في نفسه .

فالقصيدة كلها دفقة شعورية واحدة والترابط المعنوي هو السمة الأساسية فيها فالتجربة تنصب في أبياتها التي تتواصل وتتلاحم سواء من خلال الربط بأدوات العطف أو إتصال بعض الأبيات معنويا ونحويا كما في البيت الثالث وما يليه . وتتردد في البيت الخامس إشارة إلي دور الأعداء في الفرقة بين العاشقين

غبط العدا من تساقينا الهوى فد عوا

بان نقص فقال الدهر آمينا^(١)

ويمثل هذا الدور عنصرا أساسيا من عناصر تحول التجربة من مسارها فالحساد مسؤولون عن هذا التحول فهو الذي إستجاب إلي دعاء الحساد فأورث العاشق غصة الفراق وسلبه لذة العرب والوصال .

ويؤكد إقتران الفعل بالفاء في البيت السادس وما أشرنا إليه من تلاحم الأبيات وتدفق المعنى ويعود التضاد ليؤدي دورة مرة أخرى في تجسيد هذا التحول وتأكيد واقع الفراق فقد إنحل حبل الهوى وتصدع ما كان معقودا من آمال وعهود .
فأنحل ما كان معقودا بأنفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا
وتتأذر صيغة الفعليين المضعفين أنحل وأنبت من تأكيد المعنى وكأنهما يشددان على تقرير واقع إنقسام عرى العلاقة وقد جاء لازمين مكثفين بنفسهما .
ويعود مرة أخرى في البيت السابع إلي المقارنة من خلال إستدعاء صورة الماضي بما فيها من غبطة وإطمئنان وأمان ليضعها مقابل الحاضر بما فيه من حزن وتعاسة وتباعد .

وقد نكون وما يخشى تفرقنا

فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا^(٢)

ولا تفتير لهذا الإلحاح في مقابلة الزمنيين المتضادين سوى تعلق الشاعر بماضيه وتشبيته بزمن الوصال ورفض واقعة رفضا تاما وعلى سبيل الوصال المناقض لزمن الحاضر ونلاحظ لذلك مرمى الشاعر على إستخدام ضمير الجمع بصورة منتظمة أو مطردة واقعا تحت تأثير الفعل والمفعولية مثل (يضحكنا - يسلينا - يبكيها) وتعود صورة الأعداد للظهور مرة أخرى في البيت الثامن ياليت شعري - ولم نعتب أعاديكم

هل نال حظا من العتبي أعادينا

(١) الدهران ص ٩٠

(٢) نفس المصدر ص ٩٢ وما بعدها

غير أن هذه الصورة تبدو مختلفة عما جاءت عليه من قبل فهي ترد هنا بانفصال موقف العاشقين وهو موقف يقترن بالشك كما يتضح من خطاب ابن زيدون الإستفهامي (هل نال حظا من العتبي أعادينا؟) . ويشمل الخطاب الشعري في البيت التاسع عن طبيعة تلك الذات العاشقة المطبوعة على الوفاء رغم القطيعة والهجر :-

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم

رأيا ولم نتقلد غير ه دينا

وهذا الموقف المبني على الوفاء الخالص يزيد من مصداقية التجربة ويكسبها ثراءا ويمنحها بعدا إنسانيا عميقا وفي إستخدام أسلوب القصر والإستثناء يرتفع خطاب العاشق بالعتاب .

ما خفنا أن تقروا عين ذي حسد بنا

ولا أن تسروا كاشحا فينا

إن الحساد ينامون قريري الأعين

ونجده قد أتى بفلسفة فيه لليأس فهو لم يصرف العاشق بل أغراه بالأمل وضاعف الشوق والحنين في نفسه وذلك على حد قوله :-

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضة

وقد يئسنا فما لليأس يقرينا

وفي مناجاة حزينة تتعالى صيحات الشاعر فهو ظمآن يستعير بأن أشواقه لم تبتل . إنه يريد الإرتواء فقد تعجلت ساعة الفراق ولم تستمر تلك السعادة التي حل محلها البين والفراق .

ونجد الذات الإنسانية قد نمت وفاض حنينها لتستوعب هذا القدر الهائل من الأحاسيس والشوق إنه قد وصل إلي حالة من الشعور باليأس والعجز فهيمن على نفسه الإحساس والشعور القاتل فتحولت أيامه إلي سواد موحش قاتل .

بنتم وبنا فما أبتلت جوانحنا شوقا إليكم ، ولا جفت مآقينا
نكاد حين تتاجيكم ضمائرنا - يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
إن موقف البين والفراق يحاصر الذات بعده وفي إستعمال عبارة
جوانحنا دلالة تامة على مدى شوق الشاعر وكذلك إبتلت فهو لم يرتوي بل ظل
حزينا باكيا عليها حتى كاد الأسي والحزن يقضيان عليه .
وفونية ابن زيدون من أروع شعر الغزل لصدق تجربتها والوحدة العضوية في
معظم أبياتها وموسيقاها تعبر عن الصدق والوفاء قال عنها الفتح بن خاقان :-
(إنها قصيدة ضربت في الإيداع بسهم وطلعت في كل خاطر) .
ولشدة ما يعاني الشاعر من آلامه وقسوة الفرقة نجده قد هجم على موضوعه
دون تمهيد وبدأ بنهاية المطاف وتحدث في بداية النونية عن مرحلة الفرقة ثم
تحدث عن أيام سعادته ووصله ثم رجع لأيام الهجر وأخيرا تزرع بالصبر والدعاء
للمحبوبة بالخير وأنه سيظل للود والعهد وفيا .
وتعود صورة العاشقين إلي التوحد حيث قال :-
إذ جانب العيش طلق من تألفنا

و مربع "اللهو صاف من تصافينا

ولا تلبث الذات أن تتفصل عن ماضيها ولكن لا تنسى أن تغمره بمشاعرها
الفياضة فتدعوا له بالسقيا والسرور وذلك كعادة المحبين الأقدمين الذين يدعون إلي
المحبوبة وديارها بالسقيا ونزول الغيث .
إن خطاب ابن زيدون الشعري يؤكد مبلغ تقديره وإحترامه لولادة ولعل في
مخاطبتها لضمير الجمع دائما ما يفصح عن ذلك وتلك سمة تتردد في الشعر
الأندلسي :-

ليسعد عهدكم عهد السرور فما

كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

حيث مكانة المرأة وتقديرها من الدلالات النفسية تشبها بالرياحين التي تبعث
في النفس الحياة وبهجتها ومن هنا جاء الجناس بين أرواحنا ورياحينا لا يحمل
المعنى ويحسنه بل ليؤكد أساسا هذا التلازم بين الطرفين :-

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طالما غير النأي المحبينا
والله ما طابت أهواؤنا بدلا منكم ولا إنصرفت عنكم أمانينا
ولا إستفدنا خليلا عنك يشغلنا ولا إتخذنا بديلا منك يسلينا^٢

هذا الخطاب الشعري الذي يعتمد على بنية النفي فضلا عن القسم يؤكد ذلك الحب الذي سيطر على مشاعره وشغله عن كل شي يصرفه عنها أو يحل محلها . وتتووع أحاسيس الشاعر وتجربته النفسية الفريدة ويتذكر أيام الوصال وكأنه يبحث عن وسيط أو سبيل يحمل صوته أو رسالته إلي الحبيب النأي فيخاطب البرق ونسيم الصبا فهو الأسرع في تبليغ الرسالة أملا أن يجد لذكراه صدى في نفس ولادة ممثيا النفس بكلمة أو تحية فقال :

ياساري البرق غاد القصر وأسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
وأسأل هناك هل عني تذكرنا ألف تذكرة أمسى يغنينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحييتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا^١

ومع ما تشغله ولادة من منزلة كبرى في نفس ابن زيدون فإن صورتها في الأبيات من ٢١ إلي ٢٤ تميل إلي التعميم والأبهام ولا تمتاز بلامح محددة ربما لبعد العهد والمكان بينهما حيث تشير الروايات بأنه فر من سجنة بقرطبة إلي إشبيلية ولكن قلبه معلق بحبيبة فأرسل لها هذه القصيدة وتلك الصورة المبهمة غير المحددة الملامح من خلال إسم الموصول ذي الدلالة المبهمة من خلال قوله :-

من كان صرف الهوى والود يسقينا

من لو على البعد حي كان يحيينا

كما يتمثل ذلك بوصفها بنكرة مبهمه في قوله :-

وسأل هناك هل عني تذكرنا

إلف تذكرة أمسى يعنينا

غير أن هذه الصورة لا تلبث أن تتحدد وتحضر قصورا ماديا كثيفا في هذه اللوحة الفنية النادرة التي يرسمها العاشق لمعشوقته :-

ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكا وقدر إنشاء الورى طينا

أو صاغه ورقا محضا ، وتوجه من . ناصع التبر إبداعا وتحسينا
إذا تأود أدته رفاهية توم العقود ، وأدمته البسرى لينا
كانت له الشمس ظنرا في أكلته بل ما تجلي لها إلا أحيينا
كأنما أثبتت في صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر أن لم نكن أكفاه شرفا وفي المودة كاف من تكافينا

إن وصف (ربيب ملك) بما يتبعه من دلالات هو أكثر الصفات تحديدا لشخصية
ولادة تلك الأميرة القرطبية سليلة الملوك التي تجري في عروقها دماء العز
والجاة والشرف والتي نشأت كما ينشأ أبناء وبنات الملوك في أحضان النعيم
والذهب وقد رسم ابن زيدون لها صورة نادرة إذ توج الوجة الفضي بالشعر
الذهبي فعدت مثلا لإبداع . وتلفتنا صورة الشمس بدلالاتها وإبن زيدون يؤكد
بذلك مثول ولادة في وجدانه وإستحضار صورتها ونلاحظ ذلك في أبيات أخرى
إمتزاج صورتها بصورة الطبيعة الحية المثمرة كالروضة والزهور وهي في
نظرة المعادل لحياة :-

يا روضة طالما أجنبت لواحظنا . وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها منسيي . ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من نضارته في . وشي نعمي سحبتنا ذيله حيننا

لقد تفتحت براعم الشباب لدى ابن زيدون وأصبحت له رؤية ناضرة تحرك أسراب
الطيور في الفضاء الواسع المزدان بالأمل والجمال فعندما نقرأ هذه الأبيات نحس
بالحياة ونعيمها يسيطر على الشاعر وهذا يدل على مقدرة الشاعر العظيمة على
التخيل وإستقلال بما توحى به اللغة بكاملها حيث نجده قد ربط بين مظاهر الجمال
في محبوبته والطبيعة ونجدة في هذه الصورة يقدم لوحة لم تكن جديدة إلا أنها
دلالة على سعة الشعور ودقته وهكذا يمثل الطبيعة وتمثلة ويأخذ منها وتأخذ منه
فكيف لا ألم يمنحها الحياة ويخلق فيها الشعور ويجعل منها صاحبيا بيته شكواه
ويأنس إلي نجواه إن محبوبته متفردة بصفاتها ويمتتع عن ذكر إسمها إجلالا
وتكرمة وتادبا .

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة . وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

إذا إنفردت وما شوركت في صفة فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيننا
ولعلنا نلاحظ هنا تغير نمط الخطاب وتجلي المحبوبة في صورة الأفراد خلافا لما
كان سائدا من قبل حيث كان الخطاب بصورة الجمع . لقد تجلت هنا حبيبته
بصورتها المفردة

نسميك ، قدرك ، إنفردت ، ما شوركت
وذلك لإستئثارها بالمنزلة العليا شرفا ومجدا وعلوا لا يطمع إليه أحد حتى العاشق
نفسه ، إن التضاد الذي تبنى عليه التجربة فهي مسك ورياحين وهي ذات قدر
عالي تختلف عن نساء زمانها متفردة في الصفات ونراه يخاطبها بقوله :-
ويا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها

والكوثر العذب زقوما وغسلينا
فهي الحياة ذاتها وهي الخلود ، أما هو فآدم الذي طرد من جنة الخلد وأبدل
بالكوثر العذب زقوما وغسلينا .
وهكذا يتجلى التضاد في إحدى صورته ليضعنا أمام عالمين متضادين عالم الجنة
المرادف لزمن الوصال في الماضي وعالم الجحيم الذي يعيشه العاشق في
الحاضر وهو بعيد عن معشوقته وشتان بين العالمين .
وما أن تزد صورة الحاضر على مخيلة الشاعر حتى يهرع إلي عالم
الماضي فيستحضر صورته المتلبسة دائما بالطبيعة حيث التوحد في صورها
كصورة العاشقين وقد توحدا وتلاشيا في ليل العشق حتى إستحالا سرين في
خاطر الظلماء وكما يؤدي الطباق دوره في المقابلة بين عالمين أو زمنين
متضادين هما زما الوصل والفراق فإنه يؤدي دورا إضافيا حيث يظهر التناقض
في الزمن الواحد زمن تقلب العاشقين بين الإظلام والإصباح والكتمان والإفشاء .
سران في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يغشينا
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
ولا يقف دور التضاد بإعتباره البيئة المحورية في القصيدة عند مجرد
إظهار المعنى وضده أو المقارنة بين زمنين متضادين ولكنه يلعب دورا فاعلا
في تعميق المعنى وتكثيف الموقف النفسي في التجربة كما يبدو في هذا البيت

إنا قرأنا الأسي يوم النوى سورا * مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله * شربا فإن كان يروينا فيظمينا

فالأمر لا يقف عند مجرد المطابقة بين الري والظما ولكن يتجاوزه إلى ما هو أعمق فيمتد جذوره إلى بؤرة التجربة ويشع بدلالاته النفسية فيكشف عن تلك الذات التي تعاني أزمة ما فتشعر بالحرمان دائما وكلما إرتوت أحست بالظما فتظل في ظما دائما إلى الإرتواء العاطفي فتطمع في المزيد :-

لم نجف أفق جمال لأنت كوكبه سالين عنه ، ولم نهجره قالينا

ولا إختيارا تجنبناه عن كذب لكن عدتنا - على كره - عوادينا

وتتردد أساليب الخطاب لتعكس رغبته الملحة في المحافظة على العهد ومبادلة الوفاء بالوفاء فهو لم يكن بإختياره وإرادته أن يفترق عنها ولكن تدخلت يد الأعداي ففرقت بينهما :-

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا سيما إرتياح ، ولا الأوتار تلهينا

دومي على العهد - ما دمنا - محافظة فالحر من دان إنصافا ، كما ديننا

وكثير ما يتولد الإيقاع من تألف الحروف وتجاورها وتكرارها حتى نفحات الأوتار والراح لم تشغله ولم يتسه عن ذكرها حيث البناء التفعيلي الموحد وفي إستعطاف وتودد يطلب من محبوبته أن تكون كما كان يود ، أن يعهدها ويذكرها بخلق الأحرار ومبادلة الوفاء بالوفاء وقد يجتمع الجنس مع التماثل الإيقاعي في الشطر الواحد . نتحفنا القصيدة بثرائها الموسيقي وثمة عناصر كثيرة ساهمت في ذلك منها الإيقاع الخارجي وبما تمثله الموسيقى الداخلية إنه لا يزال على عهده ويؤكد موقفه ويستعمل نغماته الحزينة ومهما كانت الظروف لم يكن هناك من يحل محلها فلا خليل ولا حبيب . ويصل إلى أبعد من ذلك فلو صبا بدر الدجي فحاشا أن يشغلنا عنك وبهذه الكلمات الحرى يحاول الشاعر إثارة عاطفة الطرف الآخر وتحريكها بعد ران عليها الجمود والسكون ولكن هيهات فقد إنصرفت عن عاشقها الشاعر الناقد الذي لم يملأ غرورها الفني .

ويأتي الإيقاع الداخلي بدور إضافي في توفير هذا الثراء الموسيقي ويتوسل
إلي ذلك بوسائل شتى حتى تبدو الكلمات أقرب من موسيقاها إلي البناء التوشيجي
من حيث العناية بالتقسيم المقطعي والمساواة بين الأبنية الإيقاعية .
وفي إيقاع هادر يعكس حركة الذات ويعبر عن التفجر العاطفي الذي يمور
في نفس الشاعر .

أضواء على القصيدة

لقد أغرم ابن زيدون بفنون البيان والبديع إغراقا قويا من كناية وتشبيه وإستعارة
وجناس وطباق .

فالطباق اللفظي في القصيدة يصدر من مضمون نفسية الشاعر وعاطفته التي بنيت
على تضاد المعاني من وصال ونعيم وجفاء وعذاب ومن أمل إلي يأس وتأيي
وتداني . ونراه قد اعزم بالجناس مثل الأسى والتأسي والإستعارة بأنواعها فقد
كثرت في النص مثل إن الزمان الذي ما زال يضحكنا .

ومثل قوله (إذا هصرنا غضون الوصل دانية) وجاءت الكناية في موضعها
أكثر روعة من التصريح كما في قوله (كأننا لم نبت والوصل ثالثا) ولم يكن ابن
زيدون متكلفا في أبياته أو بديعة بل أتى كل منهما في موضعه حين يحتاج إليه
المعنى أو تتطلب الصورة أو السياق حين يحتاج المعنى إلي توضيح أو تجسيد أو
تأكيد أو إستعماله لأساليب الإنشاء فقد أتى إنشاؤه في نداءاته المتكررة في قوله (يا
ساري البرق ويا روضة ويا حياة ويا نعيما) وهذا التكرار للنداء زاد في لحن
المناجاة الحزين كما نجدة قد إستعمل القصر لتأكيد المعنى كما في قوله (لم نعتقد
بعدكم إلا الوفاء) .

أما معني القصيدة فقد صاغها ابن زيدون في ألفاظ عذبة حلوة إستمدتها من
نبضات قلبه وتجربته الواقعية المريرة فالألفاظ الحلوة والتجربة الواقعية الحزينة
والموسيقى الصاخبة حينا والهادئة في مواقع أخرى قد خدمت المعنى .

فإبن زيدون فنان قبل أن يكون حكيما أو باحثا أو وزيرا من المعاني لا نجده قد
إهتم بالألفاظ الحلوة والعبارات الرقيقة حيث اختار قافية النون الممدودة التي
أضفت على القصيدة رنات من الحزن ونغمات موسيقية باكية .

ونجده قد مزج غزله بالطبيعة التي هام بها حبا كهيام غيره من شعراء الأندلس الذين فتنتهم الطبيعة الساحرة الغناء .
وتعتبر بحق نونية ابن زيدون من أروع القصائد في الغزل لصدق تجربتها ووحدة موضوعها بل الوحدة العضوية التي تمثلها الأبيات في معظم أبياتها وموسيقاها الحزينة وألفاظها الحلوة . وعاطفتها الجياشة فهو بصدق كنز غني بدرر المعاني ورفيع العواطف مع رقة الأساليب و سحر الإيقاع إنها قصيدة ضربت في الإبداع مساحة كبيرة حيث نجدها قد تركت بصماتها في كل خاطر ونزعت منزعا فاقت فيه شعراء الغزل فقد أودعها ابن زيدون ما استطاع أن يودع من أسرار فنه وروعة شاعريته بين حسن إيقاع وسحر ونغم وفيها إنطلق إلي الأوتار التي تترقق قلب ولادة ولكن المسافة قد بعدت بينهما فعاش الشاعر جسدا بلا روح فقد ترك قلبه بقرطبة وهكذا إنتهى به المطاف .

١/ إعتقاد الرميكية جارية المعتمد بن عباد وأخبار المعتمد

ولدت عام ٣٢١ هـ وتشتهر بالرميكية عاشت في أشبيلية ولعبت الصدفة في حياتها دوراً هاماً فرفعتها من السفح إلي القمة في برهة زمنية قصيرة هي في حساب الدهر ليسا بذات أهمية غير أنها في حساب الإنسان نبضات تفيض بأسباب الحياة ونالت ذلك بسبب سحر اللفظ وروعة الحرف . فوصلت إلي المعتمد وذلك عندما ركب يوماً وهو وصديقه ابن عمار زورقاً للنزهة في نهر أشبيلية وإذا هما ينعمان بجو رائع لطيف فهب تسيب من النهر وحدث مع صفحة المياه تموجات فنظر إلي النهر وأطال التأمل فقال مخاطباً صديقة ابن عمار في انشراح . أجز يا ابن عمار " صنع الريح من الماء زرد " غير أن ابن عمار أرتج عليه الأمر وأخذ يعبث بلحيته عادة من يحاول أن يتذكر شيئاً . ورائت فترة صمت ليست بالطويلة حاول إثناءها ابن عمار أن يستعيد ذاكرته ولكن بدون جدوى وإذا

(١) أنظر ترجمتها في نفع الطبيب ص ٢٧٠

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٣

بصوت ينبعث من جانب النهر يهتف بعذوبة وحلاوة " أي درع لقتال لوجمد "

وعندما سمع المعتمد ذلك لم يملك نفسه من شدة الإعجاب والدهشة وسرعان ما خف إلي صاحبة الصوت فتبينه فإذا بصاحبته فتاة جميلة من الفتيات الغسالات إنها إعتقاد الرميكية فإشترأها المعتمد من مولأها رميك بن حجاج ثم تزوجها وأنجبت له اولادة.

وكان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ويستظرف نوارها ولم تكن لها معرفة كافية بالغناء وإنما كانت جميلة الوجه حسنة الحديث ، حلوة نادرة كثيرة الفكاهة لها في كل ذلك نوار محكية وكانت في عصرها ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها " ولا يوم الطين " وذلك لأنها رأت الناس يمشون في الطين فأشتهت المشي في الطين فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى لمحتته ثم نصبت الغرايل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب عجت بالأيدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواربها وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه حيزاً قط فقال " ولا يوم طين " فأستحييت فأعتررت.

ولعل ذلك ما يدل على أن الأندلس بلد الترف إلي أوسع ما يكون الترف وقد وجد الترف في المشرق ولكنه لم يشيع بين أفراد الشعب على نحو ما يشاع وقد أشار المعتمد في أبياته الرائية إلي هذه القضية حيث قال في بناته.

يأطن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

ولعل ذلك يرجع إلي أن المرأة في الأندلس تحظى بتقدير المجتمع وهذا الطبع قد جعلها تعتد بنفسها وحريتها المحدودة والملوك لهم عادة ذر الطيب في قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم زيادة في التتعيم

وقيل أنه ركب المعتمد النهر يوماً ومعه ابن عمار ووزيره وقد زردت الريح النهر فقال ابن عباد لابن عمار أجز

صنع الريح من الماء زرد

فأطال ابن عمار الفكرة فقالت امرأة من الغسالات

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار فنظر إليها فإذا
هي صورة حسنة فأعجبته فسألها أذات زوج فقالت لا فتزوجها وولدت له أولادة
الملوك النجباء

وقيل ان المعتمد قد استحسّن قول أحد الأدباء

أي درع لقتال لو جمد

قال ابن ظافر : وقد أخذت هذا المعنى فقال يصف روضاً

فلو دام ذاك النبات كان زبرجداً

ولو جمدت أنهارها كان بلوراً

ولما قال ابن ظافر

قد أذكت الشمس على الماء لهيباً

ولما خلع المعتمد وسجن بأغصان حزنه عليه فقالت له

ياسيدي لقد هنا هنا فقال :-

قالت لقد هنا هنا مولاتي أين ماهنا

قلت لها الهنا صيرنا إلي هنا

وحكي إنها قالت له وقد مرض ياسيدي ، مالنا قدرة على مرضاتك في مرضاتك
ومن حسن قولها استعمال الجنس التام للتأكيد بين مرضاتك ومرضاتك وذلك مما
جعل لأبياتها جرساً موسيقياً عالياً.

ولما قال الوزير ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة المعتمد والرميكية

أغرى المعتمد به حتى قتله فقطع رأسه فقالت الرميكية قد بقي ابن عمار هدهداً
والقصيدة أولها

ألا حي بالضرب حياً حلالاً أناخوا جمالاً وحازوا جمالاً

وعرج بيومين أم القرى ونم فعسى أن تراها خيالاً

وقد مر بأشبيلية وكانت تابعة لبني عباد وفي هذه القصيدة يقول معرضاً
بالرميكية :-

تخيرتها من بنات الهجان
فجاءت بكل قصير العذار
قصار الغدود لكنه
أتذكر أيامنا بالصبا
أعانق منك القضيب الرطيب
وأفنع منك بدون الحرام
رميكية ما تساوي عقلاً
لثيم النجارين عما وخالاً
أقاموا عليها قروناً طوالاً
وأنت إذا لحت كنت الهللاً
وأرشف من فيك ماء زلالاً
فتقسم جهدك أن لا حلالاً (١)

وسبب هذه القصيدة أن المعتمد نذر به وذيل على قصيدته الرائية المذكورة في
القلائد بعد قوله

كيف التغلب بالخديجة من يدي رجل الحقيقة من بني عمار
وعندما خلع المعتمد وذهب إلي أغمات طلب من بنت تاشفين خباء فأعذرت بأنه
ليس عدنها خباء فقال:-

هم أوقدوا بين جنبيك ناراً
أطالوا بها في حشاك إستعارا
أما يخجل المجد أن يرحلوك
ولم يصحبوك خباء معارا
فقد قنعوا المجد إن كان ذاك
وحاشاك منك خزيأ وعارأ
يقل لعينك أن يجعلوا
سواد العيون عليكم شعاراً (٢)

ثم إنه بقي مأسوراً في باغمات إلي سنة ٤٨٦ فقال في ذلك

غريب بأرض المغربين اسيراً
وتتدبه البيض الصوارم والقنا
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة
ويلحظنا الذاهي وسعد سعوده
تراه عسيرا لا يسير مناله
سيبكي عليه منبر وسرير
وينهل دمع بينهن غزير
وأمامي وخلفي روضة وغدير
غيورين والعتب المحب غيور
ألا كل ما شاء إله يسير (٣)

وقيل أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أهدى إلي المعتمد جارية مغنية قد نشأت
بالعدوة واهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس وجاء بها إلي أشبيلية وجاء النبا

(١) الفتح ج ١ / ص ١٢٤

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٦

(٣) المغرب الجزء الثالث / ص ٢١٥

بانتراع ملوك الطوائف فتضجر ابن عباد لهذا النبأ فخرج بها إلى قصر الزاهر
على نهر أشبيلية

فتغنت بتلك الأبيات قائلة :-

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ولوا عمائمهم على الأحجار
إن خوفوك لقيت كل كريهة أو أمنوك حلت دار قرار
فوقع في قلبه أنها عرضت بساداتها فلم يملك غضبة ورمى بها في النهر فهلكت
فقدر الله تعالى أن كان تمزيق ملكه على يديهم تصديقا للجارية في قولها:-
وإن خوفوك لقيت كل كريهة

أو أمنوك حلت دار قرار

من أخبار المعتمد

وعندما نقل المعتمد من بلده حمل على سفينة وبقي وحيداً بعيداً من الأهل
والرفاق فتصاعد زفراته الحارة أسفاً وحسرة فإشتاق إلى قصره وحراسه
وسماره وإلى الأندلس وهو يرى في أسره غريباً بدلاً من تلك السعادة
والهناء وفي ذلك يقول :

بكي المبارك في إثر ابن عباد

بكي على أثر غزلان وآساد

بكت ثرية لا قمت كواكبها

بمثل نوء الثريا الرائح الغادي

بكي الوحيد بكي الزاهي وقبته

والنهر والتاج كل ذلة يادي

ماء السماء على أفيائه درر

يا لجت البحر دومي ذات إزباد

ولعل في تكرار البكاء لوعة وأسى وحزناً ممضاً وحرقة وبعد عن الهناء
والسعادة ففي أبياته شكوى فمن الوجه النفسية إختلف موقفه فهو ينادي بأعلى
صوته ولا من سميع ويجار بالدعاء ولا من مجيب ويظل كاسف البال حزيناً

وتشتد القياهب والظلمات من حوله ويستمر يشجينا بشدوه باعثاً لواعج حنينه الزائد المستعر .

ومن أخبار المعتمد إنه استدعى القائد أبا الحسن ابن اليسع ليلته تلك في وقت لم يبد منه غير نجم ثاقب فوصل وما للأمن في فؤاده وصول وهو يتخيل أن الجو صوارم ونصول بعد أن وصى بما خلف وودع بمن تخلف فلما وصل بين يديه آنسة وأزال توجسه وقال له خرجت من إشبيلية وفي النفس غرام طويته بين ضلوعي وكففت فيه دموعي بفتاة هي الشمس أو كالشمس أخالها لا يجول قبلها ولا خلخالها وقد قلت في يوم وداعها عندما تظفر كبدي وانصدع لها .

ولما التقينا للوداع قـدية وقد خفقت في ساحة القصر رايات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا لجري الدموع الحمر منها جراحات(٢)

ولقد زارته تلك الجارية وأعجب بها وقال في ذلك :-

سقى الله صوب القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبي على خره بردا
هي الطيبي جيداً والغزاة مقلّة وروض الربى عرفاً وغصن القنا قدأ
وقيل أنه قد استدعى زخر الدولة يوماً في ليلة ألبس البدر رداءه أو قد فيها
أضواءه وهو على البحيرة الكبرى والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهراً وقابلتها
المجرة فسالت فيها نهرأ وقد حسد النسيم الروض فمشى وهو واجم ودمعه منسجم
فلما نظر إليه قرب منه فأنشده

أيا نفس لا تجزعي فاصبري وإلا فإن الهوى ملتف
حبيب جفاك وقلب عصاك ولاح لحاك ولا منصف

فانصرف ولم يعلمه وحاصره جيوش الملتحمين حتى أخذوه قهراً.

وتوفى عام ٤٨٨ هـ ولا يزال الأدباء والنقاد يتداولون أخبار الرميكية وفيها يقول
الحصري رحمه الله

مات عباد ولكن بقي الفرع الكريم
فكأن الميت حي غير أن الضاد ميم

(١) المقرب ج ٢ / ص ٢٧٥

(٢) نفع الطيب ص ٢٧٩

وظلت شاعرتنا تنعم بلين العيش وترفل في السعادة إلي أن حدثت
الكارثة التي هددت صرح سعادتها إذا خلع المعتمد وسجن بأغمات فقالت يوماً :-
ياسيدي لقد هنا هنا

فقالته لقد هنا هنا مولاي أين جاهنا
قلت لها الهناء صيرنا إلي هنا

وبأغمات توفيت شاعرتنا إعتاد الرميكية وقد تأثرت بزوجه الملك الشاعر.
٣/ بثينة بنت المعتمد بن عباد

أميرة وبنت ملك وشاعر مطبوع وبنت شاعرة هي الرميكية اتسمت
بالظرف ولدت عام ٣٠١ هـ شهدت مباحج ملك أبيها المعتمد بن عباد كبير ملوك
الطوائف وكبير الشعراء وبطل الأبطال في معركة الزلاقة والأسير بأغمات .
إن المعتمد يشكل صفحات من المجد والترف والبطولة والإباء ولقد ورثت إبنته
بقية بثينة وروحه الشاعرة وورثت الشعر أيضا والجمال عن أمها الروميكية .
ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت من جملة من سبي ولم يزل المعتمد
والروميكية في وله دائم عليها لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلي أن كتبت بالشعر
المشهور المتداول بين الناس . وكان أحد تجار أشبيلية اشتراها وهو لا يعلم من
أمرها شيئاً ظاناً أنها واحدة من الجواري واهداها لإبنه فلما أراد الإبن الدخول بها
امتعت عنه وظهرت نسبها وقالت لا حل لك إلا بعقد الزواج إن رضى أبي بذلك
وأشارت عليه بكتاب توجيه منها إلي أبيها وانتظار جوابه . وكان هم أبيها أسوء
وقعاً من زوال الملك فوافق الشاب ووالده على طلب بثينة فكتبت خطاباً فريداً في
وبابه بين الخطابات التي كتبت في التاريخ وضمنت الخطاب قصيدتها ومأساتها^(١)
في فطنة وسداد وجعلت منه قصيده موشاة بحكمة الشيوخ وصاحبيتها في عمر
إزدهار الربيع.

تلك الأسيرة المغلوبة على أمرها ونعد إلي ما كتبت من قصتها إلي أبيها في فقالت

(١) المقتبس في أخبار الأندلس لابن حيان ص ٢٠٢ م.

(٢) المقتبس في أخبار الأندلس لابن حيان ص ٢٠٢ م.

أسمع كلامي واستمع لمقالتي فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تتكروا أني سببت وأنني بنت لملك من بني عبّاد
ملك عظيم قد تولى عصره وكذا الزمان يؤول للأفساد
لما أراد الله فرقة شملنا وأذقنا طعم الأسي من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني أمرُ لم يأت في إجماله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني من صانني إلا من الأنكاد
وأرادني لزواج نجل طاهرٍ حسن الخلاق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا ولا أنت تنظر في طريق رشاد
فعساك يا أبتّي تعرفني به إن كان من يرتجى لوداد
وعسى رميكة الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد^(١)

فما وصل شعرها لأبيها هو بأغمات واقع في شرك الكروب والأزمات سر هو
وأمرها بنجاتها ورايا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها وذلك لما علما من أمرها
وجبر كسرهما وذلك أخف الضررين وإن كان الكرب قد ستر القلب واشهد على
نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور

كتب المعتمد إليها كتابه مما يدل على حسن صبره وعزيمته وثمره إحساسه
والأسي والحسرة على فراق بلاده وقال في ذلك .

بنيتي كوني به برة فقد قضي الدهر بإسعافه

أهدي المعتمد بيته لابنته واعتبرها هدية القدر إلي ذلك الصبي السعيد .

٤/ حفصه بنت الحاج الركوينة

منهل عذب ندي النفحات ثر النسومات حلوة الحديث تنطق الكلمات على
سجيتها تترجم العصر الذي عاشت فيه وتنسب إلي ركونه عاشت في القرن
السادس الهجري وكانت ولادتها في حدود ٥٣٠ هـ - ١١٣٥ م وأنها ولدت في
غرناطة ونشأت فيها^(٢) .

(١) المعتمد بن عبّاد لعلي ادهم سلسلة اعلام العرب القاهرة ص ٩٨

(٢) الفتح للمقري ج ٥ ص ٣٠٣، ٣٠٩

وإن كانت ولادة في قرطبة قد ارتبطت بإبن زيدون فإن حفصة في غرناطة هي الأخرى فقد ارتبطت بالوزير الشاعر الكاتب أبي جعفر بن سعيد وزير بني عبد المؤمن الملك أمير غرناطة فساجلها وساجلته إن اختلفت ظروف الشعارين شاعر ولادة وشاعر حفصة وقد اتفقت في بعض منها وذلك الحب كان من العوامل الفعالة في إبراز شاعريتها وأدبها.

فالجانب الأكبر منه يعبر عن حياتها العاطفية في صدق وامانة لقد كان المنافس لإبن زيدون وزيراً مثله هو أبو عامر بن عبدوس أما المنافس إبن سعيد فهو الملك نفسه أبو سعيد عثمان إبن عبد المؤمن

وإن كان الزمان قد حرم إبن زيدون من ولادة فإن أبا جعفر كان حظه من حفصة أوفر من حظ إبن زيدون فقد ظل معشوقاً طوال حياته .

أحبت حفصة أمير غرناطة إبن عبد المؤمن حباً صادقاً وبادلته هي نفس الحب . ولكن علاقته بها كما يبدو من أبياتها كانت علاقة مجاملة خوفاً من سخط الأمير وغصبه وليس أدل على ذلك من أنها تحدثت عن هواها له في شعرها حديثاً صادقاً ينطوي على لوعة قلب جريح إنما كان مدحاً يخلو من العاطفة الحقة كما هو الحال في مدائح الرؤساء، فأرسلت حفصة إلي أمير غرناطة تهنئه في ويم عيد

ياذا العلا وإبن الخليفة والإمام المرتضى

يهنيك عيد قد جرى فيه وبما تهوى القضا

واتاك من تهواه في قيد الأنابة والرضا

ليعد من لذاته ماقد تصرم وانقضى⁽¹⁾

وليس يرتاب أحد في أن الأبيات متكلفة ولا تعبر عن شعور ندي والبيت الثالث ينبئك عن هذا التكلف الذي دفعت إليه دفعاً تحت وطأة من غضب الأمير ، وإذا نظرنا إلي كلمة تهواه بضمير المخاطب وأمام كلمة قيد الإنابة ترى أن الكلمات تدل دلالة نفسية تفصح عن قلق داخلي إثارة عن جفوة الأمير وما يعقب الجفوة من ضغينه وحقد .

واتاك من تهواه في قيد الإبانة والرضي

فالصراع بين الأمير ووزيره أبي جعفر صراع بين رئيس ومرؤوس وقد أدته هذه المنافسة إلي أن أمر الأمير بضرب عنق أبي جعفر وذلك بعد أن بلغه قول أبي جعفر لعشيقتة حفصة عندما رأى مجاملتها للأمير

" ما تحبين من ذلك الاسود وأنا أقدر ان أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه " (١)

فأفسر الأمير هذه المقولة الجارحة في نفسه إلي أن حانت الفرصة عندما لحق أخو أبي جعفر عبد الرحمن بالثائر مردنيش في شرق الأندلس ويزعم ياقوت في معجمه أن الأمير ووزيره اشتركا في هوى حفصة الشاعرة (٢).

وفي النسخ ينسب هذا الأمر إلي أن أبا جعفر وهو حالة نفسية من الغيرة القائلة أن يطعن في الامير ويحتقره بلونه الأسود في حين أن عبد المؤمن كان أبيض ذا جسم تعلوه حمرة شديدة سواد الشعر وضيء الوجه (٣)

وحفصة على إتصال دائم بأبي جعفر وهاهو أبو جعفر يطلب منها أن تجود عليه بإجتماع معها وعند ذلك أرسل إليها أبياتا يبينها لواعجه وحرمانه وهو القائل :-

يامن أجانبُ ذكر إسمه	وحسبي علامة
ما إن ارى الوعد يقضي	والعمر أخشى إنصرامة
اليوم أرجوك لا أن	تكون لي في الغمامة
لو قد بصرت بحالي	والليل أرخى ظلامه
أنوح وجداً وشوقاً	إذ تستريح الحمامة
حبيباً أطال هواه	على الحبيب غرامه
لمن يتيه عليه	ولا يردُ سلامه

(١) المغرب ج ٢ ص ١٦٤

(٢) معجم الادباء لياقوت ج ١ ص ٢٢٠

(٣) المختار من الشعر الأندلسي ص ٢٢٥

إذا تتبلي أريحي
بالياس يتتني زمامه^(١)
فأجابته بقولها:

يامدعي من هوى الحسن
و الغرام الإمامة
أني قريضك لـكن
لم أرض منه نظامه
أمدعي الحـب يتني
ياس الحبيب زمامه
ضلت كل ضلال
ولم تفدك الزعامه
وما زلات تصحبه مذ كنت
في السباق السلامة
حتى عـشرت وأخـجـلت
بإفتـضـاح السامه
بالله في كل وقت
بيدي السحاب إنسجمه
والزهـر في كل حين
يشق عنه كمامه
لو كنت تعرف عذري
كففت غـرب الملامه^(٢)

ثم أرسلت هذه الأبيات مع رسول أبي جعفر بن سعيد بدان سبه هو وصاحبه ولما وصل إلي أبي جعفر سأله ماوراك يا عصام ؟ فقال له إن الشاعر غير موافقة للإجتماع معه . بعد ذلك سلم له الأبيات وعرف من خلالها إن صاحبه ستأتي إليه عكس ما قاله الرسول له وإن الموعد سيكون بروضة المسمى الكمامة.

فهم بتوبيخها فأنشدته بصوت رخيم حلو فقالت :-

دعي عدّ الذنوب إذا إلتقينا
تعالى لا نعدّ ولا تعدّي

وفيما هما فيه من حديث يجري في رفق وهيام إذا برقعة يرسلها إلي أبي جعفر الشاعر الكندي مكتوب عليها :

أبا جعفر يا ابن الكرام الأماجد
خلوت بمن تهواه رغماً لحاسد
فهل لك في خل قنوع مهذب
كتوم عليم باختفاء المراصد

(١) المختار من الشعر الاندلسي ص ٢٢٥

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٣٠

بييت إذا يخلو المحب بحبه ممتع لذات بخمسٍ ولأند^(١)
وقرأ أبو جعفر الأبيات على حبيبته حفصة فلم تملك إلا أن قالت
" لعنة الله " ثم قال لها أبو جعفر والإبتسامة تتلألاً على محياه " بالله عليك سمية
لنكتب له بذلك " قالت:

وبعد برهة كتب على ظهر رقعة أبياتاً أولها

يامن إذا ما أتاني جعلته نصب عيني
تراك ترضى جلوساً بين الحبيب وبينني^(٢)
وكتب أيضاً:

سماك من أهواه حائل إن كنت بعد العتاب واصل
مع أن لونك مزعج لو كنت تحبس بالسلاسل
وأسرع الرسول قاصداً الكتدي ليلغيه الأبيات ولكنه وجدته قد وقع في حفرة
وعندما قرأها طلب من الرسول أن يخبرها ما خبره ولما علم الحبيان ما حدث
أستولت عليهما نوبة من الضحك .
ولم يكن هذا اللقاء هو الأول والأخير لحفصة بحبيبها أبي جعفر بل تعددت
اللقاءات في أماكن مختلفة وكثرت المواعيد في بساتين متنوعة فها هي حفصة
تقضي معه سويغات قرنفليات في بستان .

وفي ذلك يقول أبو جعفر في مستهل أبيات له بعثها بعد إفتراق
رعى الله ليلاً لم يرح بمذمم عشية وإرانا بحوز مؤمل

فكتبت إليه تجيبه قائلة :

لعمرك ما سرُّ الرياض بوصلنا ولكنه أبدى لنا الغل و الحسد
ولا صفق النهر إرتياحاً لقربنا ولا غردَ القمري إلا لما وجد
ولا تحسن الظن الذي أنت أهله فما هو في كل المواطن بالرشد

(١) نوح الطيب ص ١١٥

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٢٥

فما خلتُ هذا الأفقُ أبدى نجومه
لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رصدٌ (١)
وفي ليلة كان أبو جعفر في مجلس مع أصدقائه فإذا بطرقات على الباب
فخفت جارية تنظر من الباب فوجدت امرأة فقالت لها ما تريدين ؟
فأجابت:

سلمي لسيدك هذه الرقعة

ثم سلمت لسيدها الرقعة وإذا به مكتوباً عليها أبياتاً
من ثناياها أنها لحفصة وكيف يخفى عليه شعرها وقد عرف نكهته وصياغة
أسلوبه وقراءتها فقال لها :-

زائرٌ أتى بجيد الغزال مطلعٌ تحت جناحه للهِلالِ
بلحاظ من سحر باب صيغتُ ورضاب يفوقُ بنتِ الدوالي
يفضح الورد ما حوى منه خد وكذا الثغر فاضح للآلي
ماترى في دخوله بعد إذنٍ أو تراه لعارض من انفصالِ

ولما إنتهى من قراءته أسرع إلي الباب يستقبلها بفرحة فقالت في حبيبها الذي نزع
عنها مرسله إليه سلاماً محملاً بعبير الحب وحرارته . فقالت حفصة :

سلامٌ يفتحُ زهر الكميّام وينطقُ بالشدو ورق الغصونِ
على نازح قد سوى في الحشا وإن كانت تحرم منه الجفونِ
فلا تحسب البعد ينسيكم فذاك والله ما لا يكون (٢)

والأيام قلب دوار لا يدوم حالها لذلك فجأة تعكر جو الحب بين الحبيبين عندما
تَناهى الخبر إلي حفصة بأن عشيقها أبا جعفر يحب فتاة سوداء وأنه قضى معها
أياماً بظاهر غرناطه فقالت ساخرة به وبمعشوقته الجديدة أينما سخرية بدافع قوى

من الغيرة فأنشدت تقول :-

يا أظرف الناس قبل حالاً أوقعه نحو القدرِ
عشقت حسناء مثل ليل بدائع الحسن قد سترِ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة بسام الشنبري ص ١٢٦

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢١٥

لا يظهر البشر في دجاها كلا ولا يبصر الخفر

بالله قل لي وأنت أدري بكل من هام في الصور

من الذي هام في جنان لا نور فيها ولا زهر^(١)

وتمر أيام النخس وساعات النكد لتحل مكانها أوقات الفرحة والسرور فتبعث إليه بقولها

سار شعري لك عني زائراً فأعز سمع المعالي شنفه

وكذلك الروض إذا لم يستطيع زورة أرسل عنه عرفة

فيجيبها ابو جعفر بقوله :

قد أتانا منك شعراً مثلما أطلع الأفق لنا أنجمه

وفم فاه به قد اقسمت شفقتي بالله أن تلثمه

فالشاعرة قد رسمت تجربتها المعاشة وخوفها وحرصها عليه و عما حملته الواشون

والحساد وليس عجباً فأبو جعفر كان دائماً يطمع للعلا والمجد

وشاعرتنا بعد أن نضح شعرها إحتلت مكانة مرموقة في الأندلس ولا سيما

غرناطة لذلك ولع بأدبها كل من هام بالكلمة الجميلة وهذه امرأة من شريفات

غرناطة تسألها أن تبعث إليها تذكراً بخط يدها فكتبت إليها تقول -

يا ربة الحُسن بل ياربة الكرم غضي جفونك عما خطه قلّمي

تصفيحة بلحظ الود منعمة لا تحفلي بردئ الخط والكلم^(٢)

هذه هي حفصة الشاعرة الطروبية الأدبية التي تتسمت أنداء الفجر وبراعم الزهور

في اطمئنان منعش ورضى شيق ونشوة غافة عما يخبئه صباح الغد ثم تحول

ضياء الحياة ملكه بعد قتل حبيبها واصبحت أمانيتها ذكريات ترقص في عالمها في

صورة أطياف باهتة وظهر اثر المأساة في نفس الشاعرة فبعد البطش بحبيبها

إنزوت في ركن بيتها تعيش على ذكرياتها لتستمد منها العون والجلد وخلي شعرها

إلا من لمسات تحس في ثناياها لمس رثاء ينم كل حرف فيه عن نفس معذبة

(١) انظر بن بسام في الذخيرة ج ١ ص ٢٢٦

(٢) المنزب ج ٣ ص ١٢٩

فرثاها وليد شعور صادق ولا سيما إذا صدر من النساء " فهن أشج الناس قلوباً عند
المصيبة واشدهن جزعاً على الهالك " كما يقول مصطفى صادق الرافعي (١).
فأنشدت وهي جريحة القلب ذاهلة العقل :-

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظري وقد عنيت عنه مظلاً بعد نوره

البيت يعبر عن حرقة الجوى والفؤاد والضنى وعمق الحسرة والألم

وتقول في سكون الليل وهدوئه في حبيبها الرحال ومصيره الذي إنتهى إليه :-

هددوني من أجل لبس الحداد لحبيب أردوه لي بالحداد

رحم الله من يجودُ بدمع أو ينوح على قتيل الأعداي

وسقته بمثل جود يديه حيث أضحي من البلاد الغوادي (٢)

يقول لويس دي مياكومو **Louis di Giacomo**

إنه مما لا ريب فيه إنها غادرت بلدها وذلك بعد أن ضاقت بغرناطة وبعد
استقرارها بمراكش فنجدتها قد لظمت الصمت فلا تحكي عن حياتها شيئاً وعاشت
على ذكرى الحبيب الراحل بمراكش سنة ٥٨٦ هـ (٣) إنتهت حياة تلك النفس
الشاعرة فاخفتت من الحياة واخفتت معها الكلمة الموحية والحروف المعبرة عن
واقع حب عميق الغور عاشته الشاعرة وانتهى بمأساة جفت بعدها الكلمات فعاشت
للحرقة والألم والحزن إلي أن طواها الردى رحمها الله .

٥ / أم العلابنت يوسف الحجارية

شاعرة عاشت في القرن الخامس الهجري تعرف بالحجارية نسبة إلي بلدها
وادي الحجارة وهو واد نبد فيه عدد من الشعراء والأدباء ووادي الحجارة قريب
من مدريد وكانت أقرب المدن إليه طليطية وإن لم يكن بلدها خصيب الأرض فهو
بلاشك خصيب في إنتاج الشعر فهي شاعرة رقيقة بارعة محسنة في نسيج شعرها
وانتقاء ألفاظها ومعانيها لقد قدم الأدب شاعرين بارعين هما حفصة وأم العلابنت

١ تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي ص ١٠٥

٢ نفع الطيب ص ١٧٦

٣ لويس دي جياكو الشاعرة الغرناطية في عصر المرابطين حفصة بنت الحاج ط باريس ١٩٤٩م ص ١٢٥

يوسف الحجارية وكانت ممن تفخر ببلدها ومن شعرها قولها تتحدث عن الحبيب
الذي بوجوده يصبح الزمن جميلاً رقيقاً وبدونه لا يكون للحياة طعم .

كل ما يصدر عنكم حسن وبعلياًكم تحلى الزمن
تعطف العين على منظركم وبتذكراكم تلذ الأذن
من يعيش دونكم في عمره فهو في نيل الأمانى يغبن

جمعت الابيات بين المديح والعطف والحنان وفي حياء المرأة طرحت معانيها في
تواضع فهي تهمس بغزلها في صوت هادي واحساس مرهف .
هام بها رجل مسن فطلب يدها وعند ذلك كتبت إليه تقول :-

الشيبُ لا يخدع فيه الصبي بحيلة فأسمع إلي نصحي
فلا تكن أجهل من في الورى يبيت في الجهل كما يُضحى

ولا تخلوا أم العلامن الملاحه والإطراء في أشعارها وخطت بشيء من الحكمة
فردت عليه في هدوء وسكينة.

فهي فخورة بواديتها فرسمت صورة خلاصة جذابة لقصب واديتها لقد جعلته
يتمايل مع النسيم وترتكز قوائمه الواحد تلو الآخر فهي صاحبة قدرات ليس في
مجال الغزل فحسب وإنما في وصف مباحج الحياة. فلها القدرة والملكة الفنية في
التلاعب بجمال الألفاظ ولوحنتها الفنية التي رسمتها في وصف الطبيعة ووصف
بستانها الذي أعجبت بمنظره فقالت :-

لله بستان إذا يهفو به القصب المندى
فكأنما كف الريا ح قد استندت بنداً فبندا
وفي إعتذار ولطف أباحت لذاك الزائر الذي طرأ على قلبها
فمال إليه

أفهم مطارح أحوالي وما حكمت به الشواهد واعزرنى ولا تلم
ولا تكلني إلي عذر أبينه سر المعاذير ما يحتاج للحكم

وأم العلاء فيها تعفف وكبرياء أنها تود أن تكون كغيرها تعيش كما يعيش النساء
من اللهو والغناء والشراب ولكن لها من العفاف ما يمنعها ويكشف لها سوء ما
تفكر ومن ثم يمنعها إياؤها فنقول

لولا منافرة المدا مة للصباية والغنا

لعكفت بين كؤسها وجمعت أسباب المنى

وأم العلاء شاعرة وادي الحجارة تعتبر لوناً خاصاً تختلف عن غيرها من
الشاعرات فهي أقدرهن حياءً وارقهن غزلاً مع بساطة في شعرها وعزوبة في
ألفاظها.

٦/ زينت المرية

هي ابنة أحد مشاهير العرب ولدت بالمرية من أعمال الأندلس وهي اديبة
شاعرة ذكرها المقري دون ذكر ولادتها او وفاتها أو ذكر إبيها كانت ذات حسن
وجمال وبهاء وكمال وأدب وظرف وتهذيب ولطف رقيقة المعاني جزلة الألفاظ .
والمرية مدينة عظيمه لأنها تمثل أسطول المسلمين الذي خاض المعارك الحربية
أمام الفرنجة الذين أبدوا جدارتهم في التعامل مع البحار فقد كانت البحرية
الإسلامية آنذاك في أول عظمتها .

فأهل المرية أهل ثراء لهم متاجر وزخائر ومصانع النسيج الفاخر ولكن المدينة
نفسها تقع في منطقة جرداء لذلك اختلف مزاج الشعراء فمنهم من قال :

بئس المرية اليوم داراً ليس فيها لساكن ما يحب

بلدة لا ثمار إلا بريح ربما قد تهب أولاً تهب

وقال آخر

ياوافدي شرق البلاد وغربها أكرمتما خير الوفاة فأربطها

ورأيتما خير البرية قاطباً ورردتما أرض المرية فأخططها

ويبدو من قول الشاعر الثاني أن المرية الناعمة المليئة بالخيرات بحيث تشد إليها
الرحال وعصر المرية معروف بأنه عصر ذهبي في ظل إمرائه بني صمادح^١

لقد تحدثت زينب المريفة في صدق عن صاحبها وقدمت شعراً ناضجاً كل
النضوج نابضاً بالحياة في غير عسر صادق الحس في غير جفاء . فقالت
يا أيها الراكب الغادي لطيفته عرج إنبتك عن بعض الذي أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم إلا ووجدى بهم فوق الذي وجدوا

حسبي رضاه وأني في مسرته ووده آخر الأيام اجتهداً
ولم نعثر على المزيد غير هذه الأبيات الثلاثة والتي تعبر عن الطاقة الشعرية
الكامنة في جوانح زينب .

٧ / قسمونه بنت إسماعيل

شاعرة رقيقة عاشت في القرن السابع وهي غرناطية ظهرت من بين يهود
الأندلس ولم يذكر المقرئ شيئاً عن بلدها أو زمنها. وتبدأ قصة نبوغ قسمونه
حينما ينشد أبوها ذات يوم أجزى فتجيد البيت في حرق ومهارة فيقول أبوها وقد
أعجب بها أنك أشعر مني أما البيت الذي قاله والدها هو :-

لي صاحب ذو بهجة قد قابلت منعاً بظهر واستحلت جرمها
فما لبثت قسمونه غير قليل ثم نطقت :-

كالشمس منها البدر يقبس نوره أبدأ ويكشف بعد ذلك جرمها
إن قسمونه أشعر من أبيها دون ريب في هذا البيت على الأقل ويبدو أن الفتاة قد
مضى زمانها ولم تتزوج قط فنظرت إلي المرأة فرأت أن قسمات الشباب قد ولت
فأنشت تقول :-

أرى روضة قد حان منها قطافها

وليست أرى جان يمد لها يداً

فوا أسفاً يمضي الشباب مضيماً

ويبقى الذي ما أن أسميه مفرداً

وتمضي قسمونه على رسلها في الشكوى بإسلوب رشيق وعبارة غنائية
ومعان حزينة وذلك عندما وقع بصرها على ظبية كانت تقتنيها فتقول مخاطبة
أياها

ياظبية ترعى بروض دائماً

وإني حكيت في التوحش والخور

أمسي كلانا مفرداً عن صاحب

فلنصنبر أبدأ على حكم القدر^١

٨ / عائشة بنت أحمد القرطبية

شاعرة رقيقة جريئة أدبية وينقل المقرئ عن الأجزاء المخطوطة من المقتبس أنه لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة عاشت في أوائل القرن الرابع (١) .

الأدب النسائي يبدو واضحاً وظاهراً في أدبيات وشاعرات يملأن صفحاته ويشعن فيه الإزدهار والانتعاش والتقدم والرفي . إذ كانت مجالسهن تعج بالشعر الجيد العذب وترتفع فيها أعذب الأنغام ويمتلئ جوهاً بعبيره وطيبه ومنهن من كانت لها مدرسة للنقد والتوجيه والتعلم . فهذه عائشة بنت أحمد القرطبية الأندلسية وتخطبهم وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وماتت عذراء عام ٤٠٠ هـ وقيل في الغرب أنها من عجائب زمانها دخلت على المظفر ابن المنصور ابن أبي عامر وبين يديه ولد له . فقالت له على البديهة .

أراك الله فيه ما تريدُ ولا برحتُ معاليه تزيدُ
فقد دلتُ مخايلةً على ما تؤمله وطالعةُ السعيدُ
تسوقت الجيادُ له وهز الحسام هوى واشرقت البنودُ
وكيف يخيبُ شبلٌ قد نيمته إلي العليا ضراغمه أسودُ
فسوف تراه بدرأ في سماء من العليا كواكبه الجنودُ
فأنتم آل عامر خيرُ آل ذكا الأبناء منكم الجدودُ
وليدكم لدى رأي كشيخ وشيخكم لدى حرب وليدُ (٢)

فخطبها بعض الشعراء فرفضتهم وكتبت إليه رسالة تعاتبه فيها وأنه لم يرض طموحها الأدبي والاجتماعي .

ومن وحي المعاني التي نظمها عائشة القرطبية فقد أخذها شاعر أندلسي كبير على عهد المرابطين هو أبو بكر الأبيض الذي اشتهر بالهجاء متأثر بكلماتها وسار على منوال ما نسجته فقال في مولود:-

يا خير معن وأولاها لله نعماء عنها الدهر قد نعسا

(١) نفع الطيب ج ٦ ص ٢٦ نقلًا عن المقتبس

(٢) نفع الطيب ج ٦ ص ٢٦

ليهنك الفارسُ الميمون طائرهُ لله أنت لقد أذكيتَه قيسًا
أصاحت الخيلُ أذانا لصرخته وارتاح كل هزبرٍ عندما عطسا
تعلم الركود أيام المخاض به فما إمتطى الخيل إلا وقد فرسا
تعشق الدرع إذا شدت لفائفه وأنكر المهد لما عاين الفرسا
بشر قبائل معن أن سيدها قد أثل الملك بالمجد الذي غرسا (١)

الآبيات بلاشك مأخوذ من فكرة أبيات عائشة في مولود ابن المنصور بن أبي عامر . ففيها مبالغة وطرافة ودعابة وبسطة فالشعر عندما يأتي عفو الخاطر في سلاسة ولطف دون عناء " ولم يؤثر أي قول من شعر الغزل عن عائشة وهذا أمر يسير الاستنتاج من سيرتها واستقامتها إلي الحد الذي وقع بها إلي العزف عن مخالطة الرجال والامتناع عن الزواج أما من الناحية الفنية فلا نكاد نخطي سمات القوة وملامح الخصوبة في شاعريتها في نطاق المحافظة الكاملة على النمط الشعري المبكر " (٢).

لقد بلغت الذروة في التعبير عن آلام الشيخوخة وهمومها تعبيراً لم يستطع كثير من الشعراء أن يصلوا إلي مقامه في دقة التصوير .

(١) المغرب جـ ٣ / ص ٣٩

(٢) أنظر سيرتها في أخبار الأندلس لابن حبان القرطبي / تحقيق عبد الرحمن الحلي / دار الثقافة بيروت ط / ص ٢٥٦

٩/ مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري

أديبة شاعرة عاشت في القرن الخامس سكنت أشبيلية واصلها من شلب مشهورة
كانت تعلم النساء الأدب واشتهرت به بعد الأربعمئة بعث إليها المهند يوماً دنائير
وكتب إليها

مالي بشكر الذي أوليت قبـل لو أنني نطق اللسن في الخلل
يافذة الظرف في هذا الزمان ويا وحيدة العصر في الخلاص في العمل
أشبهت مريماً العزراء في ورع وفتت خنساء في الأشعار والمثل (١)
وأجابته بقولها :

من ذا يجاريك في قول وفي عملٍ وقد بدرت إلي فضل ولم تسل
مالي بشكر الذي نظمت في عنقي من اللآلي وما أوليت من قبل
حليتي بحلي أصبحت زاهية بها على كل أنثى من حلي عطل
لله أخلاقك الغر التي سيققت ماء الفرات فرقت رقه الغزل
أشبهت مروان من غارات بدائعهُ وأنجدت وغدت من أحسن المثل
من كان والده العصبُ المهند لم يلد من النسل غير البيض والأسل (٢)

وتبلغ شاعرتنا مريم من الكبر عتياً فلا تعود تستطيع المشي إلا بواسطة
العصا حينذاك شعرت بحسرة تعصر فؤادها وتحس بأسى يستبد بنفسها فتقول
مترجمة أحاسيسها الجريحة ومضورة حالة الشيخوخة كأحسن ما يكون التصوير
فتجعلنا وكأننا نشاهدها كما نشاهد لوحة زيتية لفنان بارع يتقن توزيع الألوان
ووضوح الخطوط وقد رق عظمها وتهلل جلدتها وأخذت تمشي على مهل مستعينة
بالعصا كما لو كانت مكبلت القدمين تهزهما ببط شديد شأن الأسير السجين غلت
قدمها والشيخوخة لا شك قيد للإنسان قالت تصور حالها :-

وما يرجي من بنت سبعين حجة وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى إلي العصا وتمشي بها مشي الأسير المكبل

(١) الزعمية ج ١ - ٢٧٩

(٢) المغرب ج ٣ - ٢٥٦

١٠ / أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح

لم تتحدث المصادر عن تاريخ ميلادها ووفاتها فقد عنى أبوها بتأديبها وذلك لما لاحظته فيها من الذكاء والرغبة في نظم الشعر والموشحات وقد أتم شعرها الغزلي بالعمق وعدم الوقار مع الرقة والكبرياء فكانت تصرح بحبها وخلوتها بحبيبها وذلك الذي أخرجها من مما تلوذ به من أناه واحتشام سوى فتى من فتيان قصر أبيها عرف بالسحار كما فعلت (عليه) بنت الخليفة المهدي وأخت الخليفة الرشيد مع فتاها فرددت شعرها في صراحة ورددتها التاريخ بعدها ولعل قلوب الأميرات ارهف من بنات عامة الشعب تقول أم الكرام في فتاها :-

يامعشر الناس ألعجبوا مما جنته لوعة الحب
ولولاه لم ينزل ببدر الدجي من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه فارقتي تابعه قلبي

أنه غزل صريح وجري يصدر من امرأة لا يغيب عليها الحياء في شاب تقع في حبه . زيادة على أنها نسجت في فن التوشيح الأمر الذي جعل منها فنانة بارعة وأديبة بارزة^١.

وإن كانت نسجت على منوال كثير من مشارق العشاق في قولها

ألا ليت شعري هل من سبيل لخلوة ينهزه عنها سمع كل مراقب
ويا عجباً أشتاق خلوة من غدى ومثواه ما بين الحشا والترائب

فأم الكرام شاعرة حسنة التعبير وبيتها الأخير من أجود الشعر وأرقه وأعذبه . لقد طرقت الشاعرة الأندلسية الحرة أعذب معاني الشعر المقرون بالحرمان والغزل الموعغل في الشكوى وذلك في إبداع فني وجمال في الألفاظ والمعاني إزدانت به لوحة الأدب النسائي في صورها ومسيقاها وألحانها .

المجلة الثانية

الشاعرات القبان الوافدات

١ / قمر البغدادية

٢ / حسنة التميمية

٣ / الجارية العجفاء

٤ / فزهون

الشاعرات القيان الوافدات

١ / قمر البغدادية (جارية إبراهيم بن الحجاج)

جارية بغدادية وفدت إلي الأندلس مع من وفد عليها من النساء المشرقيات .
كانت قمر قينة جميلة رفيقة جمعت الظرف إلي الأدب والحفظ مع الرواية مع فهم
بارع وفصاحة وبيان وإيقاع .

عبرت عن الحكمة في صدق فصاغت أحياناً تفيض رقة وعزوبة . عاشت في
أشبيلية في القرن الثالث وهي جارية لإبراهيم الحجاج الذي كان يستقبل الشعراء
يمدحونه فيجزل لهم العطاء ومن الذين مدحوه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد
الفريد وقد توفي إبراهيم عام ٢٨٨ هـ . (١)

من شعرها في مدح مولاها مصورة مدى فضله عليها وجوده العميم ورقة
معاملته الحسنة فأنشدت تقول .

مافي المغرب من كريم يرتجى

إلا حليف الجود إبراهيم

إني حلتُ لديه منزل نعمة

كل المنازل ما عداه سقيم (٢)

إنها تحية بارعة من قينة ذكية مدربة على حسن القول ورقة الكلمات وحفظ
الود الجميل . وحب الوطن غريزة راسخة في الكيان الإنساني وهو أغنية عذبة
حلوة تردها الألسن في تشوق ووفاء وذكرى عطرة وإخلاص فمهما طاف
الإنسان بأرجاء البلدان وعاش أياماً هائلة فإنه يحس بإنجذاب سحري وحنين دفاق
إلى مدارج الصبا ومسارح الأنس والطفولة حيث الطهر ونقاء السريرة والصفاء
الروحي .

وفي مرارة وحزن بكت الغربية ولوعتها واشتاققت إلي بغداد مدينة السحر والجمال
وتحسرت في ألم ولوعة على فراق العراق فعاودها الحنين إليها
فقالت :

أها على بغداد وعراقها

وظبائها والسخر في أحداقها

(١) أعلام الإعلام لسان الدين بن الخطيب / تحقيق ليفي برونسال / طبعة بيروت ١٩٥٦ م ص ٦٤

(٢) الشعر الأندلسي بما في تطوره خصائصه / أميلو جارسية جومس / ترجمة الدكتور حسن مونس سلسلة الألف كتاب القاهرة .

ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلكها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأي محاسن في الدهر تشرق من سنا إشراقه (١)

لقد بدأت أبياتها بأهات حزينة على بغداد وجمالها ومواطن السحر فيها أنها الغربية وما أقساها حينما يشتاق الإنسان إلي الرفيق والأنيس الذي تسر رؤيته. لقد ترجمت مشاعرها وحبها تجاه بلدها بغداد في كلمات رقيقة جمعت بين الصبابة والحسن والصور الناعمة والوجوه الصبوحه التي تبدو كالأهله . فأودعت كلماتها مكنون تلك النفس المفارقة وجمعت بين حسن الإيقاع والسحر والنغم .

٢/ حسنة التميمية :

هي حسنة بنت أبي الحسين الشاعر وكانت من أهل البيره ونحن لا نعلم على وجه التحديد شيئاً عن ميلادها ووفاتها وإنما نعرف أنها مدحت الحكم بن هشام ومات الحكم عام ٢٠٦ هـ . أذن من اليسير أن نستنتج أنها عاشت في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ونفرض أنها ولدت عام ١٥٤ هـ ثم توفيت ولها مائة سنة فتكون سنة وفاتها حينذاك هي ٢٥٤ هـ

حياتها وشعرها :-

أبوها أبو المخشي نشأت نشأة الطهر والعفاف توفى أبوها فتركها في رعاية الأقدار لم تجد من تلجأ إليه . تأدبت حسنة علي يد أبيها الذي كان أيضاً شاعراً ولما مات لجأت إلي الحكم أمير الاندلس وكانت وسيلتها إليه تلك الأبيات.

إني إليك أبا المعاصي موجهة أبا المخشي سفته الواكف الديم
قد كنت أرتع في نعماه عاكفة فاليوم آوي إلي نعماك يا حكّم
أنت الأمام الذي أنقاد الأنام له وملكتة مقاليد النهي الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً آوي إليه ولا يعوزني لي العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً حتى تذلل إليك العرب والعجم (١)

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته وأمر لها بإجراء راتب وكتب إلي
عاملة جابر بن ليبيد على البيره فجهزها بجهاز حسن غير أنه لما مات الحكم نالها
بعض الضنى من عامل بلدها جابر بن ليبيد الذي لم يحرر لها أملاكها ولم ينفذ ما
خطة الحكم لها بيده في هذا الشأن فجاءت إلي الامير الجديد عبد الرحمن الأوسط
وانشدته قصيدة منها

إلي ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي إنه خير جابر ويمنعني من ذي الظلمة جابر
فإني وإيتامي بقبضة كفه كذى ريش أضحي في مخالبا كاسر
جدير لمثلي أن يقال مروعة لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاء الحيا لو كان حياً لما أعتدى على زمان باطش بطشش قادر
أيمحو الذي خطته يمانه جابر لقد سأم بالأملاك إحدى الكبائر
فلما فرغت من قصيدتها رق لها فعزل الوالي وأقرأها على أملاكها وأمر لها
بجائزة فانصرفت.

إن شعرها مزيج من الرثاء والشكوي والمدح وطلب العون وتبدو عليه
السمات الاندلسية المميزة فأبيات القصيدة تموج بالعاطفة الصادقة وهي على درجة
كبيرة من التجويد الفني فقد استخدمت الألفاظ دون تصنع وحمدت إلي الوالي
صنيعه وبعثت إليه ببعض أبيات تقول فيها.

إين الهاشمين خير الناس مائرة وخير منتج يوماً لرواد
إن هزّ يوم الوغى أثناء صعده روي أنابيهها من صرف فرصاد
قل للإمام أيا خير الوري نسباً مقابلاً ما بين آباء وأجداد
جودت طبعي ولم ترض الظلمة لي فهاك فضل ثناء رائح غاد
فإن أقيمت ففي نعماك عاطفة فإن رحلت فقد زودتني زادي (٢)

ولننظر إلي قولها في صورة رائعة ولوحة فنية تمثل الظلم والقهر :-

فإني وإيتامي بقبضة كفه كذى ريش أضحي في مخالبا كاسر

(١) أنظر الشعر الأندلسي ص ٣٢

(٢) المغرب في حلي المغرب / تحقيق شرفي ضيف / ط مصر ١٩٦٢م / ص ١٣٤

وشعر حسانة يتسم بالأصالة والصدق ففيه كثير من طبيعة المرأة ولا شك أنها
حينما تحتاج إلي الحماية وتفزع من القهر فنجدها قد صاغت كلمتها في صدق
خائفة متوجسة تنشد الأمان وصغارها . ويغلب على شعرها عمق الوعي وقوة
الإدراك لعيوب الناس وقوة الإحساس بالمرارة والقسوة . وتنسج قصيدتها على
حبات من الدموع المترقرقة ترحماً على حاميتها .

٣ / الجارية العجفاء

من اللاتني و فدن إلي الأندلس وفيهن من المواهب الأدبية ما يجعل لهن
الصدارة في المجالس والتقدم في الأندية والسمو في المكانة والاعتبار عند أهل
الفضل .

عرفت بالجارية العجفاء وقد كانت بالفعل ضعيفة هزيلة نحيلة وربما لأن سيدها
الذي اشتراها كان رجلاً فقيراً اسمه مسلم بن يحيى ومولى بني زهرة وكان يسكن
معها في بيت صغير . (١)

ومن الطرائف ان عبد الرحمن الداخل عندما سمع بأدبها وفنها بعث إلي
صاحبها فأشترها وحملت إليه ومن المعروف أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل
توفى عام ١٧٢ هـ (٢) .

لقد كانت الجارية العجفاء تتقن قول الشعر والغناء وتعودت على الشعر الوجداني
الذي يخطاب العاطفة ويهز المشاعر . ومن قولها لها :-

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تقريح ما ألقى من الهم (٣)

وتناولت عودها مرة وغنت في بيت سيدها

برح الخفاء فايما بك تكتم ولسوف يظهر ما تسر فيعلم

مما تضمن من عزيز قلبه يا قلب إنك بالحسان لمغرم

ويا ليت أنك يا حسام بأرضنا تلقى المراسي طائعا وتخيم

فتذوق لذة عيشنا ونعيمة ونكون أخونا فما ذا تتغم (٤)

يقول الأرقمي أنه بعد سماعه هذه الأبيات زحف مع أبي السائب على الأرض
متجهاً إلي العجفاء وربت في عينه . ثم غنت :-

يا طول ليلى أعالج السقما أدخل كل الأحبة الحرما

ما كنت أخشى فراقكم أبداً فاليوم أمسى فراقكم عزماً

(١) المعجب في تلخيص أخبار العرب / لعبد الواحد المراكشي / تحقيق محمد سعيد العريان / القاهرة ١٩٤٧ م / ص ١٣٦

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣٨

(٣) النفع الجزء الرابع / ص ١٤٠

(٤) النفع الجزء الرابع / ص ١٤٠

وكانت الجارية العجفاء تسعى لكي توفر لجيلها حياة مهذبة لطيفة تسودها السعادة
والحب والأمل والرجاء والأمن وإلا استقرار والطمع والرغبة .
فالمراة الأندلسية كان لها إعتادها بنفسها كان الحكام الاندلسيين من أمراء بني
أمية يشترون الجواري الأدبيات المدربات على حفظ الشعر والغناء والعزف على
أوتار العود والإنشاد الأدبي وهكذا كانت العجفاء .

٤ / نزهون بنت القلاعي الغرناطية :-

شاعرة مرحة حلوة الحديث ذات طبع ندي ونفس شفافة عرفت بسرع الجواب وحضور البديهة واستظهار النوادر وضرب الإمثال مع جمال في الصورة فائق وحسن، رائق ، نزهون هناك من يسميها القلعية نسبة إلى القلعة وهي البلدة التي وفد منها أهلها ولفظ نزهون لفظ أندلسي خالص فقد عمد الأندلسيون إلى التسمية على هذا الوزن لأبنائهم من ذكور وإناث فسموا نزهون بين النساء وسموا زيدون (١) أو وهبون وحمدون بين الرجال .

ومهما يكن الأمر فهي شاعرة المدينة الأندلسية عاشت في القرن الخامس الهجري كما ذكرها صاحب المغرب وكانت تسعى إلي مجالس الوزراء تعبق جوها وتثير فيه نشوة سكرى . وروى أنها كانت تقرأ يوماً على أبي بكر المخزومي الأعمى فدخل عليهما أبوبكر الكندي فقال مخاطباً الشاعر المخزومي .
لو كنت تصبر من تكلمه .

وصمت المخزومي برهة يفكر ولكنه لم يستطع أن يجد جواباً وبسرعة فائقة أجابت نزهون :-

لغدوت أحرص من خلاخله

والبدن يطلع من أزرته والغصن يمرح في غلائله (٢)

وهكذا كانت نزهون أسرع بديهية من الشاعر الكبير فقد برعت في رسم الصورة في رصانة وحسن استغلال للمناسبة . فقد بدأت الشاعرة بالهجاء مهاجمة له ولكن في نهاية الأمر أصبحت صديقتين ، ولرقة طبع هذه الشاعرة وخفة ظلها كلف أصدقائه بها بمحادثتها ومراسلتها فكان أبوبكر بن سعيد الوزير من الذين شغفوا بها وقد كتب لها يوماً يقول :-

يا من له ألف خيل من عاشق و صديق (٣)

أراك خليت للناس منزلاً في الطريق

(١) المقرب / ج ١ / ص ٢٢٢

(٢) الفتح ج ٦ / ص ٣١

(٣) المختار من المستطرف ص / ٢٢٥

فأجابته أن مكانته لا تعلوها مكانة لأنه مقدم عندها على الآخرين فطمئنته وهدأت
من روعة وكان بينهما روابط عشق وتؤكد له أنه الحبيب الذي شغل كل
مشاعرها فأجابته بقولها :-

حالت أبا بكر محلاً منعته سواك وهل غير الحبيب له صدري
وإن كان لي كم من حبيب فإنما يقدم أهل الحق حب أبي بكر
وفي إحدى مجالس أبي بكر بن سعيد الوزير والذي كانت تدار بينها مناقشات
أدبية وعلمية يتصدى لنزهون الشاعر أبو بكر المخزومي الهجاء السليط اللسان
فهو ينطق سجيته قائلاً كذبت، ما هذا صوت عجوز وإنما هذه نغمة :- وهنا
يتدخل الوزير الأديب صاحب المنتدى لينقذ صاحبه من هذا الهجاء قائلاً له :-
هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة فيجييه المخزومي والغضب ملء ثوبيه "
سمعت بها لا أسمعها الله خيراً"

فقالت له نزهون يا شيخ سوء تناقضت ، وأي خير للمرأة مثل ما ذكرت. فتصدى
لنزهون وأشبعها هجاءً من غير تحفظ والوزير ينصت إلي ذلك ومما قاله فيها .
على وجه نزهون من الحسن مسحةً وإن كان قد أمسى من الضوء عارياً
قواصد نزهون توارك غيرها ومن قصد البحر استغل السواقياً
والبيت الأول استوحاه المخزومي من بيت لذي الرمة في الهجاء "لمي" وبيت
للمتنبى معرض فيه لسيف الدولة ولعله من الأبيات النادرة التي يعبر فيها المتنبى
بأميره الحمداني ويمدح كافوراً
ولكن نزهون ما كانت لترضى بالهوان فأنشأت تقول رداً عليه وتثار لكرامتها
الجريحة المهانة فقالت.

قل للوضيع مقالا يتلى إلي حين يحشر
حيث البداة أمسيت في مشيها تتبختر
لذلك أمسيت صبأ بكل شيء مدور

خلقت أعمى ولكن تهيّم في كل أعور
إن كنت في الخلق أنثى فإن شعري مذكر

ويبدو أن المخزومي ليس بالشاعر الهين اللين العريكة الذي يستسلم لها ويعلم
هزيمته وفشله لذلك رد عليها بأبيات بذيئة في جملتها.
ولما رأى الوزير أن الأمر سوف يتفاقم ويزداد حداً من السوء أقسم أن يكف عن
السباب

وتقول نزهون رداً على الهجاء فيها .

إن كان ما قلت حقاً من بعد عهد كريم
فصار ذكرى نميمياً يعزي إلي كل لوم
وصرت أقبح شيء في صورة المخزومي

سألها مرة ثقيل الظل وقد بهره جمالها وفتن بها فقال لها ما على من الحل معك
خمسائة سوط؟! ، أي أنه على استعداد أن يتقبل منها كل أنواع العذاب ولكنه لم
يحسن التعبير بل خانته فجاءت كلماته كالقذيفة في إذن نزهون فلم تستلطفها
فأجابته برقة وعضوبة تدل على أنها أنثى فقالت :-

فقلت له كلها هنيئاً فأنما خلقت ألي لبس المطارف والشرب
ونزهون لم تترك فرصة تمر دون أن تسجل لقاءً جميلاً عطرت به بصيغة التعجب
وفي ليلة من ليالي الأحد مع حبيبها بعيدين عن أعين الرقباء حيث الجو الناعم
وفي جراءة انشددت

لله در الليالي ما أحسنها وما أحسن منها ليلة الأحد
لو كنت ما ضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم ننظر إلى أحد
ومهما يكن فشعر نزهون يدل على أصاله وموهبة عالية بالشعر الزائق
الذي إختارت ألفاظه من محيط نشأتها ومجتمع المدينة الذي عاشت فيه فألفاظها قد
تسرق حيناً وتلين . وفي أخرى يميل إلى الانحراف والخشونة وهي صاحبة منتدى
ادبي يتبارى فيه مشاهير الأدباء والشعراء مثل الوزير ابي بكر بن سعيد والأعمى
والمخزومي الذي يلقب ببشار الأندلس .

(٤ - ٣) الشاعرات الإماء

١ / الغسانية البجانية :-

شاعرة من شواعر بجانة بالنون نسبة إلي هذه المدينة . عاشت في القرن الرابع الهجري كما يقول المقري في النفع .

عاشت عصرين ، عصر الخلافة في أواخره ، وعصر ملوك الطوائف مدحت خيران العامري ، وخيران هذا من موالى العامريين ، حكم المرية ، ومرسية ، من سنة ٤٠٥ الي ٤١٩ هجرية . ولا ريب أن الشاعرة قد سلخت أعواما من عمرها في القرن الرابع الهجري وشاهدت فترة الخلافة ولا سيما أيام حكم محمد أبي عامر الملقب بالمنصور وهو ما يسمى بعصر الحجابة^١ .

والغسانية لها قصيدة رائعة لم تصلنا منها إلا أبيات هي عبارة عن مقدمة للمدح في الأمير خيران العامري وقد عارضت بها الشاعر أبا عمر أحمد بن دراج القسطلي الشاعر الأندلسي المشهور في قصيدة طويلة نونية قالها في نفس الأمير يقول فيها :-

لك الخيرُ قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد وافاك عز وسلطان
هو النجمُ لا يدعى إلي الصبح شاهدُ هو النور لا يُغى على الشمس برهانُ

تقول الغسانية :-

أتجزع إن قالوا ستظعن أظعان وكيف تطيق الصبرَ ويحك إن بانوا
فما بعد إلا الموت عند رحيلهم وإلا فعيش تجتني منه أحزانُ
عهد تهم والعيش في ظل وصلهم أنيق وروض الدهر أزهر ريان
ليالي سعد لا يخاف على الهوى عتاب ولا يخشى على الوصل هجران
ويسطو بنا لهوا نعتق المنى كما إعتقت في سطوة الريح أفنان
ألا ليت شعري والفراق يكون هل تكونون لي بعد الفراق كما كانوا^٢

^١ النفع ص ٢٦٥ .

^٢ المختار من الشعر الأندلسي ص ٢٥٦ .

شعر الغسانية البجانية قليل وربما يكون هناك مورد آخر كمن بين طيات مصدر مطبوع أو مخطوط لم أتمكن من الحصول عليه وربما ضاع شعرها مع ما ضاع من الشعر النسوي وما وصلنا على قلته يعتبر في مستوى الجودة .

كلمات رقيقة أودعتها الشاعرة ما استطاعت أن تودع من أسرار فنها وروعة شاعريتها بين حسن إيقاع وسحر ونغم وفيها أيضا عمدت إلي وصف الجزع عند فراق الأحبة وإنطلقت إلي العزف على الأوتار التي تترقق لها القلب ورحيل الأحبة يعني الموت الذي لا غاية ولا أمل بعده ثم تتطلق إلي وصف أيام الوصل وليالي السعد والهناء وأمنيته أن تعود المياة إلي مجاريها . ويكون هناك لقاء بعد فراق . كلماتها بلا شك كالينبوع الصافي الدلال المتفجر بالمعاني والعواطف والأساليب والموسيقى والإيقاع والنفس الطويل الحزين والغوص العميق الصعب فجاءت تلك النونية معرضا للعواطف والأحسايس في كل حالاتها.

٢ / حفصة بنت حمدون الحجارية :-

حفصة شاعرة لها باع طويل في مجال الشعر عاشت في وادي الحجارة وهو واد نبع منه عدد كبير من الشعراء والأدباء . وهي من أصل المائة الرابعة ، يعني من أهل القرن الرابع^١ .

ويبدو ان حفصة نشأت في بيت ثري وكانت ذا مال وعبيد فهي تقول
شاكبة من عبيدها :-

يا ربّ إني من عبيدي علي جمرٌ الغضا وما فيهم من نجيب
إما جهولٌ أبلّة متعب أو فطن في كيدة لا يجيب

والبيتان على بساطتهما لا يخلوان من صنعة بديعية فقد طبقت بين
الجهول والفظن و الجناس يجيب ونجيب ومن قولها تمدح أحد العظماء وإسمه
إبن جميل
فقال :-

رأى إبن جميل أن يرى الدهر مجملا فكل الوري قد عمهم سيب نعمته
له خلق كالخمر بعد إمتزاجها وحسنٌ فما أحلاه من حين خلقتة^٢
وفي كبرياء المرأة ذات الجمال وإظهار الشخصية أشدّت تقول :-
لي حبيبٌ لا ينثني بعتاب وإذا ما تركته زاد تيتها
قال لي هل رأيت لي من شبيهه؟ قلت أيضا وهل ترى لي شبيها

إنها معادلة طريفة بين حبيبين كل معتد وفخور بنفسه وفي خيلاء وكبرياء
إختارت حفصة كلماتها فأحسنّت نسيج شعرها وقد طرقت مجالا واسعا في الغزل
فهيأت الطريق للشاعرات بعدها . فشعرها بوح جميل يتسلل عذبا لطيفا سهلا إلي
القلوب يحمله حوار جميل يشكل أجانا تتناغم تناغما يبرز دلال المرأة وزهوها في
صورة رصينة رحية . فنظمت أبياتها في نزوة من الدلال وزهو الإفتخار
بالجمال . وتقول في وحشة الأحبة المتمادية والليلة التي ودعتهم فيها بعد الفراق
وهي جريحة النفس مؤرقة الجفن :-

^١ الإحاطة ، ج ٢ - ص ٢٧ .

^٢ نفع الطيب ج ٦ / ٢٢ .

يا وحشتي لأحبتني يا وحشةً متماديةً
يا ليلةً ودعتهم يا ليلةً هي ما هيةً

٣ / حمدونة بنت زياد المؤدب :-

شاعرة رقيقة من أهل اللطف والجمال وتعرف ب (حمدونة) أيضا أبوها زياد بن بقي العوفي يطلق عليها خنساء المغرب كما جاء في المغرب والنفح^(١) عاشت في أوائل القرن الخامس على الزغم من إنها لم تشتهر بقول الشعر الرثائي ، ولكن سبب هذا اللقب يرجع إلي جودة شعرها وحرصانة تركيبية والقدرة الفنية التي تتوفر عليها كما توفرت عند خنساء بني سليم وهي من (وادي آش) روي عنها أبو القاسم بن البراق من شعرها الجميل قولها مصورة أناها التي جاءت نتيجة الفراق والبعد الذي تسبب فيه الوشاة من غير ذنب إقترفته أو ثار لها عندهم

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسمعنا كل عارة وقل حماتي عند ذلك وأنصاري
غزوتهم من مقلينك وأدمعي ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وقد نسب بعض هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرازق الغرناطية كما يقول المقرئ^(٢) (بيد أني أرجح نسبتها لحمدة وذلك لإشتهار حمدة برقة الشعر وحلاوته . ولمعرفتها بسبك الكلمات في قلب ساحر وذلك ما يتجلى في الأبيات السابقة . إضافة إلي ذلك فإن الأبيات أنسبتها لحمدة المصادر المعتمدة في الموضوع . أما المقرئ فمن الممكن أنه لم يعر الأمر إهتماما إلا بعد أن إطلع على المضادر التي تسني له الإتصال بها كالمغرب لابن سعيد والحجاري وآخرون والتكملة لابن الأبار والإحاطة للسان الدين بن الخطيب فوجد في الأبيات على إختلاف الروايات بين هذه المصادر لحمدة فقل عن الرجوع إلي تصحيح نسبتها وربما يرجع ذلك إلي كثرة تشابك الأحداث التي حوaha النفح .

(١) النفح ج ٤ ، ص ٢٨٢ / المغرب ج ٢ ، ص ١٢٨ .

(٢) الأغان ج ٢ ، ص ١٥ .

(٤) غاية المنى :-

وهي كما يبدو من إسمها جارية عاشت في القرن الخامس الهجري فكثير منهم لم يولدن بهذه الأسماء وكثير منهم روميات الأصل أو صقليات وأحيانا صربيات فقد ولدن قبل حياة الأسر والرق بأسماء أختيرت لهن أسماء منسجمة مع طبيعة لغاتهن وأجناسهن ولكن النخاسين هم الذين يختارون هذه الأسماء ذات الجرس والرنين لكي تحسهم في تحسين ثمن الجارية حين عرضها للبيع بعد تدريبها على المهنة أو الفن الذي إختاره لها تاجر الرقيق و لذلك فإن أسماء الغيان جميعها فيها مسحة من رقة ورنه من إيقاع^١.

لقد قدم هذه الجارية إلي المعتصم بن صمادح صاحب المرية وأخذ ملوك الطوائف لكي يختبرها قبل أن يشتريها فسألها ما أسمك ؟ فقالت : غاية المنى وكان ابن صمادح يريد قبينة شاعرة وقد مر بنا في مستهل هذا الفصل قبنتان شاعرتان هما العجفاء وقمر فقال لها الأمير أجزبي :-

أسألوا غاية المنى - من كسا جسمي الضنا

فقالت : في سرعة بديهة ورقة خاطر

و أراني قولها ، سيقولُ الهوى أنا .

وفي رواية أخرى كما أوردها المقري في نفع الطيب^٢ إن المعتصم بن صمادح لما لمس في هذه القبينة الذكاء وقول الشعر وحسن المحاضرة أمر أن تحمل إلي الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها . وكان مكفوفاً ولما وصلت إليه سألها . ما إسمك ؟ فقالت غاية المنى ، فقال : أجزبي ...

من كسا جسمي الضنا

سل هوى غاية المنى

فقالت تجيزه :-

سيقولُ الهوى أنا

وأراني مُتيمًا

^١ نفع الطيب ص ٢٢/٦ .

^٢ أنظر نفع الطيب ج ١٦ ، ص ٢١٦ .

خلاصة القول أن غاية المنى كانت واحدة من الشعارات القيان إرتبط ذكرها
بالمرية لصلتها بإبن صمادح ولكن ليس هناك ما يمنع أن تكون جلبت من بلدة
أخرى لتعرض على الأمير وأما آثار أخرى من شعرها فلم تقع بين أيدينا على أنها
أية حال واحدة من هؤلاء الكثيرات اللاتي يسحرن القلوب ويطربن الأسماع
بأشعارهن العذبة الرقيقة .

المجلة الرابعة

أدبيات الأندلس

أديبات الأندلس

- ١/ صفية بنت عبد الله الربيعي
- ٢/ أم السعد بنت عصام الحميدي
- ٣/ فاطمة بنت يحيى بن يوسف
- ٤/ مزنة كاتبة الخليفة الناصر
- ٥/ أسماء بنت غالب
- ٦/ لبنى كاتبة الخليفة الحكم
- ٧/ خديجة بنت جعفر بن التمار التميمي
- ٨/ فاطمة بنت محمد بن علي اللخمي
- ٩/ راضية مولاة عبد الرحمن الناصر
- ١٠/ فاطمة بنت زكريا
- ١١/ أمة الرحمن بنت أحمد بن عبد الرحمن الحبسي
- ١٢/ خديجة بنت أبي محمد بن سعيد الشنتجالي
- ١٣/ أشواق السويداء
- ١٤/ ابنة إينة فايز القرطبي
- ١٥/ ريحانة جارية الطبيب أبو عبد الله الكناني
- ١٦/ ريحانة تلميذة أبو عمرو المقري
- ١٧/ حبيبة بنت بد العزيز بن موسى بن سباع
- ١٨/ هند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي
- ١٩/ خديجة بنت أبي علي الصوفي
- ٢٠/ أم الهناء بنت القاضي أبو محمد عبد الحق
- ٢١/ فاطمة بنت أبي القاسم القرطبي
- ٢٢/ أم العز بنت محمد العبدري
- ٢٣/ زينب بنت محمد الزهري
- ٢٤/ أم العز بنت أحمد بن علي بن هزين
- ٢٥/ سيدة بنت عبد الغني العبدرية
- ٢٦/ أم الحسن بنت أبي جعفر الطنجالي
- ٢٧/ فتحونة بنت جعفر بن جعفر

أدبيات الأندلس

واكبت نهضة الشعر نهضة أخرى من الادبيات تمثلت في وفرة عددهن واختلاف
بلادهن وتجديد فنونهن

فمنهن الشاعرة والمأدبة والكاتبة والعالمة من هؤلاء :-

١ - صفية بنت عبد الله الربيعي

هذه الشاعرة الرمنية لم تعش طويلاً وودعت الحياة وهي ما تزال في ميعة
الشباب ودعتها وهي تتألق بهجة وحيوية ونضارة ولدت سنة ٤١٧هـ وعمرها لم
يتجاوز الثلاثين عاشت في عصر الخلافة
تقول صفية وقد عابت امرأة خطها

عائبة خطي نقلت لها أقصري فسوف أريك الدر في نظم اسطري
وناديت كفي كي تجود بخطها وقريت أقلاميو ورقي ومحبري
فخططت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو بها خطي وقلت لها أنظري(١)

وما عثر عليه من أخبارها قليل وذلك قلة الأعوام التي عاشتها

٢ / أم السعد بنت عصام الحميدي

شاعرة من قرطبة تعرف بسعدونه روت عن أبيها وجدها وخاليها عامر
وأبي بكر أبي هشام بن عبد الله الأزدي توفيت بمدينة ملقه عام ٦٤٠هـ أو
نحوها وهي شاعرة متدينة عفيفة .

وقد نسبت إليها بعض الأبيات منها

أخ الرجال من الأبعاد والأقارب لا تقارب

إن الأقارب كالعقارب واشد من العقارب(٢)

والبيتان لأبي الفضل محمد بن العميد الكاتب الشهير وقد نص على ذلك المقرئ
نفسه حين أورد البيتين فقال ورأيت نسبة البيتين لأبن العميد ومن يرجع إلي تسمية
الدهر للثعالبي ووجبات الأعيان لابن خلكان يجد البيتين منسوبين لابن العميد وهو
أسبق وجوداً من سعدونة إذا كانت وفاته عام ٣٥٩هـ أو ٣٦٠هـ

(١) الزخيرة ط ١ ص ٣١٠م

(٢) بئمة الدهر لأبي منصور الثعالبي/ تحقيق محمد نعي الدين عبد الحفيظ القاهرة / الجزء الأول ص ٢٢٥

٣/ فاطمة بنت يحيى بن يوسف المغامي

إمرأة فاضلة عابدة عالمة فقيهه سكنت قرطبة وتوفيت بها عام ٣١٩ هـ
ودفنت بالرياض (١)

٤/ مزنة كاتبة الخليفة الناصر

كاتبة ذكية عارفة بالخط وحسبها أنها كانت تقوم بمهمة الكاتبة للخليفة
الناصر لدين الله ماتت سنة ٣٥٨ هـ (٢)

٥/ أسماء بنت غالب

أديبة فاضلة أبوها هو غالب صاحب مدينة سالم وفارس الأندلس وحاجبها
كانت متزوجة أول الأمر بالوزير عبد الرحمن بن موسى بن مدير فطلقها أيام
الحكم ورأى محمد بين أبي عامر الملقب بالمنصور أن يتزوجها ليتقرب من أبيها
غالب ويحقق طموحه العريض بعد أن وافق أبوها على زواجها من عثمان بن
جعفر الذي عمل على مصاهرته حفاظاً على منصبه ولكن المنصور مالبس أن
كاتب غالباً يطلب منه يد إبنته أسماء فتزوجها وظل المنصور معها طوال حياته .
وحدث بين المنصور وإبن أبي عامر وغالب ما عكر صفو المصاهرة بينهما
مما أدى إلي قتل غالب وإرسال رأسه إلي إبنته أسماء فحزنت عليه أشد الحزن
وكان ذلك عام ٣٧١ هـ وأمرت بإحضار ما الورد وغسلته به (٣)

٦ / لبني كاتبة الخليفة الحكم :-

أديبة عالمة بفنون الأدب والنحو والعروض إضافة إلي تفننها في الكتابة والخط
وفاتها عام ٣٧٤ هـ (٤)

٧/ خديجة بنت جعفر بن التمار التميمي :-

هذه العالمة هي زوجة عبد الله بن أسد الفقيه حدثت عن زوجها كتبت كتباً
كثيرة وعلى إبنة أبي محمد بن أسد الفقيه وكان ذلك عام ٣٩٤ هـ .

(١) ثلاث العيان للفتح بن حاتان/ طبعة القاهرة ١٢٨٢ هـ ص ٨٦ .

(٢) الأغاني ج ٤ / ص ٣١٥

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة

(٤) جزوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس لعبد الله الحميدي/ تحقيق محمد الطنجي / طبعة دار السعادة مصر / ص ١٦٩

٨/ فاطمة بنت محمد بن علي اللخمي

عالمة شاركت أباها أبا محمد في بعض شيوخه عاشت في القرن الرابع الهجري هذه العالمة أجازها وأجاز أباها أبا محمد الإشبيلي في جميع رواياته .
٩/ راضية مولاة عبد الرحمن الناصر

تدعى نخم أعتقها الحكم وتزوجها لبيب الفتى وحجت معه سنة ٣٥٣ هـ ولقيا ابن شعبان القرطبي وقد روى عنها محمد بن خزرج وصرح بأن لديه بعض كتبها بلغت هذه العالمة من العمر سبعاً ومائة سنة تقريباً وكانت وفاتها عام ٤٢٣ هـ . (١)

١٠/ فاطمة بنت زكريا

كاتبة متمكنة تتقن فن الخط عاشت عمراً طويلاً حتى شارفت الرابعة والتسعين توفيت عام ٤٢٧ هـ ولم تتزوج قط ثم دفنت بمقبرة أم سلمة .

١١/ أمة الرحمن بنت أحمد بن عبد الرحمن الحبسي

زاهدة فاضلة صوامة قوامة سمع عنها أبو محمد بن خزرج بعضاً مما روت عن أبيها لم تتزوج قد . وفي شعبان عام ٤٤٠ هـ توفيت من عمر يناهز الثمانين . (٢)

١٢/ خديجة بنت أبي محمد بن سعيد الشنتجالي

عاشت في القرن الخامس الهجري ولم يذكر عن سنة ولادتها أو وفاتها لأن أباهما هو أبو محمد عبد الله بن سعيد العالم المشهور المتوفي عام ٤٣٦ هـ وهي فاضلة محدثة سمعت عن أبيها من الشيخ أبي زر عبد الله بن أحمد الهروي الحافظ صحيح البخاري كما شاركت أباهما في السماع من شيوخه بمكة المكرمة .
أما الشنتجالي منسبه إلي شنتجاله بالأندلس مدينة معروفة أيام الحكم العربي وفيها يقول ياقوت في معجمه " شنتجالية بالأندلس وبخط الإستر شنتجي بالياء . (٣)

(١) أنظر جزوة المنتقى في ذكر ولادة الأندلس لعبد الله الحميدي/ تحقيق عبد الطنحي / طبعة دار السعادة مصر / ص ١٦٩

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي لأنجيل حد سائل ترجمة حسين مونس / طبعة القاهرة ١٩٥٥ م / ص ٩٨

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة

١٣ / أشواق السويداء

لم يسمها صاحب النفع واكتفى بقوله أنها مولاة أبي المطرف عبد الرحمن
ابن غلبون الكاتب أما ابن الأبار في التكملة فقد سماها أشواق السويداء هذه المرأة
سكنت بلنسية وتعلمت على مولاها النحو واللغة وتفوقت في علم العروض وكانت
تستظهر الكامل والنوادر للغالي مع فهم جيد إذا كانت تقوم بشرحها وقد قرأ عليها
أبو داود سليمان بن سليمان بن نجاح الكاتبين المذكورين ودرس عليها علم
العروض وكانت وفاتها في نحو ٤٥٠ هـ كما عند المغربي . بيد أن ابن الأبار
في التكملة يصرح بوفاتها عام ٤٤٣ هـ ومهما يكن فوفاتها كانت خلال العقد
الخامس بعد الأربعمئة .

١٤ / ابنة فايز القرطبي

هي زوجة عبد الله بن عمار اشتهرت بحبها للعلم والأدب أخذت من أبيها
فايز علم التفسير والنحو والشعر وأخذت عن زوجها علم الفقه وأرادت أن تأخذ
عن أبي عمرو الداني القراءات ولكنها قد خاب أملها عندما قصدت أبا عمرو
فوجته مريضاً ورغم ذلك لم تتعاس عن تحقيق أميتها إذا توجهت إلي أبي داود
أحد أصحابه وقرأت عليه بيلنسية بالقراءات السبع وبعد ذلك حجت وتوفيت عام
٤٤٦ هـ (٢)

١٥ / ريحانة جارية الطبيب أبو عبد الله الكناني

هذه الجارية المثقفة الأدبية كانت على قيد الحياة في القرن الخامس الهجري
إشترأها هزيل بن خلف بن رزين أمير شنتمر المتوفي عام ٤٣٦ هـ من الطبيب
أبي عبد الله الكناني بثلاثة آلاف دينار وكانت تتسم بخفة الروح وعذوبة الغناء
ورخامة الصوت وتعرف بجودة الكتابة والخط وحضور البديهة مع ثقافة أدبية
عالية بالإضافة إلي إتقانها أنواعاً من اللعب بالسيوف والخناجر (٣)

(١) آداب الأندلس وتاريخها ص ٨٦

(٢) نواحي الفكر العربي د. شوقي ضيف / ص ٩

(٣) أدبيات الأندلس نقلاً عن منجلة أنيس العدد ٢٧ ١٣٦٨ هـ

١٦/ ربحانة تلميذة أبو عمرو المقرئ

عاشت في القرن الخامس الهجري تتلمذت على يد عثمان بن سعيد بن عثمان أبو عمرو المتوفي عام ٤٤٤ هـ فأخذت عنه علوم القراءات بالمريية وكانت أثناء دراستها عليه تجلس خلف ستار فتقرأ عليه ويشير إليها بقضيب بيده إلى الموقف فامت دراستها السبع ثم راويات اخرى غيرها وبعد ذلك أجازها.

١٧/ حبيبة بنت عبد العزيز بن موسى بن سباع

ولدت عام ٤٣٧ هـ وتزوجت أبا القاسم بن مدير الخطيب المقرئ قرأت على أبي عمرو عبد الله كتبه وكانت حسنة الخط فاضلة متدينة ماتت سنة ٥٠٦ هـ (١)

١٨/ هند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي

شاعرة رقيقة أدبية ظريفة لم يذكر المقرئ سنة ميلادها ولا سنة وفاتها ولا ريب أنها عاشت في القرن السادس الهجري لأنها عاصرت الوزير الأديب أبا عمرو بن ينق المتوفي عام ٥٤٧ هـ كتب إليها ابن ينق يدعوها للحضور إليه يقول لها

ياهندُ هل لك في زيارة فتيه
سمعوا البلايل قد شدوا فتذكروا
نبذوا المحارم غير شرب السلسل
نعمات عودك في النقيل الأول (٢)

فأجابته :-

ياسيداً حاز العلا عن ساده
حسبي من الإسراع نحوك إنني
شم الأنوف من الطراز الأول
كنت الجواب مع الرسول المقبل (٣)

١٩/ خديجة بنت أبي علي الصوفي :

نشأت سالحة حفظت القرآن الكريم ورصيداً من الأحاديث النبوية الشريفة وأدلفت بالمطالعة والإطلاع تزوجها عبد الله بن موسى فأنجبت له أبا بكر عمرة طويلاً إلى أن جاوزت الثمانين وتوفيت عام ٥٩٠ هـ

(١) نوايح الفكر العربي د. شوقي ضيف / ص ١٠

(٢) نفع الطيب للمقرئ ص ٣١٦

(٣) نفس المصدر والصفحة

٢٠ / أم الهناء بنت القاضي أبو محمد عبد الحق

أورد هذه الكنية أم الهناء " المقري " من غير إسم في حين أكد ابن عبد الملك بأن إسمها هو أمة الرحمن وكنيتها أم هاني معتمداً في ذلك على ما وجدوه في تأليف لها في الادعية وقف عليه بنفسه .

ولقد درست أمة الرحمن عن أبيها فكانت مثلاً للمرأة المثقفة ، وتميزت بحضور البديهة ورجاحة العقل وسرعة الرد ألفت كتاباً في القبور وآخر في الادعية .
يحكى أن أباهما لما ولي قضاء المرية دخل داره وعيناه تترققان بالدموع حزناً على مفارقة بلده فقالت متمثلة :-

يا عين صارَ الدمعُ عندك عادةً تبكين في ترح وفي أحزان

عاشت هذه الأديبة في القرن السادس الهجري ولم يتحقق سنة وفاتها وذلك لأن أباهما القاضي عبد الحق بن غالب بن عطية الفقيه الأديب اللغوي تولى القضاء بالمرية في شهر محرم عام ٥٢٩ هـ وتوفى عام ٥٤١ هـ مع ذلك لا نستطيع الجزم بسنة وفاتها وما يمكن أن نطمئن إليه أنها كانت وتعيش عندما تولى أبوها القضاء بالمرية وفي ذلك تمثلت ببيتها الشعري الأنف الذكر . (١)

٢١ / فاطمة بنت أبي القاسم القرطبي:

هي فاطمة بنت أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن غالب القرطبي أخذت عن أبيها قراءة نافع واستظهرت عليه الشهاب قرأت القرآن على عبد الله الضرير ماتت عام ٦١٣ هـ

٢٢ / أم العز بنت محمد العبدي

أبوها هو محمد بن علي أبي غالب العبدي روت عن أبيها أبي الطيب برنجال وكذلك عن زوجها أبي الحسن بن الزبير وأبي عبد الله بن نوح وكانت تتقن القراءات السبع توفت عام ٦١٦ هـ . (٢)

(١) الأدب الأندلسي د. حكمت الألويس القاهرة ص ٥٩

(٢) نس المصدر السابق والصفحة

المقتضب لأبي الأبار القضايمي / تحقيق ابن الأبياري / المطبعة الأميرية ١٩٥٧ م

٢٣ / زينب بنت محمد الزهري

أبوها محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الزهري البلنسي عرفت بعزيزة بنت
محرس كانت تقية سالحة إنتقلت إلي جوار ربها عام ٦٣٥ هـ بعد أن بلغت
الثمانين . اخذت عن جدها لأمها أبا الحسن ابن هزيل .

٢٤ / أم العز بنت أحمد بن علي بن هزيل :

عرفت أم العز هذه بإستظاهاها للأشعار وتفوقها في حفظها أخذت قراءة
نافع عن أم جعفر زوجة الأمير محمد بن سعد وتوفت بمدينة ساطبة عام ٦٣٦ هـ

٢٥ / سيدة بنت عبد الغنى العبدرية

وهي أم العلاء الغرناطية حفظت القرآن الكريم فصارت أستاذة في قصور الملوك وانتقلت إلي تونس وعملت بها ومن أعمالها أنها نسخت " إحياء علوم الدين " للغزالي وعرفت هذه الأستاذة بالمواظبة على العبادة توفيت سنة ٦٤٧ هـ (١)

٢٦ / أم الحسن بنت أبي جعفر الطنجالي :-

شاعرة طيبة تجود القرآن مشاركة في كثير من الفنون وأبوها هو جعفر أحمد الطنجالي ، والطنجانيون من الهاشميين ينسبون إلي جعفر بن عقيل بن أبي طالب .

تحدث عن هذه الأديبة ابن الخطيب في الإحاطة ولكنة لم يصرخ بالحديث على سنة ولادتها ووفاتها ، وكما يبدو أنها عاشت في القرن الثامن الهجري ومن شعرها قولها عندما سألتها بعض الناس عن الخط .

الخط ليس له في العلم فائدة وإنما هو تزين لقرطاس
والدرس سؤلي لا أبقى به بدلاً بقدر علم الفتى يسموا على الناس
ومن شعرها في المديح قولها :-

إن قيل من في الناس رب فضيلة حاز العلاء والمجد منه أصيل
وأقول رضوانٌ وحيد زمانه إن الزمان بمثله لبخيل
٢٧ / فتحونة بنت جعفر بن جعفر

أديبة من مرسية لها تأليف في قيان الأندلس وتعرف بأبم الفتح ذكرها ابن عبد الملك ولم يعين الفترة الزمنية التي كانت تعيش فيها . (٢)

(١) الإحاطة لابن الخطيب ص ٢٠٦

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة

وازدانت البيئة الأندلسية بعدد غير قليل من النساء الشاعرات اللاتي أسهمن في إثراء الأدب الأندلسي بألوان طريفة من موضوعات الشعر وموضوعات جذابة من فن القصيد، فكان إثراؤهن للشعر أمراً بيناً في مجتمع يمثل معظم أفراده شعراء ومن هنا كان جهد الشاعرات واضح الأثر. وذلك لأنهن سارن إلي اللحاق بموكب الشعر في الأندلس فكن فيها كأزهار الشقائق بلونها الزاهي الأرجواني .

لقد شاركت المرأة الشاعرة الرجل في كل فنون الشعر وأصبح دورها بارزاً فكانت تمدح وتفاخر وتتغزل وتظهر محاسنها . فشاعرات الأندلس كن من الوفرة والنضوج بحيث تشكل ملمحاً بارزاً وواضحاً من ملامح الشعر الأندلسي وذلك مما يدفع القارئ وبشدة إلي الوقوف في ساحته متأملاً إلي روعة الصياغة ودرز المعاني والألفاظ مع مشاكله الأحداث وجمال البيئة .

فالمراة الأندلسية كانت على درجة من التحرز فسارت بجانب الرجل تستندي القريحة لتهمس بالشعر فهمست به همسات رائعة أتبعته قدرتها على الخلق والإبداع .

والمرأة العربية تسنى لها ان تعرض الشعر في كل الفنون المعروفة وعلى سبيل المثال لا الحصر الخنساء صاحبة المراثي وامامة بنت ذي الأصبع العدواني الشاعر الفارس وليلة الأخيلية وأم الفضل الهلالية .

وساهمت المرأة الأندلسية في بناء صرح الادب من شعر ومناظرات ومساجلات حركت النفوس الشاعرة لتعبر عن تجارته المتعددة وطفقت تقرض الشعر فنظمت الكلمات عقداً ودرراً . ويروي أنه وجد في الأندلس ستون ألفاً من الشاعرات (١) .

وهذا العدد وإن يبدو فيه شيء من المبالغة ولكنه لا يخو من حقيقة . وإذا أننا لا نعثر إلا على عدد قليل من الشاعرات إذا ما قيس بما ذكره المقري ولكن التاريخ يحدثنا أن المسيحيين بعد أن احتلوا غرناطة أحرقوا بساحتها عدداً كبير من الكتب بأمر من الكاردينال .

وقد يكون ضمن هذا التراث العظيم الذي إندثر وانمحت آثاره واتلفته تلك العقلية
وذلك مما يلقي الأضواء الكاشفة عن النهضة الادبية النثوية الأندلسية في كل
عصورها.

الحديث عن دور المرأة الأندلسية الشاعرة واسع الجوانب متعدد الزوايا شيق
خصب ندي فقد إخترق أوتار الغيثارة العربية أدق إختيار واستمعنا إلي شذوها
ونغماتها أرهف إستماع ومع ذلك فشعرهن في غاية التجديد والإبتكار وكان فنهن
يتميز بالجرس والأشراق والرصانة والجزالة مما يدفع القاري أن يقف على
ساحته متأملاً فيه ، وذلك لماله من مظاهر الإمتاع والإبداع الفني الرصين .

الفصل الخامس

الدراسة الفنية للشعر الأندلسي بعامة
والنسوي بخاصة

المبحث الأول

بناء القصيدة

بناء القصيدة

حاول نقادنا القدماء تحديد طبيعة البناء الفني للقصيدة العربية واتضح من رأي حازم القرطاجني أن لها أربع مراحل :

١- مرحلة التفكير و الإعداد ٢- مرحلة الشرع والنظم ٣- مرحلة التأليف والتنسيق ٤- مرحلة التقيح (١)

وأشاد المحدثون بتلك المراحل وقسموها إلى مرحلة الاستعداد والتصريح والتبلور ونسج الفكرة وتفصيلها (٢) و أشار الدكتور دفع الله الأمين يوسف إلى ثلاثة مواقف هي الأساس في جودة القصيدة وسلاستها وهذه المواقف هي :

١- موقف المبدع المسبوق بنماذج رائعة

٢- موقف المتلقي للشعر حيث الأصالة والجودة (٣)

٣- موقف إحساس الشاعر بما يعيشه .

وطالما وردت عظمة الذكرى فلا بد ان اقف وقفة إجلال واكبار لهذا العالم الجليل له الرحمة الواسعة بقدر ما أثرى وقدم فقد كان بحراً يزخر بالكلم ارتجالاً دون عناء او تعسف اميناً على نشء علمهم معنى الوفاء شموخاً وكرماً وعزه واعتداداً بالنفس . فالمصادر والمراجع قد سجلت على صفحاتها بصماته الغراء وربط حبل العشق بينهما في محبة وإخلاص ووفاء جعل الله كل ما قدم في ميزان حسناته "أمين"

و أشار سويف إلى ان معظم القصائد تظهر دون مقدمات فنوع ابن ساعته ويتمثل في القصائد التي يفيض بها خاطر ونوع تعيش فكرته في نفس الشاعر فترة طويلة.

والمكان الخالي يساعد على بروز بناء القصيدة والمشاهدات والاطلاعات التي تحدث في حياة الشاعر لها صلة وثيقة بالنظم فتمتد صورة حياته أمامه يمثلها او

(١) انظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني تحقيق محمد الحبيب الحوي دا الكتب الشرقية تونس ص ٢٠٤

(٢) الاسس الفنية للإبداع الفني في الشعر خاصة د. مصطفى يوسف ط المعارف مصر ط ٢ ص ٢٨٧

(٣) نظرية التجربة الفنية في النقد الأدبي . د. دفع الله الأمين يوسف رسالة ماجستير ص ٨

يتخيلها إلى ان ينتهي المطلع وتنتهي مراحل إبداعه.^(١)
إن الحديث عن البناء الفني للقصيدة في تراثنا الفني يدعونا ان نتساءل هل تجددت
بنية القصيدة العربية ام ظلت ترزخ في قيود التقليد والمحافظة .
و المعروف عن الشعر الجاهلي انه قد ظل ملائماً لذوق العصور المتأخرة وهو
أصل من أصول اللغة ومرجع من أهم مراجعها وقد نظم في أغراض معينة وبين
قوم بلغت بهم الحضارة نمطاً محدوداً .
و الأمة العربية لم تبق على حالها كما كان في العصر الجاهلي وتغيرت كافة
الظروف والأحوال التي كونت ذلك العصر وقد وجب ان يتغير الشعر بتغيرها
فيتبعه تجديد في بنيتها وخرج من التقليد والمحافظة ولنذكر بعضاً من الشعر
الجاهلي مكتفين بإيراد مطلع القصائد
قال الكلبي :

أن أول من بكى على الديار امرؤ القيس وهو أول من ذكر الكر والفر والطلل .
وهو القائل :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٢)
إحساس صادق يحس به من موقف على الديار وبكى فان رؤيته لتلك الديار تهيج
فيه لواعج الشوق وتجعله يتلفت حوله فيرى أحبابه قد ارتحلوا فيسأل الديار عنهم
وبعض إليها كأنها تجيبه بان أحبابه قد غادروها واحصوا في بعد فارتحلوا وهو
يتبعهم بقلبه وبعينه .

وللنقاد مقاييس إنسانية وهي التي ينتزعها الناقد من طبائع النفوس فيجزون من
أقوال الشعر ما يلائمه ويرفضون ما ينافيها .^(٣)

لذلك عابوا على المتنبى قوله :-

بليت بلى الأطلال ان لم اقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه
وبأنه أراد المبالغة في طول الوقوف فبالغ في تقصيره^(٤)

(١) الإمس الفنية للإبداع الفني في الشعر خاصة مصطفى سويف دار المعارف ١٩٥٩م ص ٢٥٠

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ابو عبد الله الحسن بن احمد دار احياء العلوم بيروت . ٨٥

(٣) نقد الشعر لقداى بن جعفر تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجة مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة

(٤) أصول النقد الأدبي احمد الشايب مكتبة النهضة المصرية ط ١٩٩٤م ص ٣٤٦

وعابوا على أبي تمام قوله :

دعا شوقه يا ناصر لشوق دعوة قلباه ظل الدمع يجري ووابله

ومما استحسناه في استنطاق الربع قول عمر بن أبي ريعة (١)

سائلاً الربع بالبلى وقولا هجت شوقاً إلى الغداة طويلاً

واهتم نقاد العربية الأوائل ببناء القصيدة من مطلع وتخليص وخاتمة ، وبناء المقدمة الطللية من موضوع واحد وسنتناول بالتفصيل والإيضاح البناء الفني للقصيدة الأندلسية من حيث الوحدات الثلاثة .

الشعر الأندلسي بعامة والنسوي بخاصة

المطالع :

الشعر قفل أوله مفتاحه ولا بد للشاعر ان يجود ابتداء شعره فانه أول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة (٢)

فلكي يكون الشعر ممتازاً على الشعراء ان يحسنوا في ابتداءات قصائدهم لأنهن دلائل البيان (٣)

وقد وضع ابن الأثير النقط على الحروف حين وضع الحدود التي يجب على الشاعر اتباعها في بدء قصائده بقوله :

"يجب على الشاعر إذا نظم قصيدة ان ينظر فإذا كانت مديحاً صرفاً لا يختص بحادثة من الحوادث . فهو مخير بين ان يفتتحها بغزل

أولاً أما إذا كانت في حادثة من الحوادث كفتح او هزيمة جيش او غير ذلك فانه لا ينبغي الابتداء بالغزل لان هذا يدل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية او على جهله بوضع الكلام في مواضعه لأن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث . (٤)

بينما حدد ابن الأثير الطريقة التي يفتتح بها الشاعر قصيدته اذا بالرندي يفصل ذلك مركزاً على المعاني والألفاظ بقوله ينبغي ان يكون الابتداء مع اللفظ الرائق

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين ط القاهرة ص ٢١٨

(٣) الصناعتين لابي هلال الحسن بن عبد الله تحقيق د. حفيد قمحة بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ص ٨٦.

(٤) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر وتحقيق احمد الجوني مصر ج ٢ / ص ٩٦

والمعنى الفائق وان يفتتح بالجمال الابتدائية والفعلية والنداء والاستفهام ونحوه مما له صدر في الكلام والأحسن أ يكون الابتداء مما يجري مجرى المثل وعنده ان المقصود بحسن الابتداء هو الشطر الأول والثاني. (١)

وقد التزم معظم شعراء الأندلس وشاعراتها في معظم حالاته بالمنهج الذي ارتضاه النقاد وسار على نهجه معظم الشعراء العرب وتخلصوا إلى حد ما من المقدمات الغزلية وخاصة في القصائد التي تناولت وصف المعارك الحربية كقصيدة ابن خفاجة بلنسية فقد بدأها بمطلع جيد يقول فيها :

الآن سحَّ غمامُ النصرِ فانهملاً وقام صفوُ عمود الدينِ فاعتدلاً (٢)

وابن خفاجة عن الموضوع بهذه البداية وصل إلى غرضه مباشرة دون قفاء او خروج عن الموضوع فلذلك عد هذا المطلع من احسن مطالعه .

وكقول ابن الآبار مستتجداً بصاحب "افريقية" لانقاذ الأندلس من الضياع والسقوط أدرك بخيلك خيلُ الله أندلساً ان السبيلَ إلى منجاتها درساً (٣)

فالقصيدتان خلتا من المقدمات الغزلية وبذلك التزما بما ارتضاه النقاد .

وكقول ابن سهل الإسرائيلي في رائيته التي يستهض به همم الأندلسيين والاستجداد بهم لدرء الخطر إليهم فقد بدأها بقوله :

نادى الجهاد بكم نبصر مضمراً يبدو لكم بين القنا والضمر (٤)

فابن دراج القسطلي له قصيدة في مدح المنصور بدأها مباشرة بقوله :

حسن رضاك من الدهر الذي عتبا وعطف نعماك للحظ الذي انقلبا

ومدح المنصور بنونيته بدأها مباشرة بقوله :

ما كفر نعماك من شاني فيثنييني عمن تولى لنصر الملك والدين (٥)

وابن وهبون المرسي حين رثا صديقه الأعم الشنتمري بدأ قصيدته بحكم صائبة تقول :

(١) المثل السائر لابن الاثير ص ٧٦

(٢) ديوان ابن خفاجة الاندلسي ص ٢٠٨

(٣) نفع الطيب ج ٦ ص ٢٠٠هـ

(٤) ديوان ابن سهل الاندلسي د. احسان عباس دار صادر بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ص ١٣٠

(٥) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٤٢٨

سبق الغناء فما يدوم بقاءً تفني النجوم وتسقط البيضاء

ولما وفد على المنصور ابن عامر الشاعر المشهور ابو عبد الله محمد ابن مسعود
الغساني البجاني مع الطليق القرشي والطليق غلام وسيم وكان ابن مسعود كلفاً به
يومئذ وهو يقول :

غدوت في السجن خوفاً لابن يعقوب وكنت احسب هذا في الأكاذيب
رامت عداتي تعذيبي وما شعرت ان الذي فعلوه ضد تعذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكان ذلك ادناني وتقريبي
لم يعلموا ان سجنني لا ابالهم قد كان غاية مأمولي ومرغوبي (١)

وقال الكاتب ابو عبد الله بن مصادق الرندي الأصل

لم احتفل لقدوم العيد من زمن قد كان يبهجني اذا كنت في وطني
من هؤلاء ابو الحسين الأنصاري القرناطي احد رجال الأندلس في القرن الثامن
الهجري ويعد من الطبقة الأولى من أهل العلم والفكر والأدب في الأندلس وقد
أثنى عليه معاصروه والذين ترجموا له ولقبوه بشيخ الأندلس .

فقال يمدح ابا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المشهور بابن الحكيم ويهنئه بعيد
الفطر :

يا قادماً عمت الدنيا بشائره اهلاً بمقدمك الميمون طائره
ومرحباً بك من عيد تحف به من السعادة اجناد تظافره
قدمت فالأرض في نعمي وفي جزل ابدي لك البشر باديه وحاضره
والأرض قد لبست أثواب سندسها والروض قد بسمت منه ازاهره

وقال ابو الفضل بن شرف يشكو قلة حيلته ويندب الزمن :

لعمرك ما حصلت على خطير من الدنيا ولا ادركت شيئاً
وها انا خارج منها سليباً اقلب نادماً كلتا يديا
وابكي ثم اعلم ان بكاي لا يجدي فامسح مقلتيبا
ولم اجزع لهول الموت لكن بكيث لقلة الباكي علياً

(١) نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب / للمقري التلمساني ط ٢ دار صادر بيروت ٤٢٦

وان الدهر لم يعلم مكاني ولا عرفت بنوه مالديا
زمان سوف انشر فيه نشرًا اذا انا بالحمام طويت طيا (١)
اختارت المرأة الأندلسية لنفسها ان تصدم بكبار شعراء زمانها واختارت مقدمة
قصائدها والتي غلب عليها رقة الشعر وعذوبته .
وها هي نزهون القرناطية :

تصف ليلة جمعت في قصيدتها المناظرة و المحاضرة والقول الفني الذي اختارت
له قوالب المعاني واختارت مطلعاً مباشراً من محيط نشاتها والمجتمع الذي
وضعت نفسها فيه . فقالت تصف تلك الليلة .

لله در الليلي ما احسنها وما احسن منها ليلة الأحد
ومما لاشك فيه ان هذا الجانب الذي نعتبره مضطربين مشرقاً في شعر نزهون يدل
على موهبه خصبه ونراها في موضع ترد على المخزومي السليط اللسان الذي قد
افحش في هجائها فاخترت مقدمة لقصيدتها هي في جملتها من سمات الهجاء
والأبيات قد وردت في موضع آخر وفيها تقول نزهون :

ان كان ما قلت حقاً من بعض عهد كريم
فصار ذكرى ذمياً يعزى إلى كل لوم
وصرت أقبح شيء من صورة المخزومي (٢)

ومن حسن المطالع ما قالته حمدونه بنت زياد تصف وادي آش بسحره وجماله
وريحانه ونضرته فقدمت أبياتاً في غاية الإتقان واختارت لها مقدمة من صميم

بيئتها فهي ابنة الوادي (٣) الوارف الظلال - قالت حمدونه :
أباح الدمع اسراري بوادي له للحسن آثار بوادي

(١) المختار من الشعر الأندلسي د. محمد رضوان دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط ١٩٢٢م ص ١٨٢

(٢) الاحاطة ص ٢٢٥ - المغرب ج ٢ ص ٢٤٨

(٣) نفع الطيب ج ٥ ص ٧٢

وفي اشبيلية كانت هناك شاعرة اسمها أسماء العامرية عاشت في اشبيلية ومن قصيدة بعثت بها إلى عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين تطلب فيها رفع ما وقع على اموالها من اعتقال وصدرتها بمقدمة تشكو فيها حالها إلى الحاكم القاضي تقول في ابياتها : (١)

عرفنا النصر والفتح الميينا

لسيدنا أمير المؤمنين

وهناك شاعرة تدعى قسمنة وهي فتاة يهودية قاست من الوحدة وانعدام القرين مع جمال الشباب نظرت في المرأة يوماً وهي في شرخ شبابها ولم تتزوج بعد فحزنت على زمان مضى فصدرت قصيدتها بمقدمة تعبر عن إحساس بالحرمان أنشدت تقول :

أري روضة قد حان منها قطافها ولست أرى جانٍ يمد لها يداً (٢)

وهذه ولادة قد انشأت ابياتها في مقام الغيرة والاحتجاج المهذب فكثيراً ما كانت تترجم عن مشاعرها تجاه ابن زيدون وحبها إياه فصدرت ابياتها بمقدمة رفيقة جمعت بين الصباية والشكوى فنراها قد هجمت على الموضوع هجوماً فقالت بعبرة تشكو صبابتها .

الأهل لنا من بعد هذا التفرق

سبيلٌ فيشكو كل صب بما لقي

فهي تحسن الإفصاح عن عواطفها في غير تعثر أو تصنع (٣) وانما تبدو المعاني طوع يديها غير عامدة إلى النحت أو التصوير انما مستهدفة حسن التعبير .

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٥

(٢) الذخيرة ج ١ ص ١٤٥

(٣) نفع الطيب ج ٣ ص ٣٢٨

حسن التخلص

اصبح حسن التخلص من موضوع إلى آخر واحداً و وسيلة من وسائل بناء القصيدة الفني و وحدتها في الشعر العربي ومن معانيه "ان يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني بينما هو فيه اذا اخذ في معنى اخر غيره . وجعل الأول سبباً إليه فيكون بعضه أخذ برقاب بعض من غير ان يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر بل يكون جميع كلامه كأنما افرغ ا فراغاً." و حدد ابن قتيبية اضرب الشعر وجعلها أربعة ضرب أجاد لفظه أجاد معناه وضرب قصر لفظه وقصر معناه وضرب أجاد لفظه وقصر معناه وضرب أجاد معناه وقصر لفظه .

غير ان بعض الشعراء لم يحسنوا ذلك وانتقلوا من غرض إلى آخر دون الاهتمام بحسن النسق وصحته وتلاحم الألفاظ والعبارات والتلاؤم بين تلك المقاصد والشعراء الأقدمون احسن تخلصاً من المتقدمين . وقد كان شعراء الأندلس احياناً يحسنون التخلص حين يبدؤن قصائدهم بالنسيب فابن زيدون حينما فارق قرطبة وحبسه اليانس فيها إلى اشبيلية ونزل بساحة المعتمد ملكها فقربه منه بل جعله وزيراً و أغدق عليه من رضاه و إحسانه وجعله يلهج بالشكر والثناء عليه بل بالمحبة والإخلاص له فقد رفيعه إلى مكان على لا تتناول إليه الأعناق ووفاء بهذا الصنيع كان ابن زيدون يدبج فيه مدائحه ويذيعها في المناسبات المختلفة حين ينتصر على أعدائه وكان كثير الحروب مظفراً وحين يقبل العيد وتعم مسراته . وهذه إحدى مدائحه يهنئه فيها بعيد الاضحى وقد بلغ الغاية فيها من حيث السبك والتجويد وقد بدأها بالنسيب وأجاد في حسن التخلص (١)

فالشاعر الأندلسي اذا أراد بناء قصيدة مهد للمعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة واعد له من الألفاظ التي تلائمه وتطابقه القوافي التي توافقه والوزن الذي يكون سلساً سهلاً عليه "فاذا اتفق عليه بيت يشاكل المعنى الذي يرويه أثبته واعمل فكرة في شغل القوافي بم تقتضيه المعاني عل غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول منه بل يطلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين قبله فاذا

أكملت المعاني وكثرت الأبيات وفق بينها أبيات تكون نظاماً لها ومسلكاً وسلماً
جامعاً تفرق فيها ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في
مكاتباتهم^(١).

والشاعر يحتاج إلى أن يصل كلامه على تصرف في فنونه صلة لطيفة
فيتخلص من الغزل إلى المديح إلى الشكوى ومن الشكوى إلى وصف الديار
والآثار إلى وصف الفيافي والنوق ومن وصف الرعود والبرق إلى وصف
الرياض ومن وصف المفاوز والفيافي إلى وصف الطرد والصيد ومن وصف
الاعيار إلى وصف الخيل والأسلحة ومن الأبياء إلى التسامح كل ذلك يتم بالطف
تخلص واحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله بل يكون متصلاً به
وممتزجاً معه فإذا استقصى المعنى وإحاطه بالمراد الذي إليه يسوق القول بأيسر
وصف وأخف لفظ ولم يحتاج إلى تطويله وتكريره^(٢).

وكان الاهتمام بمراعاة التخلص يدفع الشعراء إلى البحث عن سلامة النظم فيما
بعد إلى العبارة الشعرية ليكون موقع الكلمة إلى جنب اختها والبيت إلى لفقه
والمقصد إلى ما يلائمه وهو ما أشار إليه الجاحظ بالإفراغ الواحد والسبك
الواحد^(٣).

و أطلق عليه ابن طباطبا الرصف الحسن^(٤) وعرف عند البلاغيين بصحة النسق
الذي يهتم بتلاحم الأجزاء والألفاظ والعبارات
وقد افرد الأمدي في موازنته باباً ذكر فيه خروج الطئيين من النسيب^(٥) إلى المديح
وكان التلطف في أحداث التناسب في الخروج قد استأثرت به قصيدة المديح
لاشتمالها على عدد من الموضوعات^(٦). ولكن موقف الأمدي يشبه موقف ثعلب
في الاهتمام بالربط بين المديح الذي يعد مركز المعاني في القصيدة المدمجة

(١) من عبار الشعر ابن طباطبا محمد بن احمد العلوي تحقيق عباس عبد الستار بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص ١١-١٢

(٢) نفس المصدر السابق ص ٨١

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ص ٦٧

(٤) انظر عبار الشعر ابن طباطبا العلوي ص ٥٤

(٥) سر الفصاحة ص ٢٥٢

(٦) الموازنة بين شعر ابي تمام و البحرني للامدي تحقيق السيد احمد صقر مصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ص ٤٨ ، ١٥٢

ومقدمة القصيدة ذات الأفكار العديدة وأشار القاضي الجرجاني إلى أن التلخص يعد مهارة لا يتقنها إلا الشاعر الحاذق^(١). واتفق مع ابن طباطبا بأن الاوائل لم يخضعوا ذلك.

وأفرد أبو هلال العسكري في الباب العاشر من كتاب الصناعتين فصلاً تحدث فيه عن الخروج من النسب إلى المدح وغيره ورأى أن المحدثين قد برعوا في ذلك أكثر من المتقدمين^(٢).

ونقل ابن رشيقي عن بعض الحذاق أهمية لطف الخروج إلى المدح والهجاء لأن في لطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح^(٣).

وعرف عند البلاغيين بصحة النسق الذي يهتم بتلاحم الالفاظ والعبارات والفصول من النثر والأبيات والأجزاء من الشعر^(٤).

ولهذا كانت محاسن الكلام عند عبد القاهر الجرجاني تعرض بحسب المعاني والأغراض التي يوضح لها الكلام ثم يحسب موضع بعضها من بعض^(٥).

لذا كان البحث في نظام الشعر يحاول أن يوصل مبدأ التلاحم بين المعاني الجزئية ومناسبة ذلك للمعنى العام فالقضية ليست مجرد إحكام الرابط بين الأجزاء وإنما تستعدى ذلك إلى عملية تفاعل الأجزاء بتأثير بعضها في بعض وهذه المرحلة من التلاحم تتم في عملية أشبه بصهر مجموع من المعادن واتحادها في معدن واحد. يقول الجاحظ: "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً"^(٦).

والإفراغ والسبك مأخوذان من إفراغ الذهب والفضة ونحوها من الجواهر الذائبة وصبها في قالب تتشكل فيه حسب طبيعة المسبكة^(٧). ومن القصائد التي يبدو فيها حسن التلخص وضحاً قصيدة ابن زيدون في مدح ابن عباد فإنه بدأ مدحه بالنسب

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضي الجرجاني ص ١٥٤

(٢) الصناعتين / لابي هلال العسكري ص ٣٦٥

(٣) العمدة ج ١ ص ٢١٧

(٤) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢٥٣

(٥) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٨٧

(٦) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٦٧

(٧) عمود الشعر العربي في النقد الأدبي رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة كلية دار العلوم ١٩٦٨م

قائلاً :

أما نَسِيمَ الرِّيحِ عَرَفَ مُصْرَفُ لنا هل لذات الوقف بالجزع موقفُ
فَنَقْضِي أوطارَ المني من زيارة لنا كَلَفٌ منها بما نتكَلَفُ
ضمانَ علينا ان تزار ودونها رفاقُ الطبا والسهمريِّ المتقفُ
وقومٌ عدي يبدون عن صفحاتهم وأزهرها من ظلمة الحقد اكلفُ
وليلةً وأفتنا الكئيبَ لموعد سُرى الأيم لم يعلم لمسراه مزحفُ
تهادى أناة الخطو مرتاعه الحشا كما ريع يعفورُ الفسلا المتشرفُ
فما الشمس رق الغيم دون آياتها سوى ما ارى ذاك الجبين المنصفُ
كفانا من الوصل التحية خلصة فيومئ طرفٌ او بنانٍ مطرفُ
خليلي مهلاً لا تلوما فإنني فؤادي اليق البث والحسم مدنفُ
وأعنف ما يلقي المحب لاجاة على نفسه في الحب حين يعنفُ
واني ليستهويني البرق صبوةً إلى برق نغر ان بدا كاد يخطفُ
وما ولعي بالراح الاتوهم لظلم به كالراح لو يرتشفُ
ويذكرني العقد المرن جمانة مُرنانٌ ورق في ذرى الأيك تهتفُ
وما قيل من اهوى طوى الدر هودج ولا صان ريم القفر خدر سجع⁽¹⁾

والقصيدة طويلة تربو عن السبعين بيتاً ولو لاحظنا انه أطال في المقدمة ثم تخلص بعد تسعة عشر بيتاً إلى الغرض الأساسي من القصيدة وهو التهئة وقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً وله قصيدة اخرى ميمية تغزل فيها ثم تخلص الى مدح ابي بكر المسلمي ومزج ذلك بالشكوى من الشيب والزمن فقال :

اما زمان مضى عهده حميداً لقد حار لما حكم
قضى بالصباية لما انقضى وما اتصل الود حتى انصرم
ليالي نامت عيون الوشاة عيناً وعين الرضا لم تتم
ومالت علينا غصون الهوى فاجنت ثمار المني من امم
وايامنا مذهبات البرود وفاق الحواشي صوافي الأدم

(1) ابن زيدون / دكتور شوقي ضيف ج ١٠ دار المعرف ١١١٩م ص ٨٠

وبعد أن تغزل في ميميته السابقة مزج ذلك بالشكوى من الشيب والمرض
وتخلص إلى مدحه تخلصاً حسناً في قوله :

وبياض العيش مقترن بسواد القدر واللمم
لا لغمر المجد والكرم مضاء السيف والقلم
قسماً برا يشفعه قسم ارعاه من قسم
لا ينال الدهر من جهتي ويابراهيم معنصمي
الإمام المستقل به ركن بيت الفضل والكرم (١)

ومن الشعراء الذين ابدعوا في حسن التخلص ابن دراج القسطلي الذي بدأ قصيدته
التي مدح بها المنصور بمقدمة لمنزله ثم برع في تخليص قصيدته واطاهر غرائبها
وبين العلاقات الواضحة من موقع البيت بما يماثله وقرب بين احداثه في ترابط
وثيق . وذلك حينما قال :

اضاء لها فجر النهى فناهاها عن الدنف المضي بحر هواها
وضللها صبح جلابيب الدجي وقد كان يهديها إلى دجاها (٢)

كان ابن زيدون صديقاً لابن الوليد جهور فلما توفي ابوه سنة ٤٣٥هـ واعتل
عرش قرطبة من بعده ابتهج قلب الشاعر و أحس كأن الدنيا تدق بشائرها من
حواله فنظم هذه القصيدة يعبر عن فرحة نفسه وقد عاوده ذكرى ولادة فاجتمعت
النشوتان فبعد ان ذكر محبوبته ولادة تخلص إلى مدح الأمير والقصيدة هي

ما للدمام تديرها عيناك فيميل في سكر الصبا عطفاك
هلا مزجت لعاشقك سلافها ببرود ظلمك او بعذب لملك
ويستطرد في القصيدة إلى ان يصل لقوله :

اما منى نفس فانت جميعها ياليتني اصبحت بعض مناك
ثم تخلص الى الغرض من القصيدة وهو المديح فقال :

ملك يسوس الدهر منه مهذب تدبيره للملك خير ملاك
شمس النهار وبدره ونجومه ابناؤه من فرقد وسماك

(١) نفس المصدر والصفحة

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي ص ١٠

وأضافت الشاعرة الأندلسية بعداً جديداً في بناء القصيدة وامتلكت القدرة الفنية فالافكار عندها تتعانق لتحقيق غايتها فهي تسمو بفنّها في الأفق الأعلى وكلما تخلصت من فكرة جعلتها تثبت بقوائم الأخرى في أبهى اثر وارق معنى وهكذا استطاعت المرأة الأندلسية ان تحقق كياناً عضويًا تسيطر عليه عاطفة قوية منتشرة في كل أجزاء القصيدة :

ومن حسن التخلص أبيات حفصة بنت الحاج

التي بعثت بها إلى أبي جعفر على عادة التراسل بينهما شعرا وفيها تقول :

أزورك أم تزور فان قلبي

إلى ما تشتهي ابدأ يميل

وقد أمنت أن تظمي وتضحى

إذا وافى إلى بك القبول

فتعري مورد عذب زلال

وفرع ذوابتي ظل ظليل

فعجل بالجواب فما جميل

أفأنتك عن "بنينة" يا "جميل"

البيت الأول قد نسب إلى ولادة في النوح والمغرب وغيرها من المصادر الأخرى . (1)

فهذا لون جديد كل الجدة من شعر المرأة ومسلك جديد في دنيا الشعر لقد وضعت من تخاطبه في موضع التخيير (أزورك أم تزور ثم انتقلت إلى لون آخر من الإغراء ووصف ثغرها وجمالها ثم عمدت إلى صيغة ايقاعية من الشعر وشتها بالتورية اللطيفة في مخاطبة صاحبها ب "جميل"

ومن روائع حسن التخلص في القصيدة الأندلسية

قول ابن سفر المريني في الأندلس :

في أرض أندلس تُلذَّ نَعْمَاءٌ ولا يفارقُ فيها القلبُ سراءُ
 وليس في غيرها بالعيش منتفعٌ ولا تقوم بحق الانس صهباؤُ
 وأين يُعدل عن أرض تحف بها على المدامة أمواه وأفياؤُ
 وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاءُ
 أنهارها فضةٌ والمسكُ تربتها والخزُ روضتها والذُرُ حصباؤُ
 وللهواء بها لطفٌ يروق به من لا يرقُ وتبدو منه أهواؤُ
 ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا ولا انتشارُ لآلي الطل أنداءُ
 لذلك يبسم فيها الزهر من طرب والطيروُ تشدو وللأغصان إصغاءُ (١)

والطبيعة في الأندلس ساحرة أخذة بحار هادئة وسماء صافية واللون
 الغالب على الصورة هو الخضرة الدائمة والأشجار الوارفة والرياض الغناء
 والنسائم تسري علية تنهادى بين الرياحين كأنها رسل الأحباب والطيور المغردة
 ترسل ألحانها فهي جميلة ساحرة عطرة مبهجة للنفوس فالقصيدة تسير في وحدة
 عضوية متكاملة فقد وصف الشاعر حبه وتعلقه بتلك الجزيرة التي هي بهجة
 للأبصار ثم انتقل لوصف رياضها ورباحينها ثم وصف هواءها ونسيمها العليل
 وفي براعة واستطاع الشاعر ان يوجد الهدف والغرض فكلماته تتساب من وصف
 إلى آخر ومزج بينها مزجاً يكاد لا يخرج بالقصيدة من هدفها الأصلي .

يقول ابن عبدون في مرثيته حيث يستعرض أحداث التاريخ الجسام التي أودت
 بتلك المدن الإسلامية الكبيرة ويستعرض في تضاعيف صفحاته القبائل العظيمة
 التي انتهت مثل قبائل البائدة والعاربة مثل طسم وعاد وجرهم وسبأ ومضر وعبس
 وذبيان ويذكر من أعلام فرسان الجاهلية كليباً ومهلهلاً ويستعرض كذلك شهداء
 الإسلام وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين ولا ينسى ان يضمن قصيدته استشهاد
 جعفر وحمزة عمي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومقتل عثمان وعلي
 واستشهاد الإمام الحسين .

يسوق ابن عبدون هذه العبر في وحدة عضوية متكاملة متسقة الاجزاء في الوزن والقافية وتسلسل الاحداث ويبدو ذلك واضحاً في امانة الشاعر المؤرخ حيث يقول:
وخضبت شيبَ عثمان دماً وخطت إلى الزبير ولم تستحي من عمر

وليتها اذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر (١)

ويستمر ابن عبدون ليكمل اجزاء وحدته ويصف غدر الدهر وخيانة الايام ضارباً المزيد من الأمثال متعرضاً لقضية اتهام معاوية لدس السم للإمام الحسن والحسين وعبيد الله وللأخوين مصعب وعبد الله ثم يصف مقتل الوليد بن يزيد من ملوك بني امية وشعرائها وخلفائها وسيوف السفاح ونكبه البرامكة ويستعرض في أحداث التاريخ حوالي خمسة وثلاثين بيتاً هدفها العبرة وغدر الأيام ببني المظفر .
ثم يطرح قضية من أهم القضايا الا وهي رحلة الإنسان القصيرة من هذه الدنيا وسرعان ما تراوده الحسرة على بني المظفر ويصفهم بانهم سادة الفرسان ورؤوس الحرب والفتح والطعان وهو القائل :

بني المظفر والأيام ما برحت	مراحلاً والورى منها على سقر
سحقاً ليومكم يوماً ولا خملت	بمثله ليلة في غابر العُمُر
من للأسرة او من للاعنة او	من للأسنة يهديها إلى الثغر
وطوقت بالمنايا السود بيضهم	فاعجب لذاك وما منها سوى ذكر
من للبراعة او من للبراعة او	من للسامحة او للنفع والضرر
او دفع كارثة او ردع آزفة	او قمع حادثة تغيا على القُدر (٢)

وفي المرحلة الأخيرة من قصيدته يبكي ابن عبدون الدولة المظفرية ممثلة في الملك عمر الملقب بالمتوكل الأديب الفارس الشاعر وفي ولديه الفضل والعباس وكانوا قد استشهدوا دفاعاً عن ملكهم أمام محافل المرابطين ويشيد بالمعاني

(١) انظر القلائد ص ٤١

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٣

الجليلة والقيم العليا التي تمسكوا بها في وفاء وجلال وإباء وينتقل إلى عدم
الاستقرار في الحكم . فذهب الاستقرار وغاب الأمان .

الشاعر بلا شك قد تعانقت أفكاره من لطف النظر والرؤية والقدرة على التصوير
والشعور الفياض فهاجت في نفسه ذكريات العروبة حتى وصل بوحدة القصيدة إلى
اعمق مقوماتها .

ويستطرد الشاعر في مرثية متحسراً اسفاً وفيها يقول :

ويح السماح وويح البأس لو سلما	وحسرة الدين والدينا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية	تعزى إليهم سماحاً لا إلى المطر
ثلاثة ما رأى السعدان مثلهم	واخير ولو عززوا بالشمسي والقمر
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا	وكل ما طار من نسر ولم يطر
ومر من كل شيء فيه أطيبه	حتى التمتع بالأصال والبكر
اين الجلال الذي غضت مهابته	قلوبنا وعيون الانجم الزهر
اين الإباء الذي ارسو قواعده	على دعائم من عز ومن ظفر
اين الوفاء الذي اصفوا شرائعه	فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسي ارض الله منذ مضوا	عنها استطارت بمن فيها تقر

لقد افتقد الأندلسيون بني عباد فبكاهم الشعراء وحزنوا على بني المظفر فقد

حمل الشعراء جروحاً نازفة تغطي مساحات كثيرة من القصيدة وذلك الالم الذي لا

يعرف النهاية ولعل في تكرار حكماته صدق لم يشعر به في وحده وعمق إدراكه .

وفي تلك الخسارة التي منيت بها الأندلس وتلك المواقف التي تحمل أدق الملامح

لحاله الشعب ومعاناته . وتلك المدن التي سقطت الواحدة تلو الأخرى وكأنها في

سباق مع النهاية .

وهذه مجموعة لأجزاء من صور شعراء الأندلس وكما يبدو أنها قوية مترابطة

عميقة متحركة تصدر عن مودة وأصالة فيها حسن ودقة وصفاء يعود من رحلة

التجربة الدقيقة .

فتشاكلت الكلمات والمعاني وامتزجت في ابداع ونسق حتى جاءت الصور تموج
بالحركة ينعكس في رسم أحرفها وانسجام خيالها ، فلها من قوة التأثير ما يجعلها
تمس نبض الشعور . كل ذلك في نسق تام ووحدة مترابطة وتخليص محكم دقيق

التعليق :-

لقد أبدع الشاعر الأندلسي في افتتاح قصائده وعرف كيف يخلص إلى ربط تعابيره وأفكاره لأنه قد اختار خاتمة ثلاثم نفسه وصادف هوى في أفئدة الناس لأنها استوعبت حياتهم في كل زمان ومكان ولمست طباعهم فظهرت جهودها المستقلة في كثير من زوايا الإنتاج الفني .

لذا وجب ان تكون الخاتمة أجود بيت في القصيدة وان تتضمن في الغالب حكمه او مثلاً سائراً وذكر صاحب الصناعتين ان القصيدة لا تختم بالدعاء إلا للملوك (١) وهذا ليس شرطاً جازماً فكثير من القصائد وفي أغراض مختلفة ولغير الملوك نجدها قد ختمت بالدعاء من ذلك .

قول ابن زيدون في مقطوعته التي يعبر فيها عن شوقه وانه لا يستطيع صبراً على لقاء محبوبته ويبدو من كلمات القصيدة انه مضطرب بين اليأس والأمل يقول :

يا ربّ قربّ عليّ خير تلاقينا بالطالع السعد والطير الميامين

و أوصى ابن بسام ان يكتب على قبره بعض ابيات من الشعر ختمها بالدعاء وذلك في قوله :

يا رب عفواً فأنت مولانا قيصر في أمرك العبيد

وابن زيدون قد أبدع في البناء الفني للقصيدة وبرع في تخلص معظم قصائده وأوضح العلاقات الواضحة من موقع البيت بما قبله وبعده وقرب بين أحداث القصيدة في ترابط وثيق ونراه قد بدأ قصيدته بشيء من خيوط الأمل بقوله :

هل راكبٌ ذاهبٌ عنهم يحييني إذ لا كتاب يوافيني فيحييني

فالقصيد قد بدأها بالاستفهام وهذا دليل على عدم تأكده من عودة ذلك الصفاء مرة أخرى وتستمر القصيدة في كلماتها التي تعكس نظرة الشاعر إلى ما تحمله نفس من صدق العاطفة والوفاء الخالد وقد تأسس موقفه من الوجود والحياة من خلال إيمانه بهذه الحياة فالقصيدة استمرت في بناء تفعيلي موحد وهذا مما يثرى الإيقاع ويمثل ظاهرة واحدة في القصيدة كلها مما يطبعها بطابع موسيقي خاص ومثل هذا

الإيقاع الصاخب يعكس حركة الذات تحت تأثير المحبوبة الغائبة وخضوعها لعلاقة لا تقوم على التكافؤ فبعد ان كان حياً فحل الغياب ولكنه يتزرع بالصبر وله في ذلك أمل ويرجع مرة أخرى فينفي ذلك ثم يتذكر وفاءه وانه عطش دون الارتواء ثم يتذكر همومه ويرجع ذلك للأقدار التي حكمت بالفراق ففارق وفي النهاية يعاوده الأمل فيرفع اكفه إلى السماء آملاً ان يقرب الله ذاك التلاقي بالسعد والطير الميامين .

لعلنا نلاحظ ان الشاعرة الأندلسية جانست بين المقدمة والاستهلال والخاتمة فرسمت صورة محكمة لنهاية قصائدها من ذلك قول ولادة شاكية فراق صاحبها ابن زيدون وقد غاب عنها بعض الوقت
سقى الله ارضاً قد غدت لك منزلاً

بكل سكوب هاطل الوبل مُغدق

ومن قصيدة لمريم بنت يعقوب الأنصاري تمدح فيها الأمير المهدي الذي بعث إليها عدداً من الدنانير وخلع عليها من ادبه فقالت له رداً على ذلك الصنيع :
من كان والده العضبُ المهندُ لم

يلد من النسل غير البيض والاسل (١)

هذا الشعر وان يكن مصطنعاً لرد تحية وعرفان جميل ختمته الشاعرة مريم بالمدح والثناء على من له اياد سابقه عليها .

ومن هذا المنطلق يجدر بنا ان نشير إلى سؤال ألا وهو :- هل استطاع شعراء الأندلس وشاعراتها ان يقدموا قصائد تتوفر فيها الوحدة الفنية والبناء التام للقصيدة الأندلسية من حيث الاستهلال والتخلص والخاتمة بهذا المفهوم الإجابة على ذلك تكمن في تلك الشذرات التي إقتطفناها من دواوين بعض الشعراء فقد صدقوا في هذا المفهوم وفازوا بالسبق على غيرهم .

المبحث الثاني

اللغة والألفاظ والأساليب

(٥-٢) اللغة والألفاظ والأساليب :-

فاللغة الشاعرة فن دقيق التنظيم كامل الإدارة مطبوع لا كلفة فيه على قائل
ذي مقدرة على التعبير له نصيب من الشاعرية والملكة الفنية ولا خير للفن في
كلام يقوله من يعجز عن هذا القدر من السليقة الشاعرية والملكة الفنية ومن قول
ابن هذيل التميمي وقد كان شاعراً كفيفاً وهو أستاذ للرمادي يوسف بن هارون (١)

إني حبستُ على قلبي يدي بيدي وصحتُ في الليلة الظلماءِ وآكبي
ضجتُ كواكبُ ليلي في مطالعها وذابتُ الصخرةُ الصماءُ من كبدِ
ولعل المعنى متفق مع قول أبي الحسن الهمزاني
والذي يقول في أبياته :

مددتُ إلى الوداع يداً وأخرى حبستُ بها الحياةً على فؤادي
هؤلاء الشعراء قد أبكتهم الربوع والطلول واطهروا المكنونة على الأحبة فسكنت
الجوانح والضلوع وهاجت الأشواق وأصبحت القلوب في قلق ولسان حالهم يقول :
أن نظرة عابرة لبعض أبيات من قصائد الشعراء المختلفة كفيلاً بان تطلعنا على
مدى موهبة الشعراء الفنية وإبداعاتهم في مجال اللغة والألفاظ والأساليب
من الشعراء من عبروا عن اللفظ ورب كناية تغنى عن إيضاح ورب لفظ يدل
على ضمير . قال أحد الشعراء عن اللحظ في أسلوب سهل ومعاني واضحة .
جعلتُ علامات المودة بيننا دقات لحظ هن أمضى من السحر
فاعرفُ منها الوصل في لين لحظها واعرفُ منها الهجر بالنظر الشزر
وقالت ولادة بنت المستكفي الشاعرة الأدبية تهجو الأصبحي
يا أصبحي أهنا فكم من نعمه جاءتك من ذي العرش رب المنن (٢)
وقال ابن الزقاق البلنسي في الحكمة
العين تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بغض إذا كانا

(١) انظر ترجمته في النسخ ص ٣٦

(٢) الأدب العربي في ظلال القوميات ص ١٤٤

فالعين تنطق والافواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا (١)
 كثر الشعراء أكسبتهم الحياة موهبة في نظم الشعر وتفسير ما عمق من الأسرار
 فنثروا حكمهم درراً وصاغوها صموتاً وعبروا عن موهبتهم الشعرية المتفردة
 واستقوا تجاربهم وخبراتهم من الزمن من ذلك قول احدهم :

يعرف عقل المرء في اربع مشيته أولها والحرك
 ونور عينيه والفضاظة بعد عليهن يدور الفلك

وقال آخر :

ان الفتاة وان بدأ لك حُبها فبقلبا داءً عليك ذفين
 واذا ادعين هوى الكبير فانما هو للكبير خديعة قرون
 واذا رأيت الشيخ يهوى كاعباً فبقلبه من درك القرون زبون
 وقال بعض الحكماء:

انا شيخ وقلت في الشيخ شيئاً يعلمه كل ابله وذهين
 كل شيخ تراه يكثر في كسب الجواري فخذ له بالقرون

وتكشف الفاظ الشاعر الأدبية وأبنية الأفعال عن موهبته وعاطفته في زمن
 شيخوخته وهي عاطفة تعبر عن الزمن الماضي المرادف لزمن الصبا والشباب .

تسألني عن حالتي ام عمُر وهي ترى ما حل بي من العبر
 ما الذي يسأل عنه من خبر وقد كفاه الكشف عن ذاك النظر
 ما تكون حالتي مع الكبر اربد مني الوجهة وابيض الشعر
 وصار رأسي شهرة من الشهر وبيست نضرة وجهي واقشعر
 ونقص السمع بنقصان البصر وصرت لا انهض إلا بعد شر
 فانظر إلى واعتبر ثم اعتبر فإن للحليم من معتسير (٢)

أن عالم الفن رحب السعة فسيح الجنابات وكلما زادت خبرة الفنان وتفكيره زادت
 لحظات الهامه فالألفاظ والمعاني تكمن في النفس ينتظر الشاعر البارع ليكشف
 عنها الستار بكلماته وتعبيره وهذا ما نلاحظه دائماً عند شعراء الأندلس وشاعراتها

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٦١٩ وديوان ابن الزقاق ص ٢١٧

(٢) استخرجت من بهجة المجالس لابن عبد البر (مخطوطة دار الكتب المصرية) ص ٢٦٥

(النفس تسكن إلى كل ما يوافق هواها وتقلق ما يخالفها ولها احوال تعرف بها فاذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت منها اريحية وطرب واذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت)^(١).

وتحدثت حازم عن صدق العبارة والمعاني بقوله ان للشعر مواطن حقيقية يكون الصدق واقعها ومواطن لا يليق بها ذلك اذا وافقت موقعها ، ولا سيما اذا أبدت ما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة بها والتصريح بما كان يكتم فيها والاعتراف بالحق في جميعها^(٢).

أما فيما يختص بالمعاني فان الأندلسيين اتوا بما يعتبر ابتكاراً وخلقاً في هذا الصدد يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - يقول في صفة الأسلوب والمعاني الأندلسية (تمتاز المعاني الأندلسية بتجسيم الخيال وإحاطاته بالمعاني المبتكرة التي توحى بها الحضارة والتعرف في فنون القول واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة في جمل وعبارات وأساليب تخرج كأنها التوقيع الموسيقي بل هي تحمل على التلحين بما في الفاظها من الرقة والرنين ولا يشاركهم في ذلك الا من ينزع هذا المنزع ويتكلف ذلك الأسلوب لان جزاله اللفظ في شعرهم انما هي روعة موقعه ، وتلك فلسفة الجزالة في اللغة .^(٣)

اهتم شعراء الأندلس وشاعراتها بالمعاني والأفكار إلى جانب صورهم الشعرية وقد تقتصر اللغة وموازينها عن الكشف عن أسرار تلك النفس فالإحساس بالصدق ومعاناة الحياة وجمال الطبيعة وخبرة السنين وتجارب الحياة والسمو الفكري والأدب يجعلك تعيش معهم بروحك وعقلك وقلبك ومعاني التجربة الصادقة تتسلسل إلى نفسك فتتهتز أوتار القلوب لها فمن الشعراء من تجرع الم الفراق لذلك جاءت قصائدهم فريدة من نوعها أصيلة في واقعها إلى جانب جمال الأفكار قوة المعاني من ذلك قول ابن زيدون :-

(١) عيار الشعر ص ١٥

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأبناء حازم القرطاجني تحقيق محمد الحبيب دار الكتب الشارقة تونس ١٩٦٦م ص ٢٠٧

(٣) تاريخ اداب العرب محمد سعيد العريان ط ٢ مصر ٢٦٣/هـ - ص ٢٨.

هل تذكرون غريباً عادته شجنُ
يَخْفِي لواعجه والشوقُ يفضحه
يا ويلتاه ايبق في جوانحه
وارق العين والظلماء عاكفة
من ذكركم وجفا اجفانه الوسنُ
فقد تساوى لديه السرُّ والعَنُ
فؤاده وهو بالأطلالِ مُرتهنُ
ورقاء قد شفها اذ شفني حزنُ (١)
وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصنُ
كنتا وكانوا على عهد فقد ظعنوا
ان الكرام بحفظ العهد تمتحنُ
او تحفظون عهداً لا اضيعها

اصبح الشاعر يئن في هذه الشكوى وهو نازح غريب يتحدث عن حزنه وسهاده
ولوعات حبه وتشجيه ورقاء فينبض قلبه

انها قدرة فريدة في عالم الإبداع عبر عنها بهذه الأبيات التي جاءت تحمل مشاعر
صادقة حتى جرت على مسامع الناس فتمثلوا بها لخفتها وسرعة تعلقها وانسيابها
إلى القلب .

وهذا يذكرنا بقول شاعرنا الطموح المتنبّي حينما تحدث عن بث لواعج نفسه
الحزينة وهذا ديدنه في الحياة عندما يصل إلى اقتناع ذاتي فيغزى شاعريته
بالأفكار والمعاني النبيلة فقال :

لئن تركت ضميراً عن ميامنا ليحدثن لمن ودعتهم ندم (٢)

لقد اتخذ المتنبّي مسلكاً آخر ولم يجد مفراً من الفراق وما اصعبه على قلبه فهو
يشعر بندم اميره سيف الدولة الحمداني وفقده له . إن هذا الكون ملئ بالمغريات
وكم من صدفة ارتسمت امام خاطر الإنسان يدعوها املاً عاش في وجدانه لكنها
خدمت بدون نداء

وقال ابن نباته السعدي :

ولما وقفنا للوداع عشيةً ولم يبق إلا شامتٌ وغيورُ
وقفنا فمن باك يكفكف دمه وملتزم قلباً يكاد يطيرُ

(١) ابن زيدون / شوقي ضيف دار المعارف ط ١٠ ص ٥٧

(٢) انظر شرح ديوان المتنبّي تحقيق عبد الوهاب عزام ط ١ القاهرة ص ٦٥

وقول بعضهم :

لما حدا الحادي بترحالهم هيج اشواقي واشجاني

وراح يثني القلب عن غيرهم فهو لهم حاد ولي ثاني

وقول الصفدي

لما اعتقنا لوداع النوى وكدت من حر الجوى احرق

رأيت قلبي سار قدامهم وادمع تجري ولا تلحسق

والحق ان هذا لون جديد من شعر العشق مدنته روح الأندلس ولعبت في معانيه

روح الحضارة فكل منهم قد وقف للوداع باك يكفكف دمه ويعتصر الألم قلبه

وفؤاده ويرسل سلام روحه ولوعة قلبه في تلك الأبيات الرقيقة العميقة .

معاني الشوق عندهم لا تتفذ ونبع التعبير لديهم لا يغيض بل يفيض .

لقد استجمع كل منهم شاعريته وتجربته وفجر كوامن عواطفه و معرفته ونثر

الدرر من معانيه وأفكاره واستعرض سحر قوافيها فجاءت الكلمات معبرة لكل قلب

فارق وودع وسلوى لكل صب وكنزاً لكل أديب ومثلاً لكل من عاش لوعة الضنى

واكتوى بهجر من احب في صدق ووفاء فكلمات قصائدهم تسير في غير ما

إسراف وكانت درراً من يدرر الشعر العربي فالمعاني قوية والأفكار واضحة

والموسيقى والإيقاع والغوص في أغوار النفس وأعماقها انها تمثل ينبوعاً صافياً

من صدق المشاعر المعاشة فكل منهم قد زين ابياته بصور زاهية الألوان بارعة

الظلال لمن ارتحل وخلف وراءه ذكرى ملأت على الشاعر حياته أينما حل وحينما

سرى او سار فالصفدي كاد قلبه ان يطير وآخر قد مد يده للوداع وحبس بالآخرى

قلبه وابن هذيل قد حبسه بكتنا يديه وصاح في ظلمة الليل واستغاث حتى ضجت

الكواكب وذابت الصخرة الصماء من توجهه لقد تفجرت طاقة الشعر الكبرى

واشتعلت جزوة الصبابة المحرقة في نفوس هؤلاء الشعراء فعبروا عن تجربتهم

في صدق وروعة الشعر الذي استنار بالاهتمام مؤرخوا الأدب وناقديه .

ومن الشعراء من حن وان وقلق قلبه وما اطمأن

أحسن إلى مشاهد انس الفي وعهدي من زيارته قريب

وكنت أظن قرب العهد يطفى لهيب الشوق فازداد اللهب

ومن قول الشهاب الزرعي في مثل هذا الغرض :

أحببتنا والله مذ غبت عنكم سهادي سميري والمدمع مدرارُ
ووالله ما اخترت الفراق وإنه برغمي ولي في ذلك الأمر اعدارُ
إذا شام برق الشام طرفي تتابعت سحائب جفني والفؤاد به نار
الآليت شعري هل يعودن شملنا جميعاً وتحوينا ربوع وأقطارُ^(١)

والشعر يثير المشاعر بما فيه من خصائص وبواعث وهو يتخير من اللفاظ
السلغة ومعانيها وأفكارها أنها ابعت على إثارة المشاعر والذات فالمعاني والأفكار
هي السمة الأساسية في الترابط المعنوي والتواصل والتلاحم يلعب دوراً فاعلاً في
تعميق المعنى وتأتي اللغة لتؤدي دورها في تجسيد المعاني وقد يتضافر الإيقاع
الخارجي ومما تثيره الألفاظ والمعاني من العواطف والتعبير عن الجو النفسي
ومن تلك العاطفة الهادرة التي تموج في نفس الشاعر . حيث كانت المرأة تحظى
بالتقدير والإجلال وامتزجت الصور بالطبيعة الحية المثمرة وإحساس النفس
بالحرمان والظمأ العاطفي والبعد الحسي والشعور بالأسى على فقدان الأمجاد
الإسلامية التي انمحت آثارها وضياع المؤلفات العربية وصور الوفاء والحنين
والذكرى التي نجحت في تكييف المعنى حيث جاءت الألفاظ والأساليب موافقة للغة
في معانيها في أدق نسق حسن ونظام.

المجلة الثالثة

الصور والأخيلة

الصور والأخيلة:-

وفي الخيال معنى الإعجاب بالنفس لأن التخيل يحدث إعجاباً بالنفس بمفاجآت صور غير متوقعة واختالت الأرض بالنبات أي بمعنى ازدانت ويقال خيل عليه وشبه الشيء صور خياله في النفس وخيل إليه كذا شبهه له (١)

الخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء ان يؤلفوا صورهم من احساسات سابقة لا حصر له تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم حين يحين الوقت فيؤلفون منها الصورة التي يريدونها (٢)

والشعر في اصله عاطفة وخيال او قل ان كمية العاطفة والخيال اكبر فيه من حقيقة وواقع وكلما ازدادت فيه هذه الكمية كان اقرب إلى إثارة الإعجاب وكان اقرب إلى كماله . (٣)

وقد تحدث النقاد العرب القدامى عن الخيال غير ان بعضهم لم يفرق بينه وبين الوهم الكاذب واحدهم سماه التخيل او الإبهام بالكذب .

على ان ناقداً آخر قد حاول ان يفرق بينهما فقال ان الوهمي ما لا وجود له ولا لأجزائه كلها أو بعضها في الخارج ، والخيالي هو المعدوم الذي ركبته المخيلة من امور موجودة كل واحد منها يدرك بالحس والخيال مصدر لتوليد الصورة الشعرية والتي وظيفتها تصوير الحقائق النفسية والأدبية(٤)

وللنقاد العرب (في العصر الحديث) وجهات نظر متباينة حول تقسيمه فمنهم من قسمه إلى قسمين فالأول استعان به الإنسان لفهم مظاهر الكون وتعايير الحياة والثاني لاطهار ما في النفس من معنى لا يفصح عنه الكلام المألوف ، ومن هذا القسم المجاز والاستعارة والتشبيه وغيرهما من فنون الصناعة (٥) حيث رسم الشعراء والشاعرات صوراً فنية استمدوها من خيالهم الخصيب ومنهم من قسمه إلى ثلاثة :

(١) انظر المعجم الوسيط مادة خييل ص ٢٦٥

(٢) اسرار البلاغة ص ٢٣

(٣) من قضايا الادب الاسلامي للدكتور صالح آدم بيلو دار المنارة لنشر السعودية جدة ط ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

(٤) في النقد الأدبي لشوقي ضيف ص ١٦٧

(٥) الخيال الشعري عند العرب نحو كولدرج ص ١٩٦

فالأول الخيال الابتكاري حيث يؤلف الأديب من العناصر المعروفة من قبل صورة جديدة على نحو قول :- احمد دراج القسطلي حينما وصف زهراء الناصر :

وكان ريحانة الحياة وروضها مستنشق من نافخات هوائها
فكانما اصطفت طلاقة بشرها من اوجه الأحباب يوم لقائها
وكانما اختار السرور مكانها وطناً فحل مخيماً بفنائها
وكانما ابدى الصبا ما بينها هزت سيوف الهند يوم جلائها (١)

ان شعر الشعراء وبراعة الفنانين لم تجمد عند زهراء الناصر وزاهرة المنصور بل ان يد الفن وربة الشعر قد احتفلتا بمنشآت اخرى باهرة انيقة كانت تسمى بالمنى وواحدتها منية فمن تلك المنى منية السرور او دار السرور التي كانت متصلة بالزاهرة والشاعر قد اصاب في وصفه وجاد خياله وضمن معانيه الوناً من التشبيهات فالفترة التي عاشها القوم في الأندلس كانت ذروة النعيم وهناء العيش وجماله . ومما اختصت به فراها الشاعر في غاية من الجمال لتصنع اهلها في اوضاعها وهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها :

لاحت قراها بين خضرة أيكها

كالدربين زبرجد مكنون (٢)

والنوع الثاني هو الخيال التأليفي كقول الشاعرة حمدونة بنت زياد تغني للطبيعة فنقول :

اباح الدمع اسراري بوادي
له للحسن اثار بوادي
فمن نهر يطوف بكل روض
ومن روض يرف بكل وادي
ومن بين الأطباء مهارة أنس
سبت لبي وقد ملكت فوادي

(١) ديون ابن سهل الاندلسي / احسان عباس ص ١٤٥

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة

لها لحظ ترقده لأمر

وذاك الأمر يمنعني رقادي

إذا سدلت زوائبها عليها

رأيت البدر في أفق السواد

كان الصبح بات له شقيق

فمن حزن تسربل بالسواد (١)

فهذا الخيال يصح ان نسميه خيال مؤلف لانه يؤلف بين مناظر مختلفة فالشاعرة تشعر بالشيء وأثره في نفسها وهذا يستدعي عندها صورة اخرى اثارته مثل ذلك الشعر من قبل فألفت بين الشعورين بضرب من التشبيه اضفت عليه معاني روحية اثرت في النفس و اكسبت خيالها قوة وجمالاً (١)

والثالث : وهو الغالب على أدبنا العربي وهو الخيال البياني او التفسيري وهو يظهر في نحو قول ابن خفاجة الأندلسي :

ومائسة تزهي وقد خلع الحيا عليها حلّى حمراً وأردية خضرا

يذوب لها ريق الغمام فضة ويسكن في اعطافها ذهباً نضراً (٢)

هذا الخيال ليس ابتكارياً يعني بتأليف امور جديدة وليس استخدام صور حسية لبعض مشاعر تستدعي صور تشبهها كما هو الشأن في الخيال التأليفي وانما تجدنا الآن امام تفسير لجمال فالزهرة هنا كائن حي او فتاة مزهورة بجمالها تلبس الثياب الخضراء وتزين بالجواهر يعشقها الغمام فسأل لعبه فضة فإذا استقر في اثائها استحال ذهباً خالصاً ناضراً (٤)

على ان ناقداً معاصراً آخر لم يرض عن هذه القسمة للخيال لانه حسب رأيه من الواجب ألا نتردد في أن نحفظ للخيال الفني وحدته . وطبيعته المركبة والا نعتبر بمحاولة القسمة التي تقوم على تشفيعات خاطئة فكل صورة خيالية انتاج عناصر

(١) فح الطيب ج ٦ ص ٢٣

(٢) النقد الأدبي أحمد امين ص ٥٧

(٣) ديوان ابن خفاجة الأندلسي ص ١٨٧

(٤) أصول النقد الأدبي أحمد الشايب ص ١٨٨

موضوعية وذاتية معاً وليس من المستطاع ان نعرف اين ينتهي الحس الخارجي واين يبدأ التأمل الداخلي على حد تعبير المؤلف.

والتقسيم الأول أحسن جودة لانه اقرب إلى واقع الشعر العربي الذي اعتمد على المجاز والاستعارة والتشبيه لإظهار ما في نفس الشاعر من معنى لا يفصح عنه الكلام المؤلف ، والغرض من هذا الخيال كما يبدو واضحاً من خلال قول ابي هلال العسكري حين حدد الهدف من الاستعارة بقوله اما ان يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو التأكيد المبالغ فيه أو الإشارة اليه بالقلب من اللفظ أو بحسن المعرض الذي يبرز فيه (١)

ومن هنا يتضح لنا ان مفهوم الصورة قديماً يقوم بنيانه على الخيال ومن مجاز او تشبيه او استعارة وغيرها من فنون الصناعة ولكن هناك صوراً كثيرة لا تعتمد على الصور البلاغية اذ أن الشاعر يملك كثير من وسائل التصوير .

والشاعر المبدع يعتمد في بنائه الفني للقصيدة ويعتمد في تكوين صورته على خطوط والوان وحركة وظلال تحمل في طياتها فكرة وعاطفة لكنها توحى بأكثر من المعنى الظاهر اذ الصورة من يد صانع يعرف كيف يضم الخطوط والالوان والظلال وفي جميعها لا ينحس الا ائتلافاً وانسجاماً بين تلك العناصر ووظيفة الخيال في هذه الصورة ان يحول الظواهر الخارجية إلى صورة نفسية نتخطى عالم العقل إلى الحدس والكشف والإشراق (٢)

والمدار في الصورة هو التشكيل الفني ذاته وليس المعنى وحده او المجاز وحده لانه هو الخالق الفني الذي يعتمد اليه الشعر والشاعر لا ينقل الصورة كما هي بل يخفيها لتشكيله وخياله ، وتأتي صورة لفكرته .

وأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب ما لا يمكن اغفاله من الصور النفسية والعقلية ويدخل في تكوين الصورة ما يعرف بالصورة البلاغية من تشبيه

(١) الصناعتين ٢٦٨

(٢) الشعر العربي المعاصر شوقي ضيف ص ٢٤

ومجاز إلى جانب التقابل والظلال والألوان وهذا التشكيل يستغرق اللحظة الشعورية والمشهد الخارجي (١)

غير أن الصنعة الفنية في الشعر الأندلسي تتمثل في معظم حالاتها في أشكال البيان العربي من تشبيه واستعارة وكناية إلى جانب بعض الصور الحقيقية وفي الغالب تعتمد هذه الصور على الحس وآلاته والبصر والسمع واللمس والذوق والشم وتأتي قليلاً في صور نفسية أو عقلية (٢)

ونلاحظ أن الصورة الشعرية والتي هي أساس البناء الفني للقصيدة العربية قد شددت انتباه الشعراء الأندلسيين واستولت على عقولهم تلك التي اخذوها من وصف الطبيعة ومن الغزل ووصف الخمر وقد تشمل في بعض الأحيان جميع هذه الأغراض . وكان اعتمادهم على ذلك كله على ألوان البيان الذي ورثوه ممن سبقهم من الشعراء .

وفي تصويرهم للمرأة كانوا ينظرون إلى المثل الأعلى لها في تلك الصفات التي ارتضاها اجدادهم المشراقية بل والجاهليون قبلهم فكانوا يصورونها بالطبيقي قداً والنجس لحاظاً وبالبدن لوناً وبالمسك طيباً وغيرها من الأوصاف الأخرى . وهذه صورة للمرأة التقليدية إرتضاها (ابن زيدون) لصاحبته وحبيبته ولادة (٣)

ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكاً وقدر إنشاء الوري طيناً
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه من ناصع التبر ابداعاً وتحسيناً
ومن شعر ابن عبد الصمد في رسمه للصورة المتلى للجمال (٤)

ووجوه مثل البذور تلالاً وقود كأنها قضيب بان
فوق اطواقها سنا صفحات معجمات السطور بالخيلا
وعيون من نرجس وخدود من شقيق على طلا سوسان
فاجتينا زهر الخدود غضيباً من شقيق أرواح تلك الدنان

(١) في الشعر الإسلامي والاموي للقط ص ٢٥٦

(٢) ديوان ابن زيدون ص ٥٧

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٤) الخيرة ج ٣ ص ٨١١

صورة المرأة في الشعر الأندلسي هي الصورة نفسها التي تعود ناها في الشعر القديم لولا لمسات من الحضارة الجديدة وطبيعتها الخلابة التي اضافها الشاعر على تصويره لمحاسن المرأة .

ونلاحظ ان معظم الصور جاءت تصور طبيعة بلدهم التي فتتوا بها وبمظاهرها الجميلة فابدعوا في تصوير الليل والنجوم والقمر والمطر والبدر والأنهار والزهور المختلفة بل اشتقوا تصويرهم للمرأة من أجزاء في الطبيعة بتصويرات شنيقة رائعة : وصوره (ابن صاره) بقوله :

النهر قد رقت غلاله صبغة فعليه من صبغ الأصيل طراز (١)

ووصفه ابن العطار بقوله :

لله بهجة منزه ضربت به فوق الغدير رواقها الأنسام

فمع الأصيل النهر درع سابغ ومع الضحى يلتاح منه حسام (٢)

لقد صور النهر وقت الأصيل بزرع سابغ ثم صوره وقت الضحى بحسام يلتاح منه .

والحسام يشكل عنصراً هاماً من عناصر الطبيعة حيث يجعل من الاغصان مواطن شذوه يغنى عليها اعذب الألحان بصوت يكون له صدهاء في نفوس الشعراء فلهذا خطى بعناية شعراء الأندلس فالشاعر ابو مروان الحجاري رأى حمامة تشدو فتجاوب معها بنبضات قلبه ونار جوانحه فوصفها قائلاً :

ووزقاء مطوقة السوالف سندساً . لم يحك صنعتها حياكة حاك

تشدو على خضر الغصون بألسن صبغت ملائمها بلا مسواك

وكان ارجلها القواني البست نعلان من المرجان دون شراك

وكانها كملت بنار جوانحي فترى لاعينها لهيب حشاك (٣)

لقد اعتمد الشاعر في وصف الحمامة على عنصري اللون والصوت ثم مزج ذلك بنار جوانحه ولهيب اشواق المحبوب .

(١) القلائد ص ٢٦٩

(٢) نفع الطيب ج ١٦٨

(٣) تاريخ الألب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين لاحسان عباس ص ١٨٨

وكان مهتماً باستواء الصنعة في الشعر من خلال نماذج اللفظ والمعنى وهذا الاستواء هو محور من محاور البناء الفني للقصيدة فكلماته قد اتسمت بالجودة والحسن .

والشعراء يجدون من الخيال تماسكاً لعدد من التشبيهات في بيت واحد من ذلك شبه الوأواء خمس تشبيهات في بيت واحد حينما قال :

واسبلت لؤلؤاً من نرجس فسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

ولم يأت شاعر بمثل ما أتى به الوأواء في نظر أبي هلال العسكري (1)

لقد استعان الشعراء في صورهم بالطبيعة فرسموا لواحات ازدانت ببعض ألوان البديع ومنها التورية كقول لسان الدين الخطيب في موشحته :

وروي النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن انس

ففي عبارة ماء السما تورية وقد اضفى خفاء المعاني صورة خيالية موحية بجمال العبارات والذوق الفني الرفيع

ومن قول أبي عمران موسى :

وهو شيخ نحوي اديب ظريف حسن المعاشرة والاستكثار من مذاكرة الشباب توفي عام ٦٣٩م

يريني بعد شقوتي النجاها

شكوت لها الغرام عسى رضاها

ستائرہ فصل عني البطاها

فقال لي : إذا ما الليل ارحى

سوى عرف تضمنه الرياحا

فيمت البطاح ولا دليل

ينام وقد رأي ذاك السماها

فقلت : نم فقلت : أمثل طرفي

استيقظت يذكرك الصباها

فقلت : بل تناوم إن وجهي إذا

تراع وما صباح الروع لاحا

فتمسي طول ليلك في عذاب

وتركته في قيد الحياة .

نستطيع في هذا السياق ان نقدر موقف الشاعر من خيال محبوبته التي لم توف
بوعدها فقد وجد فيها الملاذ والرجاء والأمل لذلك جاء الخيال الشعري متسقاً مع
الموقف الفني الذي يعيشه الشاعر فيتجسد بالافعال الطليبية التي تعبر عن الشكوى
والرجاء والتوسل والتضرع معبراً عن محنة الذات وساهمت حروف العطف في
تحقيق التماسك و في ربط المعنى بما سبقه في نسق تام .

وأبيات القصيدة في مجملها صورة من صور حوار النفس وهو حوار يحاول من
خلاله الغوص في أعماقه وخياله بحثاً عن حقيقته واملأ في فهم ما يجرى حوله
انها رحلة تأملية في حوار الخيالي ولكنه يواجه بالإحباط ويعجز عن الوصول
إلى تلك المحبوبة حيث يعود خاسراً ويبرز الأسلوب في باطن الخيال فتتوزع
معانيه بين الخبر والإنشاء والعطف والتكرار والأسلوب الإنشائي يتمثل في الأمر
في نم وسل دلالة على أهمية الخطاب .

من ذلك يتضح لنا ان ملكة الخيال ذات قيمة كبيرة في الأدب وفي ابراز صورته
وكل ضروب الأدب تحتاج إلى خيال فالمؤلف بخياله يستطيع ان يستخرج الحقائق
ويرتبها و يزينها فكأننا نراها باعيننا ولا بد في كل ذلك من خيال وللخيال الأدبي
ارتباط كثير بالعواطف وكلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوي وصور
فنية يعين عليها فنجد الشاعر يذوب في نفس المنظر الذي تخيله او يذوب المنظر
الطبيعي نفسه فمعانيه موجهة إلى الشكل دون الجوهر وهذا ما حدث في الشعر
الأندلسي .

المبحث الرابع

الموسيقى والأوزان والقوافي

(٤-٥) الموسيقى والأوزان والقوافي

لقد فطن الإنسان إلى الإحساس بالجمال في مجالاته المختلفة سواء تجسده في صورة محسنة أو مدركة بالعقل أو متخيله أو تشكل في مقاطع صوتيه ذات نغم وإيقاع ييئها الشاعر في كلماته فتتشا عن حسن علاقاتها ما اصطلح عليه بموسيقى الشعر ولا يوجد شعر بدون موسيقى يتجلى فيها جوهره الزاخر بالنغم (١) ولا شك ان الشاعر قد فطن إلى دور العلاقة بين موسيقى الشعر والأوزان والقوافي وقد أدرك ذلك المبدعون فعبروا عنه بوسائلهم في الفن .

وتغنى الشعراء بأشعارهم واطافوا اليها لون من الموسيقى ونبض الشعر وأساس كماله وهي إرضاء للنفس والقلب والفكر فخضع الغناء للنغم وخضع الشعر للوزن . "وما الشعر الا ضرب من الموسيقى إلا ان نغماته تتكيف بالدلالة اللغوية فتقطع الأبيات تكرر النغمات تألفه الأذن وتسرب به النفس." (٢)

وجدت الأوزان في الشعر العربي نفسه وتحكيم الوزن والإيقاع ضرورة في الشعر فبالوزن تسير القصيدة في تركيب محكم موزون مع نغمات الإيقاع المتداخل وهذا التوافق يحدث نوعاً من الموسيقى الساحرة حيث تسعى الكلمات والتقسيمات فيها إلى قوة تكثيف أسرار النفس فالنغم يجمع بين المدلول والإيقاع ويصل الموضوع بصاحبه ومعظم الشعر الأندلسي يسير على وزن موحد وقافية تلون وتشكل أبيات القصيدة وتسير على نفس نغمة الوزن والبحور قد وجدت في الشعر الأندلسي مساحة واسعة مما كان له اثر في التشكيل الموسيقي إذ يعتمد الشاعر الأندلسي والشاعرات خاصة على ما تحمله الكلمات من أصداء هي في الواقع استجابة للإيقاع الذي صدرت عنه القصيدة .

من ذلك قال ابن خفاجة من قصيدة بعنوان الغربية والقصيدة من بحر الكامل
وغربية همست إلى غريرة فوددت لو نسج الضياء ظلاما
طلعت علي مع المشيب تشوقني شيخاً كما كانت تشوق غلاما
مقبولة اقبلتها عن لوعه نظراً يكون اذا اعتبرت كلاما

(١) موسيقى الشعر محمد شكري عياد ط ادار المعارف القاهرة ص ٦٥

(٢) المقدمة تاريخ ابن خلدون ج ١ بيروت ١٩٧١م ص ٩٦

عذرت وقد اجللتها عن نشوة كبر واوسعت الزمان ملاما
عبقت وقد حن الربيع على النوى كرمأ فأهداها إلى سلاما

اتسمت قصائد ابن خفاجة بالغموض وهو غموض نابع من شخصيته القلقة فهو
كثير الترحال والانتقال يشعر دائماً بتضاعف هذا الإحساس في نفسه بعد أن امتد
به العمر بعد الثمانين فزادت الشيخوخة من الآمه النفسية . وهذه القطعة تتسم
بالغموض المستمد من شخصية الشاعر فهو يبدوها بقوله "وغريبة" وهي بداية
تجعل القارئ يتساءل عن هذه الغريبة وما علاقاتها بالشاعر وماذا يريد منها؟ ما
السر في البدء بهذه البداية الغامضة ولماذا سبقها بواو رب؟

ان كلمة غريبة تعطي بداية إحساساً بالغربة وذلك مما يجعل معنى الغربة ذات صلة
بجو النص بطريقة او باخرى . اما الدلالة التالية التي تبديها الكلمة فهي دلالة
التأنيث وقد اردف الشاعر بجملة فعلية فاعلها مستتر مما يزيد المسألة غموضاً .
غير ان الجملة الفعلية الوصفية تعطي أول ملح عن هذه الغريبة الضاربة في
أعماق المجهول فهي قد همست إلى الشاعر أي اتصلت معه في علاقة ايجابية
تقوم على البشاشة والمودة . كما تشير إلى ثمة عاطفة واحدة قربت بينهما هذه
العاطفة لابد ان تكون وثيقة الصلة بالغربة وذلك يعني ان ثمة توحداً واشتركا بين
الطرفين (الغريبة والشاعر) في الإحساس بالغربة ولكننا لا نلبث ان نجد انفسنا
إزاء صفة ثانية جاءت بصيغة التكرير لتلك الغريبة لا تقربنا من الوصول اليها
بقدر ما تبعدنا عنها وتزيدنا جهلاً بها ولا نفقا تضيف غموضنا إلى غموضها
فلماذا يصفها الشاعر بهذا وهل يعني بهذا الوصف فتاة صغيرة السن قليلة التجربة
ام يقصد شيئاً آخر؟ . ان الاحتمالين مطروحان حتى هذه اللحظة وعلينا ان نمضي
مع الدلالات التي تكشف النقاب عن تلك الغريبة وصلتها بالشاعر .

وتأتي امنية الشاعر (وودت) أشد غموضاً فهو يتمنى ان ينسج الضياء
ظلاماً وهي امنية عجيبة حقاً فالمألوف هو النقيض أي ان الإنسان يتمنى ان
يتحول الظلام إلى ضياء . فهو يقصد الشاعر هنا الضياء الحقيقي والظلام
الحقيقي.

فهذه الصور كثير ما نجدها عند ابن زيدون في نونيته باعتبار ان الليل هو زمن العشق والوصال الذي يتمنى الشاعر دوامه ويتألم لانتهائه . فهل يتمنى ابن خفاجة زوال الضياء وحلول الظلام ولو انه قد يحصل العكس فمنهم من وجد ان لا فائدة في زواله او حلوله فكلاهما سواء .

ان الجملة الفعلية وددت تشير إلى أن ثمة إحساساً بالموودة قد غمر الشاعر حين همست اليك تلك الغريبة وإذا كنا قد حملنا امنية الشاعر على المعنى الحسي الظاهري فلا بد ان نحملها على المعنى المجازي ونجد ان الصورة تردد في الشعر القديم حيث يشير الضياء إلى زمن الشيب وهو الزمن النقيض للظلام . وهذا يرجح على ان تكون امنية الشاعر هذه الغريبة ولكنه يدرك ان تحقيق هذه الامنية ضرب من الخيال ومع ذلك فالصورة ما تزال تحتاج لمزيد من الوضوح .

ثم يتقدم الشاعر في قصيدته ويعترف بطولع تلك الغريبة يعلل دفته بالغروب ثم يتحسر الشاعر ويرجع ذلك إلى إحساسه بالفارق الزمني ويحاول الشاعر ان يخفي عجزه فهذه الغريبة ورده صغيرة غريبة طرأت على حياة الشاعر وهو في مرحلة الشيخوخة وكأنها جاءت في وقت متأخر وقد أدت اللغة دورها في تكيف هذا الغموض على خير وجه وجاءت الأفعال الدالة على تلك الغريبة خالية من الضمائر بينما بقيت افعالها ماثلة همست طلعت عبت .

وتكشف الألفاظ عن عاطفة الشاعر في زمن شيخوخته وهي عاطفة مشدودة إلى زمن الماضي أنه يشعر باحساس حاد بالعودة إلى زمن الشباب ونحس في أبيات القصيدة الصوت واللون والحركة وهذه مكملات الإبداع الفني في القصيدة ويأتي تضاد المعاني بين الضياء والظلام ويتوافق البناء الموسيقي مع الجو النفسي المهيمن والإيقاع الخارجي قائم على بحر الكامل بموسيقاه الهادئة وتلاحظ تفعيله متفاعلاً تتكرر مرتين ثم تتغير الصورة في التفعيلة الأخيرة لتكون فعلاتين وانتهت القصيدة بحرف المد الطويل الذي اكسب الكلمات نفساً طويلاً واهات حري أسفاً وتحسراً على ذلك البعد الزمني الذي حال دون تحقيق رغبات الشاعر . والتي قد انتهت وكأنها خاطرة مرت دون ان ترى النور وبقيت ذكراها خالدة في نفسه .

وفي تجربة تعد من اعمق التجارب التي مرت بالشعراء والتي اجتاح فيها الشعر
عمق الأبعاد والتفصيلات التي لا تترك مجالاً للإيحاء والرمز والصور الفنية البعيدة
عن التكلف والتناقض فنظم ابن زيدون قصيدته والتي قد عبر فيها عن سهاده
وأرقه لهجر حبيبته وعن عذابه وسجنه وألمه والقصيدة من بحر البسيط وهو
القائل :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر
ولا استطت ذمء الليل من أسف
ناهيك من سهر برح تألفه
فليت ذاك السواد الجون متصل
أما الضنى فجنته لحظة عن
فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي
والصدر مذ وردت رفها نواحيه
حسن افانين لم تستوف أعيننا
واها لشغرك ثغراً بات يكلوه
يغضان لم يكتحل غمضاً مراقبة
لا لهو أيامه الخالي بمرجع
إذ لا التحية إيماء مخالسة
منى كأن لم يكن إلا تذكرها
من يسأل الناس عن حالي فشاهدتها
لم تطو برد شبابي كبرة وأرى
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كتب
ها إنها لوعة في الصدر قاذحة
لا يهنىء الشامت المرتاح خاطرة
هل الرياح بمنجم الأرض عاصفة
إن طال في السجن ايداعي فلا عجب

الا ذكرتك ذكر العين بالأثر
إلا على ليلة سرت مع القصر
شوق إلى ما انقضى من ذلك السمر
لو استعار سواد القلب والبصر
كأنها والردى جاء على قدر
إن الحوار لمفهوم من الحور
توم القلائد لم تجنح إلى صدر
غاياته بأفانين من النظر
غيران تسري عواليه إلى الثغر
لرابط الجاش مقدم على الغرر
ولا نعيم لياليه بمنتظر
ولا الزيارة إمام على خطر
إن الغرام لمعتاد مع الذكر
محض العيان الذي يغني عن الخبر
برق المشيب اعلى في عارض الشعر
وللشبية غصن غير مهتصر (1)
نار الأسي ومشيتي طائر الشرر
أني معنى الأمانى ضائع الخطر
ام الكسوف لغير الشمس والقمر ؟
قد يودع الجفن حد الصارم الذكر

والقصيدة طويلة تربو عن الأربعين بيتاً فمن أين للشاعر الهناء وراحة البال لقد
اعتصر الألم قلبه وعاش حرقة الفرقة والجوى تبددت آماله هباءً وأصبحت في
مهيب الريح فلا حبيب تسر النفس رؤيته ولا اليف يأنس به في وحدته وسجنه لذلك
صاغ كلماته التي تعبر عن اعماق نفسه ودواخله وذاته فجاءت الكلمات معاشية
لإحساسه وشعوره وعشقه لمظاهر الحسن والجمال فانشد أروع فصول روايات
حياته بيان ساحر وتحركت المشاعر الجياشة موجاً عالياً فكان دافعاً باعثاً لابرار
تلك الموسيقى العالية الصاخبة أحدثت نفساً طويلاً عميقاً عبر عن مكنون تلك
النفس في وحدة أوزانها وقوافيها .

قد يتحدث الشاعر عما يحسه من خلال قصيدته من مشاعر ذاتية ومما لاقاه من
الفقر أو من الزمن فيكون حينئذ صادقاً مع نفسه ومع شعره .

ومن شعراء الأندلس عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي فقد مرت
به أحداثاً قاسية عانى منها معظم الأندلسيين في آخر التاريخ . وكانت ثقافته عربية
أدبية وكان إلى ذلك يدير حنوتاً يعتمد عليه في عيشته فقد أسر من قبل العدو
وغالوا في إهانته وإصابته حسرة بالغة على أحوال المسلمين في تلك الظروف
وسقوط قرناطة عام ١٨٩٧ هـ تلك البلدة التي هي عزيزة على نفسه فقد استغرق
الشاعر في تجربته لينقلها إلينا في أدق ما يحيط بها من أحداث العالم الخارجي
فعبر عما يجول في نفسه من صراع داخلي واختار لذلك ألف المد ذات النفس
الطويل الذي يحمل الأنات والزفرات حارت فعبر عم يكنه الشاعر في نفسه من
حسرة وألم عميق والقصيدة من بحر الكمال فقال القيسي في ذلك :

كم من أسير موثق بقيوده	امسى واصبح موثقا مغلولاً
احكام قاضي لا يرد قضاؤه	فيما قضاؤه ولا يرى مسؤولاً
فاشكر إلهك يا معافي دائماً	فالشكر اضحى بالمزيد كفيلاً
واصبر لما في حكمه يا مبتلى	فالصبر يبدي للخلاص سبيلاً
ودع الحنين إلى بسطة وربوعها	إن الحنين يهيج منك عليلاً

ومن أقوال ابن سهل لصديق بالجزيرة الخضراء يدعى ابن سعيد مظهراً له ان
البعث أقل صبره واحتماله .

إليكم يحن القلب في كل ساعة ونحو مغانيكم تلفت ناظري
وما عرضت لي خطرة مذ بعدتم فلم يك إلا نحوكم عند خاطري
ولله ما يبديه جد حديثكم بقلبي من سمو الهوى في محاجري

لقد فقد صديقه وبعده فقد بهجة الأنس وحالت الأيام دون لقائهما فهو يحن ويشتاق
إلى تلك المجالس المملوءة بالحسن والأمل والرجاء لقد أودع فيه معنى الإخلاص
في نقاء طبيعي وصدق فني وتلك المشاعر والأحاسيس والآمال الغامضة المتنوعة
التي يمكن التعبير عنها بالتحليل والشرح فيغوص الشاعر في خضم الوجود حتى
ينسى نفسه ويذهب إلى جوهر الأشياء إلى ما لا يستطيع شرحه من الحقائق التي
تعجز اللغة عن أدائها وهنا انتقل بعيداً من مشاغل الفكر إلى عالم النفس الغامض
من ذلك يسبح الشاعر في ذاك العالم السامي الذي لا سبيل إلى التعبير عنه إلا بما
يتوفر في الشعر من اللحن والإيقاع والوزن وجرس الكلمات وحسب وضعها في
موسيقاها النفسية العميقة وبما توقظ فينا تلك السعادة من مشاعر روحية ترتبط
بروح العالم وتجعلنا نكاد نحس الأصول والأسس السامية للإنسانية وذلك هو
الشعر الحق.

تلك عناصر الشعر الخالصة وبها يعتبر الشعر نوعان من التصرف اللغوي في
دلالاته الإيحائية التي لا تعتمد على المنطق وإن كانت لا ترفض العقل ولكنها
تتجاوزه (١)

والشاعرة الأندلسية في أوزانها نجدها قد سارت على منوال الشاعر
المشركي غير انها كانت تميل إلى الأوزان الخفيفة التي تتلاءم وحياتها الناعمة
المترفة بالغناء ، والأندلس بلاد الموسيقى والأريج العبق فوجد الشاعرات مناخاً
ناعماً خصباً وقرائح موهوبة معطاه فما الشعر وأينع ومد ظلالة الوارفة ومن
أبيات لمهجة بنت التياني القرطبية وهي اديبة رقيقة ولدت في بداية القرن الخامس
بمدينة قرطبة ابوها ابن سعيد بائع التين^(١) لذلك عرفت باسم مهجة التياني نسبة
إلى أبيها أعجبت بها ولادة وبظرفها وخفة روحها ورقة شعرها فعلقت بها
ولازمت تأديبها ولكن علاقة ولادة بمهجة لم تدم ومن شعرها واطيبه قولها :

لئن ملأت عن ثغرها كل قائم

فما زال يحمي عن مطالبه الثغر

فذلك تحميه القواضب والقنا

وهذا حماة من لواظها السحر^(٢)

وفي البيتين صنعة جميلة حين عمدت إلى الجناس الذي زاد من موسيقى الألفاظ
مما جعل بعض النقاد يقول أنها تقدمت بهذين البيتين فحول الشعراء .
و من قول مهجة ترد على واحد أهدى لها هدية من الخوخ فقالت مهجة معبرة عن
ذلك :

يا متحفاً بالخوخ أحبابه * اهلاً به من متلج للصدور

وفي أبيات تجانس فيها الوزن مع القافية وعزفت موسيقى الألفاظ لحناً شجياً فقالت
حمدونه بنت زياد المؤدب تصف واديبها الجميل أش :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم

حللنا دوحة فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم

وارشفنا على ظمأ زلالاً الذ من المدامة للنديم

(١) المغرب ج ١ ص ١٤٣

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٤٥

يصدُ الشمس انى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وهذه الأبيات النابضة الحية المعبرة عن روح شفاقة وإحساس مرهف
نسبها أهل المشرق للأديب أحمد بن يوسف المنازي ومنهم ابن خلكان في وفيات
الأعيان (١)

وأبو عبيد في (سمط اللآلي) (٢) ولكن أهل الأندلس اثبتوها لحمدمة. ويحدثنا صاحب
النفح "كانت الألباب وأهل الآداب حتى ان بعض المنتحلين ومنهم المنازي تعلق
بهذه الأهداب : وادعى نظم هذين البيتين ويقصد بذلك "ولما ابى الواشون إلى
آخره " وذلك لما فيها من المعاني والألفاظ العذبة ولكن أهل الأندلس اثبتوها لها
قبل ان يخرج المنازي إلى الوجود .

وقيل ان المنازي نظم هذه الأبيات ليعرضها على ابي العلاء المعري وعندما أخذ
يقرأها عليه وينهي قراءة المصراع الأول من كل بيت كان المعري يسبقه إلى
المصراع الثاني (٣) وذلك مما يبرهن ان الأبيات قبلت قبل المغازي وان شهرة
الأبيات ذاعت حتى حفظها عن ظهر قلب الأديباء وعلى رأسهم ابو العلاء
المعري.

وأود ان اوضح رأياً اراه قد يكون صائباً وهو ان حمدمة قد عاشت في ذلك
الوادي والذي يبدو من وصفها ان مياهه عذبة وعيونه جارية ففاضت قريحتها
بايقاع موسيقى واداء فني وصورة شعرية متقنة واستطاعت ان تجعل القريض تبعاً
لاهوائها وتوجهه إلى غرضها. ولا شك فقد كان الجو مهيباً لذلك حيث العيش
الناعم الزقد وورد الربيع ورجاء المستقبل الزاهر ومواطن السحر والمرح واماني
اللقاء كل ذلك كان عاملاً من عوامل يقظة الروح وانتعاش الأدب وفنونه وإذا
كانت المنافسة في كل زمان و مكان عاملاً من عوامل السبق والتقدم والانتقان
والجودة والإهتمام وبذل الجهد وكد النفس واتعاب خاطر للوصول إلى أحسن

(١) المغرب ج ١ ص ١٤٥

(٢) سمط اللآلي لابي عبيدة الأندلسي ص ٢٢٧

(٣) النفح ج ٤ ص ٢٨٧

الغايات وأروع النتائج وأجمل الثمرات فانها حين تكون بين الرجل والمرأة تصل إلى الشأو البعيد وتنتهي بالمتنافسين إلى الغاية التي عندها يحقق كل منهما طموحه وآماله . ونظرته الأدبية الفاحصة والإتجاه إلى ارقى المعاني والتراكيب الجميلة والفصاحة الغالية التي جعلت النصف الآخر يشاركها الإحساس ويقاسمها الشعور ويملاً وعاء النغم الحبيب . واللفظ العذب والجرس الموسيقي والبيان الساحر الخلاب فجاء الوزن طوع خاطر وحملت الكلمات من اصداء هي في الواقع استجابة للإيقاع الذي صدرت عنه القصيدة فالمرأة هي صاحبة قدرة على الإبداع وما قدمته من الصور والإبداع يدل على إحساسها المرهف وذوقها الفني والاستعداد والقدرة والطموح الذي لا يجعلها متخلفة عن الرجل في ميدان من ميادين الأدب والعلم والثقافة والإبداع .

المبحث الخامس

الموشحات

ظهور الموشحات

الموشحات فن أنيق من فنون الشعر العربي أتخذ قوالب بعينها في نطاق تعدد الأوزان الشعرية وكان ظهوره بأرض الأندلس . وقد اتسعت الموشحات لاحتضان كل الموضوعات والنقاد القدامى حددوا فنون الشعر بسبعة حدود جعلوا الموشح واحداً من هذه الفنون التي حصروها في الشعر .

الموشح فن أندلسي خالص النشأة والموشحات منسوبة إلى شعرائها الكثيرين العديدين أمثال الأعمى وابن زهر وابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب و الموشحة صالحة لان تعني وذلك لتنوع الحانها وذلك لسهولة كلمات الأغنية وكلماتها الموسيقية ذات الجرس الرخيم ومعانيها التي لا يحتاج معها إلى كبير جهد لكي تفهم ومقطوعاتها من أسماط وأغصان تتكرر في رتابة مع تنوع القوافي بين المطلع والأقفال والخرجة وبين الدور والسمط من ناحية اخرى .

كل ذلك يشكل بناءً منسجماً لأغنية حسنة يملح ترنيمها ويجاد تدقيقها ويجمل ترديدها . فإذا أضفنا كلمة عامية فإن ذلك كله يسهم في إكمال الصورة الغنائية الموسيقية . "والموشحة نشأت أصلاً لكي تكون في خدمة الغناء في الأندلس أما في المشرق فلم يكن المستمع في حاجة إلى الشعر السهل والقافية المنوعة لأنه يستمع إلى الشعر النابع من البيئة ." (١)

ومما لا يدعوا مجالاً للشك في ان فن التوشيح قد نشأ في الأندلسي ابتداءً بابن بسام في الذخيرة . وانتهاءً بالمقرئ نفح الطيب (٢)

وأول من ابتدع الموشحة فيما يذكر المؤرخ الأدبي الأندلسي ويحيى اسم احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد في مقدمة مبتدعي هذا الفن ولكن لم تحدد المصادر تأكيداً لموشحات أحمد بن عبد ربه .

ونجد ان كبار الشعراء ترفعوا من الخوض في مجال الموشحات بالتأليف على اوزانه وقوافيه كابن دراج القسطلي وابن زيدون وابن خفاجة الأندلسي

(١) الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها لسليم الحصر منشورات الحياة بيروت ص ١٥٦

الموشحات المرابية لرضا محسن - القرشي رسالة ماجستير جامعة عين شمس ص ٤٧

(٢) الذخيرة ص ١٢١

وغيرهم لانهم وجدوا في التأليف على طريقته نزولاً بمستواهم الفني إلى المستوى الشعبي لأن الموشحات فن دون مستوى الشعر و فوق مستوى الزجل. (١)

كما أعرض عن ذكرها الفتح بن خاقان في قلائد العقيان ومطمع الانفس وعبد الواحد المراكشي في المعجب لم يذكر فيه موشحه واحدة وهذا مبعثه الإحساس بان الموشح خارج في شكله عن تقاليد الشعر العربي المحددة بعروض الخليل كم انه دون مستوى الشعر لاستعماله اللغة العربية بل اللاتينية في بعض خرجاته. (٢)

ثم تطور الزمن وتغيرت نظرة المؤرخين والنقد لفن التوشيح فبدأوا في التاريخ له وذكروه ضمن كتبهم كالحجاري وابن الخطيب الذي ألف كتاباً في التوشيح سماه جيش التوشيح وابن خلدون في مقدمته (٣) وغيره كثيرون مما اولوا اهتماماً خاصاً بفن التوشيح.

وذهب بعض الباحثين إلى أن لفن التوشح علاقة بالشعر الأسباني القديم الذي كان ينشده شعراء جنوبي فرنسا المعروفون بشعراء التروبادور غير ان هذا الرأي تنقصه الحجة المقنعة . والمؤرخون في الأدب العربي يرجعون الفضل في نشأة الموشحات إلى الأندلسيين انفسهم دون غيرهم ومنهم ابن بسام في الذخيرة وصلاح الدين الصفدي في توشيح التوشيح

أسباب تسمية الموشحة :

أصل الكلمة اللغوي الوشاح: من حلي النساء والوشاح مرصع باللؤلؤ والجواهر منظومان بطريقة جميلة مخالف بينهما معطوف احدهما على الآخر تتوشح به المرأة .

ويقول الجوهري في الصحاح انه شيء ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها .

ومعظم الآراء في سبب التسمية تدور حول هذا المعنى اللغوي للكلمة .

(١) توشيح التوشيح صلاح الدين الصفدي تحقيق البيير مطلق ط بيروت ١٩٦٦م ص ٢٠

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣

(٣) مقمة ابن خلدون ص ١٢٧

ويرى الرافعي ان هذه اللفظة منقولة من قولهم ثوب موشح وذلك لوشي
يكون فيه فكأن هذه الأسباط والأغصان التي يزينونه بها هي من الكلام في سبيل
الوشي من الثوب صارت اللفظة بعد ذلك علماً .
من كل ذلك يتضح لنا ان الموشحة مأخوذة من الوشاح الذي ترتديه المرأة
وهو مزركش ومنمق بالوانه المختلفة لذلك تعددت أوزانه وقوافيه وتتنوع لتتنوع
أنواع الوشاح .

مخترع الموشح :

ذكر الأستاذ ريبيرا Ribera يقول ان أكثر البيوت الأندلسية كانت تضم
نساء من جليقية لانهن عرفن اكثر من غيرهن بالجمال وكثير من المزايا الأخرى
وان هؤلاء الجليقيات كن يغنين بلغتهن في الحفلات ويهددن أطفالهن في المنازل
فمن الممكن ان تكون الموشحات الأولى قد تأثرت ببعض الأغنيات الخفيفة
القديمة (١)

لذلك ثبت انه كان لليهود المعاشين للمسلمين في الأندلس بعض الأناشيد
الدينية مثل اليزمون pizmon وهذه الأناشيد الدينية تشبه بعض الموشحات وقد
نفى الاستاذ مليايس (٢) المستشرق الأسباني المتخصص في الدراسات العبرية فهو
يستبعد ذلك ان يتأثر المسلمون بشيء يهودي فهم قد عرف عنهم التعصب الشديد
والنفرة الواضحة مما يشوب العقيدة بل من المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبهم مما
لا يدعو شكاً انهم لم يتأثروا بما في أيدي اليهود .

والذي يمكن الاطمئنان اليه ان هذه الموشحات بنيت على اغنيات اندلسية محلية
واستوحت بعض الأغاني الأندلسية الشعبية التي لم يسجلها المؤرخون فمن
المعقول ان للأندلسيين أغاني شعبية كأي شعب له أغانيه .

والمعقول ان تكون هذه الأغاني متنوعة القافية وكذا فنظمت باللغة العامية
الأندلسية وان مخترع الموشحات قد أفاد من هذه الأغنيات الشعبية (٢)

(١) - Disrtacion .Y. opuselos . Vol . Ipy Julian Ribera page ٥ .

بحث مقدم من الاستاذ جوليان ريبيرا كتبه عن ابن قزمان

واختلف المؤرخون حول مخترع الموشح فمنهم رأي أن أول من اخترع الموشح هو محمد بن حمود الغبري الضريير . ومنهم من رأى أن ابن بسام في الذخيرة . ومنهم من ذهب إلى أن مخترع الموشح هو مقدم ابن معافى الغبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ثم أول من برع فيه (عباده القزاز) شاعر المعتصم ابن صمادح وذلك ما ذكره ابن خلدون في مقدمته .

ومنهم ما ذهب إلى مخترع الموشح هو الشاعر عبد الله المعتز العباسي لعثورهم على موشحه في ديوانه مما دفعهم إلى القول بهذا الرأي (1)

وما يهمنا هنا انه جرت محاولات في فن التوشيح قبل القرن الرابع الهجري ثم ازدهر هذا الفن في القرن الرابع وتتابع الوشاحون بعد ذلك ومن اشهرهم لسان الدين الخطيب الذي شاعت الموشحات باسمه

أجزاء الموشح :

اتخذ الموشح من حيث بناؤه شكلاً مقنعاً بحيث أصبح كل موشح يشتمل على أجزاء بعينها في نطاق مسميات اصطلاح المشتغلون بفن التوشيح عليها وهي :-

١- المطع او المذهب ٢- الدور

٣- السمط ٤- القفل

٥- البيت ٦- الغصن

٧- الخرجة

وحتى تستطيع توضيح هذه الأجزاء من الموشحة فانه قد يحسن بنا ان نقدم موشحة ثم نشير إلى كل جزء من أجزائها في نطاق المصطلحات التي مر ذكرها وقد اخترنا موشحة قصيرة لابن مهلهل التي يصف فيها الطبيعة وصفاً رقيقاً .

النهرُ سلَّ حُساماً على قُدود الغُصون

وللنسيم مجالُ

الروضُ فيه اختيالُ

مُدَّت عليه ظلالُ

(1) انظر توشيح التوشيح لصلاح الدين الصفدي تحقيق البير مطلق ط بيروت ١٩٦٦م ص ٩٦

والزهرُ سقُ كماماً
وجداً بتلك اللحونِ (الدور + القفل = البيت)
أما ترى الطيرُ صناحا
والصبح في الأفقِ لاحا
والزهر في الروضِ فاحا
والبرق ساق الغماما
بيكي بدمع هُتون

١/المطلع:

أو المذهب كلاهما يطلق على الموشحة الذي يتكون من شطرين أو أربعة اشطر
وهو هنا يتكون من قسمين أو شطرين أو غصنين وهما
النهرُ سل حساماً على قدود الغصون
وقد تختلف قافية الغصن كما هو الحال في المثال السابق وقد تتفق - والمطلع أو
المذهب ليس ضرورياً في الموشحة فقد تبدأ في بعض الموشحات بدور مباشرة في
هذه الحال وهذا يطلق عليه صفة الموشح الأفرع .

٢- الدور :

مجموع الأبيات التي تلي المطلع وان كان الموشح أفرع فإن الدور يقع في مستهل
الموشح ويتكون الدور من مجموعة من الأقسام لا تقل عن ثلاثة بشرط ان تتكرر
بنفس العدد في بقية الموشح وان تكون من وزن المطلع ولكن بقافية مختلفة من
قافيته وتلتزم في اشطر الدور الواحد . والدور في الموشح موضع التمثيل هو :

وللنسيم مجال
والروض فيه اختيال
مدت عليه ظلال

٣-السمط :

هو كل شطر من اشطر الدور وقد يكون السمط مكوناً من فقرة واحدة كما
هو الحال في هذا الموشح وربما تألف من فقرتين .

٤- القفل :

هو ما يلي الدور مباشرة وهو شبيه بالمطلع في الموشح التام من جميع النواحي أي انه شبيه في القوافي وعدد الأغصان وليست الموشحة مشروطة بعدد ثابت من الأفعال وقد جرت على أن يكون للموشحة خمسة أفعال والقفل هنا هو :

والزهرُ شقّ كما ما وجداً بتلك اللحن

٥- والبيت

هو غيره في القصيدة فالبيت في القصيدة معروف واما في الموشحة فيتكون البيت من الدور مضافاً إليه القفل الذي يليه لذلك فالبيت في هذا الموشح هو :

وللنسيم مجالُ

والروضُ فيه اختيالُ

مدت عليه ظلالُ

٦- الغصن :

هو كل شطر من أشطر المطلع او لقفل او الخرجة تساوي الأغصان عدداً وترتيباً وقافية في كل موشحة وقلما يشذ الوشاح عن هذه القاعدة وأقل عدد الأغصان في اية موشحة وبالتالي في الأفعال والخرجة اثنان وكما سبق القول يجوز ان تتفق قافية الغصن ويجوز ان يختلف على أنه من المؤلف ان تتكون أفعال الموشح من أربعة أغصان .

٧- الخرجة :

وهي آخر قفل في الموشحة غير انها تقع في آخر الموشحة وهي وما سبقها من أفعال تشكل أجزاء أساسية في بناء الموشحة وبدون الأفعال والخرجة لا يمكن تسمية المنظومة موشحاً .

والخرجة نوعان خرجة معربة وهي التي تكون فصيحة اللفظ بعيدة عن العامية وخرجة عامية او اعجمية الألفاظ وهي المفضلة المستحسنة وقد كان الأندلسيون والمشارفة يستحسنونها

ولكي نزيد أجزاء الموشحة ايضاحاً فإننا نقدمها على هذا النمط من الخطوط التي
تحل محل اجزائها باستثناء الخرجة (١) لأن موضعها معلوم .

الغصنان يشكلان المطلع او المذهب	غصن	غصن	
	<u>سمط</u>		
	<u>سمط</u>	دور	بيت
	<u>سمط</u>		
الغصنان يشكلان القفل	غصن	غصن	

من المواضيع التي طرقتها الشاعرة الاندلسية في التوشيح من الهجاء
وهجاءهن اتسم بخفة الروح والتكلفة البارعة مع السخرية اللاذعة حيناً والفكاهة
الخفيفة حيناً آخر والهجاء المفزع الفاحش الذي لا يليق بالأدب والذوق الفني
الرفيع ومن ذلك قول نزهون القرناطية وكان ان خطبها رجل ذميم الصورة بشعاً
فقالت تعدد معانيه

عزيرى من عاشق ... سفيه الاشـارة
يروم الوصال ولواتي ... والصفح لم يصفح
برأس فقير إلي كية ووجه فقير إلى مرتع (٢)

احس المنصور أن حواراً بين عاشقين يجري امامه وفي حضرته بين
وزيره ابو المغيرة ابن حزم وقينته أنس القلوب وكان يؤثرها وتتولد غيرة في كبده
ويمسك مقبض سيفه بيده ويسألها في غلظة عن قصدته بأبياتها وغزلها فتبكي
أنس القلوب امام اميرها وتقول في فصاحة وتأدب "إن كان الكذب انجي فالصدق
اخرى وأولى والله ما كانت إلا نظرة ولدت في القلب فكرة فتكلم الحب على
لساني وبرح الشوق بكتماني والغفو مضمون لديك عند المقدرة والصفح معلوم
منك عند المعذرة .

(١) الموشحات الاندلسية نشأتها وتطورها ص ١٦

(٢) نفع الطيب ١ ص ٢٦٥ .

ثم تردف منشدة في جنبات السرور
أذنبت ذنباً عظيماً فكيف منك اعتذاري
والله قدر هذا ولم يكن باختيار
والعفو احسن شيء يكون عند اقتدار

وان لم يكن في موشحة نزهون من جودة الصوغ بقدر ما فيه من رقة
المعنى وسهولته فقد كان ايقاعه لحناً وغناء ، وهو مطلب حفلت به مدن الأندلس
وصورة مضيئه لابداع المرأة الأندلسية في فن التوشيح .

الغزل :

الغزل أول من نظم الأندلسيون فيه موشحاتهم وهو الميدان الذي بدأ فن
التوشيح ينمو في رحابه وذلك لأن قيود القوافي في الموشحة وفي معظم البيت
الواحد أكثر من قيودها في القصيدة العادية .

على ان ابن سهل الإسرائيلي الذي سحر الناس بشعره في الغزل او الطبيعة
وصاغ من رقيق المعاني ورسم من بديع الصور وجعل الناس يقولون عنه عندما
مات غرقاً لقد عاد الدر إلى أصله (1)

وهذا الشاعر عندما طرق موضوعات الموشحات على تأخير زمانه
استطاع ان يشد انتباه النقاد والمتذوقين إلى آفاق موشحاته بما صاغ فيها من رقيق
المعاني وخصب الخيال بل أن كثيراً من الوشاحين الكبار اتخذوا من موشحاته
مثلاً اعلى فقالوا ونظموا على مثالها فالشاعر الكاتب الوزير لسان الدين ابن
الخطيب كان واحداً من هؤلاء الذين فتنوا بموشحات ابن سهل فانشأ موشحته
المشهورة في مدح الغني بالله على نسق هذه الموشحة العذبة الرقيقة البارعة التي
جمع فيها ابن سهل بين اللعب بالالفاظ والاحاظ وبين الغوص في أعماق المعاني
واعذبها وفيها يقول :

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى قلب صب حله عن مكنس

توشيح الوصف :

قام الغزال بسفارة قرطبة لدى امبراطور البيزنطيين خير قيام وكان يصحبه في تلك المهمة السياسية اندلسي عالم يسمى يحي بن حبيب ولكن شخصية الغزال القوية جعلت كل شيء في تلك السفارة التي خلفت شعراء من خير ما جادت به قريحة الشاعر . فقد هاج البحر والغزال وصاحبه يركبان السفينة في اتجاه القسطنطينية . واحدق به الخطر . فاشتدت العاصفة وعلا الموج فقال الغزال واصفاً ذلك :

قال لي يحي وصرنا بن موج كالجبال

وتوالت لنا رياح من دبور وشمال

شقت القلعتين وانبتت عرا تلك الحبال (١)

ثم نجا الغزال وصاحبه ووصلا إلى حيث أرسلوا وتهياً للإمبراطور البيزنطي لاستقبال سفير عبد الرحمن الأوسط واخبر الغزال بتقاليد بلاط بيزنطة التي تقضي بان يدخل الزائر على الإمبراطور ساجداً فرفض الغزال ذلك واشترط الا يخرج هو وصاحبه عن شيء عن سنتها فوافق صاحبه على ذلك لكن المسؤولين في بلاط القسطنطينية تحايلوا فجعلوا المدخل المؤدي إلى الإمبراطورية منخفضاً حتى لا يدخله داخل إلا راکعاً فلما جاء الغزال إلى الدخول ورأى الباب كذلك جلس ومد قدميه وزحف حتى دخل من الباب ثم استوى قائماً ثم حيا الإمبراطور بكلمة ترجمت له فاعجب بها وقال هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاهم أردنا ان نزله فقابل وجوهنا بنعليه .

(١) الإسلام في المغرب والاندلس ليفن برو فنسال ترجمة عن الفرنسية الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاساذ محمد صلاح الدين

توشيح الهجاء :

انتهت حياة سعيد بن الجودي السعدي نهاية محزنة وقد كان فارساً قوياً شجاعاً حيث قتله بعض حاسديه غداً سنة ٢٨٤هـ ولكيلا يؤاخذوا بجريمة قتله ادعوا انه تحدى إمبراطور وأمير قرطبة عبد الله بن محمد وادعوا انه قال فيه هذه الأبيات ولعلها قد نسبت إليه :

قل لعبد الله يجدد في الهرب نجم الثائر من وادي القصب
يا بني مروان خلوا ملكنا إنما الملك لابناء العرب
قربوا الورد المحلى بالذهب واسرجوه ان نجمي قد غلب^(١)

وابن الجودي في موشحته يميل إلى الغنائية المرهفة فيختار الألفاظ ويصقل التراكيب ويملاً حنايا شعره بالعاطفة حتى ان جميع أشعاره تصلح للغناء والتلحين.

توشيح الرثاء

وضعت الموشحة أصلاً للتغني بها وهي تدل على ما يبعث في النفس من نشوة وفي الروح بهجة وفي مجالس الغناء طرباً . وفي مواطن الخمر والمجون لذا كان من الطبيعي والمعقول ان تكون الموشحة للتعبير عن الآلام والأحزان والأسى واللوعة وفراق حبيب او موت عزيز إذا حاولوا الوشاحون ذلك فانهم يركبون مركباً صعباً ويرتادون طريقاً وعراً حتى ولو استطاعوا التعبير عن ذلك فانهم لا يكونوا صادقي الإحساس والمشاعر نحو من فقدهم بل تجد رثاء فاتراً وتأبيناً خفيفاً لا يهتم إلا بالصفات الجليلة التي تخلع على الميت حتى اننا لو حزننا بعض ما في الموشحة لصارت موشحة للمدح لا الرثاء .

وموشحة ابي الحسن علي بن حزمون خير دليل على صحة ما ذهبنا إليه .

يا عين بكى السراج الأزهرا النيزا اللامع
وكان نعم الرثاج مكسرا كما تنترا مدامع
من آل سعيد اغر مثل الشهاب المتقذ

بكى جميع البشر عليه لما ان فقد
والمشرفي الذكر والسهمري المطرد (١)
شق الصفوف وكر على العدو متيند

أدرك ابن حزمون دقة موقفه وخطوره ما هو مقدم عليه ومن ثم فقد اعتمد على براعة الصوغ ومحاولة شد انظار القارئ إلى صنعته الباهرة وصياغته الجذابة فعمد إلى التشطير والتلوين اللفظي والوزني داخل البيت الواحد وصوغها بقوالب أنشئت اصلاً للبهجة والفرح وليس للوشاح من بأس إذا فشل ان يحزن .

توشيح الخمر :-

والوشاحون هم الذين اجادوا في معاني الخمر هم انفسهم الشعراء الذين رويت مقطوعات في ذلك الميدان من القول فاعجب بها النقاد والمتأدبون ولا تكاد تخرج معاني الخمر في التوشيح عن معانيها في القصائد والمقطوعات الشعرية وفي مقدمة الشعراء الوشاحين الذين احسنوا القول في هذا السبيل يحي القرطبي المتوفي عام ٥٤٠هـ والذي مضى حياته بن الكأس والوتر وله شعر رفيق وموشحات عذبة ومن ارق موشحته في الخمر .

ادر لنا أكواب ينسى بها الوجد
واستصحب الجلاس كما اقتض العهد

دن بالهوى شرعاً ما عشت يا صاحي
ونزه السمعا عن منطق اللاحي
والحكم ان يدعى اليك بالـجراح
انامل العناب ونقلك الـبورد
حفا بصدغي آس يلويهما الخـد

لله أيام دارت بها الخمر (٢)

(١) السهمري : الرمح الصليب العود

(٢) المغرب ج ١ ص ٢٦٦

من كل ما سبق نستدل على ان الموشحة نشأة وظهوراً وفناً موضوعاً فهي ظاهرة
نشأت لارتقاء وملاءمة حاجة الشعب ورغم كثرة الأوزان والقوافي فهي فن جميل
وبديع أضاف إلى التراث الفني نوعاً آخر من الفنون الشعرية الإنسانية . ولا
يفوتنا دور المرأة الأندلسية في ذلك فقد اشتهرت المرأة الأندلسية بفن الغناء وهو
الميدان الذي بدأ من الموشحات ينمو في رحابة ويزدهر ولكن ما دام التوشيح
يقفني آثار القصيدة فإن الموشحة لا بد ان تفتح هذا الميدان .

الخاتمة والنتائج والتوصيات :-

وأخيرا ختمت البحث بأهم النتائج والمقترحات التي تراءت لي . وتحدثت البحث عن الفصل الأول وعنوانه الأندلس زمانا ومكانا وأحوالا ، وأشار المبحث الأول إلي اسم الأندلس وما عرفت به شبه الجزيرة التي تشمل حاليا دولتي أسبانيا والبرتغال بأسم الأندلس ثم عرفت بعد ذلك باسم أسبانيا . وتناول هذا المبحث السكان الأصليين حيث اختلف الباحثون في أصل الأندلس وتعارضوا أشد التعارض في إختيار الجنس البشري وضمت الأندلس أجناسا مختلفة حتى سميت بالأندلسيات ومن تلك الأجناس العدنانيون والمخزوميون والقحطانيون وغيرهم وتحدثت البحث عن الموقع والبيئة الجغرافية وشمل خارطة توضح الأندلس وبلدانها وهضابها وبحارها وتعرض للطبيعة والمناخ ثم الفتح العربي الإسلامي من عرب وبربر وصقالبة ويهود واسبان ودوافع هذا الفتح وعوامل نجاحه ثم تحدثت في المبحث الثاني عن الحياة السياسية والأطوار التي مرت بها الأندلس ونظام الحكم فيها إذ كانت اسبانيا قبل الفتح الإسلامي في حالة سئية وذلك لضعفها السياسي واستنزاف ثروات البلاد وخيراتها وتم الفتح بعد حروب طاحنة أبلى فيها المسلمون بقيادة طارق بن زياد بلاء منقطع النظير وعاشت المدينة في ظل الحكم الإسلامي تنعم بكثير من الأمن والإستقرار إلي أن كانت نهاية الكارثة المروعة والتي بها أسدل الستار على المسرحية المأسوية وقد رأى البحث في دراسته للمبحث الثالث أن يدرس الحياة الإجتماعية وما لقيته الأندلس من حضارة ورقية وصلاح وطلاخ وهدى وإستقامة وعزم وإنضباط وترف ولهو عاش الأندلسيون غماره وذلك مما دفع بالكثير منهم إلي الغلو في بعض مناهج سلوكهم الأمر الذي إنعكس أثره على الشعر .

وشمل هذا المبحث كذلك وضع المرأة الأندلسية ومكانتها في المجتمع إغزازا وتكريما أو إبتزالا ومهانة وما حظيت به من حرية نتيجة للإمتزاج الذي تم بين عناصر تكوين المجتمع واستجلى المبحث الرابع الحضارة الراقية التي أنشئت في مدنه وربوعه حيث إمتزجت الثقافات المختلفة وظهر الفلاسفة والأطباء والفلكيون وغيرهم الذين خلقوا من الأندلس جنة للفكر وواحة للعقل زيادة على الأدباء والشعراء الذين ملأوا رحابها سحرا وسكبوا على مسامع الزمن أغاريد الحب وأناشيد الحياة واستخلص البحث من

نتائج أن كل الحضارة الأوربية الحديثة بكل أسبابها وتقدمها وعوامل إزدهارها هي حضارة عربية إسلامية مستمدة من فكرنا الإسلامي المجيد ، وكانت لطبيعة الأندلس الجميلة الأثر الملموس في صفاء نفوسهم وتوقد قريحتهم وخصوبة ذهنهم فبرعوا في علوم اللغة والدين الأدب .

وفي الفصل الثاني حاول البحث أن يتناول حياة اللغة العربية وأدبها واتبع ذلك بدراسة للغة العربية منذ الفتح الإسلامي وما حظيت به من مكانة مرموقة إذ كانت اللغة والألفاظ والأفكار هي لغة الدعاة الفاتحين . فازدهرت وتطورت والدليل على ذلك قيام المذهب الأندلسي في النحو وإقتداء الأديباء والشعراء في المغرب وتوجيههم الدائم نحو المشرق إعجاباً ومنافسة وتأثراً بالمشاركة أديباء وشعراء في بغداد والشام . وفي النثر والشعر معا شكلا وموضوعاً ورأى المبحث الثاني من هذا الفصل استكمال الجوانب الفنية الأساسية للأدب حيث تعرض للنثر وفنونه وأشكاله من القصة والرسالة وإن كانت تحمل في مضمونها شعرا . وفي الفصل الثالث حاول البحث أن يتناول بالدراسة والتحليل الشعر في الأندلس وأبرز موضوعاته وأغراضه ومنها شعر الطبيعة في الأندلس ومزجها بأغراض الشعر المختلفة وكانت هذه المرحلة هي أخصب مراحل الشعر .

فالتبيعة في الأندلس ساحرة وهي من أغنى بقاع العالم منظرا وأوفرها جمالا حيث يعطر جوها النسيم المعتدل وبساتينها الناضرة وقد تحدث عن جمالها كل من حل بها فكانت مصدر الوحي والإلهام الذي جادت به قريحة الشعراء والشاعرات واستهوت أفئدتهم وحركت العواطف الكامنة ومزجوها بالطبيعة من حنين وأنين وبكاء وضحك وشي الشاعر أوصافه بضروب من البيان والبديع فأدهشنا وأمتعنا

ورأى البحث دراسة فن الرثاء بلونه الخاص وتحدثت عن رثاء الملك الزائل والمدن نتيجة للتفكك والإنقسام والصراعات الشخصية وصور الشعراء الساعات الأخيرة من سقوط هذه الدول ونهاية ملوكها وإرتحالهم وهنا تحول الشعر إلي غناء حزين متوتر ملي بالصراع النفسي ولاحظ البحث في هذا المجال أنه لا بد أن يتعرض لخصائص الشعر الأندلسي ومميزاته حيث الصدق الفني والعاطفة الفنية والعاطفة الدينية ورسم الصور الحية لكل ما وقعت عليه عين

وفي المبحث الثالث تناول البحث خمسة من مشاهير شعراء الأندلس . حيث ألقى الضوء على حياتهم وخصائص شعرهم . تلك الخصائص التي انفردوا بها والتي كانت من ناحية أخرى تطورا لهذا الفن وإبداعه .

ثم كان الفصل الرابع وفيه شمل البحث دور المرأة في الشعر الأندلسي عمدت فيه إلي تقسيم معين كي يكون معيارا دقيقا لمعرفة ما يدور حول الظاهرة الأدبية النسوية من تطورات وذلك لأن الأدب يمثل عصارة نبوغ وزبدة فكر إنساني يحدده دور المرأة الأندلسية الشاعرة لذلك وددت أن أقدمها من خلال بيئتها ومجتمعها وهل هي حرة أم قينة أم وافدة أم مملوكة وذلك لما له من أثر فعال في إثراء الحصيلة اللغوية وبدأ الفصل بالمبحث الأول للشاعرات الحرائر اللاتي عشن في قصور الترف والنعيم وسعى الشعر إليهن نشطا صادق الحس في غير جفاء .

وكان المبحث الثاني خاص بالقيان الوافدات فقد وفدن من بلدان مختلفة وليسن صورة البيئة الأندلسية وأكثرهن من القيان اللاتي تلقين أصول العزف والغناء في المدينة وشمل المبحث الثالث شعر الإماء وكيف أنهن نشأن في عزلة ونتاجهن من الفنون الأخرى كان أكثر جرأة فكانت الشاعرة الأمة تتحدث من غير تحرج ومع ذلك نحس في شعرها سحر النغم وطرب الأسماع .

وحاول السبحث أن يدرس في مبحثه الرابع أدبيات الأندلس عالمة وكاتبة ومؤدبة واستخلص البحث من ذلك أن شعرهن عبارة عن مقطعات وليس قصائد طويلة كما حمل البحث بين ثوبيه مقبرة الشاعرة الأندلسية فقد عزفت على أوتار القيثارة العربية في شدو ونغمات متجددة مبتكرة زيادة على ما ضاع من شعرها وذلك بعد إحتلال الأندلس وضياع ملكها واتجة البحث في فصله الخامس إلي الدراسة الفنية للشعر بعامة والنسوي خاصة وشمل البناء الفني للقصيدة العربية من حيث الإستهلال والتخلص والخاتمة ونجح البحث في إبراز حقيقة أن معظم الشعراء والشاعرات أحسنوا التخلص كما يبدو لنا واضحا في قصائد ابن زيدون ولولادة وابن عباد والذي يؤكد البحث ان بعض الشعراء تخلصوا من هذا التقليد فبدأوها بالدخول مباشرة في الموضوع وسار المبحث الثاني إلي اللغة والألفاظ والأساليب والمعاني والأفكار مع تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول واستخلص البحث دور المرأة الفعال وتمكنها من اللغة وسلاسة الألفاظ وعذوبة المعاني ورقتها وقد

لاحظ البحث في دراسته للصور والأخيلة أن الشعر الأندلسي يسعى إلى التجسيد والتشخيص في إبراز صورته وتكوينها الجزئي وإعادة صياغة معطيات الحواس صياغة جديدة فالخيال كان المصدر الموحى للشاعر الأندلسي والشاعرة وساعد على ذلك مهارة خاصة في إستعمال اللغة وخصائصها الصوتية والشعرية وأوزانها وقوافيها وهذا ما درسه البحث في المبحث الرابع مع توافق وتآلف في الأنغام التي تموج بالإنفعال الفريد الذي يسيطر على الشاعر .

أما المبحث الخامس :-

فقد اختص بالموشحات وشمل ظهور الموشحة نشأتها وأسباب تسميتها بالموشحة ومخترع الموشح وأجزاء الموشح وشمل المبحث مساهمة المرأة ودورها في هذا اللون من الفن واتفقت نتائج الشعر البحث جميعا على أن الأندلس والشعر صنوان .

ومن التوصيات والمقترحات التي توصلت إليها إن هذا البحث قد فتح نافذة على الرقي الأدبي والحضاري الذي إتصفت به الحياة الأدبية في الأندلس وتلك النهضة الشعرية النسوية التي تستحق الدراسة والبحث ويجدر بي أن أشير إلي بعض المقترحات والتوصيات التي إستشفيتها من خلال بحثي هذا :-

أولاً:-

مواصلة البحث حول دور المرأة الأندلسية الشاعرة وتاريخ الشاعرات المغمورات وما نضاع من شعرهن وذلك عندما طمست المعالم والحضارة الإسلامية .

ثانياً:-

أحياء التراث الأدبي الأندلسي الوفير ومقارنته بين الماضي والحاضر والفضل العظيم الذي تركه رواد التأليف في وجوه المعرفة المختلفة .

ثالثاً :-

تحليل النصوص الشعرية والنثرية وفهمها وتدوقها والوقوف على مظاهر الإبداع فيها أو التقليد وخاصة تلك التي فاضت بها خواطر نسوية مبدعة .

وأخيرا أرجوا أن أكون قد اجتهدت فيه ذهبت إليه

المصادر والمراجع

١. الإحاطة في تاريخ غرناطة
للسان الدين بن الخطيب ط القاهرة ١٣١٩ هـ
٢. آداب الأندلس وتاريخها :-
ليفى بروفنسال نقلها إلي العربية محمد عبد الهادي شعيرة- المطبعة
الأميرية القاهرة.
٣. الأدب الأندلسي من الفتح إلي سقوط الخلافة
للدكتور أحمد هيكل ط دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ م .
٤. الأديب الأندلسي موضوعاته ومقاصده
للدكتور مصطفى الشكعة ط الخامسة ، العلم دار للملايين ١٩٨٣ م .
٥. الأدب العربي في الأندلس
للدكتور عبد العزيز عتيق ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠ م .
٦. الأدب العربي وتاريخه
لمحمود مصطفى طبعة بيروت ١٩٥٦ م .
٧. الأسس الجمالية في النثر العربي
د . عز الدين إسماعيل ، مصر ١٩٦٨ م .
٨. الأسس الفنية للإبداع الفني في الشعر خاصة
للدكتور مصطفى سويف ط المعارف مصر ١٩٥٩ م .
٩. الإسلام في المغرب والأندلس :
لليفى بروفنسال ترجمة محمد بن عبد العزيز سالم وآخر ، ط نهضة مصر ١٩٥٧ م
١٠. أصول النقد الأدبي
أحمد الشايب / مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط السابعة ١٩٦٤ م .
١١. أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن
للأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر تحقيق محمد رضوان الداية ط بيروت ١٩٧٦ م

١٢. الأغاني :-

لأبي الفرج الأصفهاني (١ - ٢٥) ط دار الثقافة ، بيروت .

١٣. الأندلس تاريخها وحضارتها :-

للدكتور السيد عبد العزيز سالم ط الشعب القاهرة .

١٤. البديع :-

عبد الله بن المعتز ، نشر أغناطيوس كراتشكو فسكي . دمشق (بدون تاخير) .

١٥. بغية الملتمس :-

لأحمد بن يحيى الضبي / نشر كوديرا - ط مدريد ١٨٨٤ م .

١٦. بلاغة العرب في الأندلس :-

د . أحمد ضيف ط القاهرة ١٩٢٤ م .

١٧. البيان والتبيين :-

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون :

١٨. البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب :-

لأبي عذاري المراكشي ط بيروت ١٩٥٠ م .

١٩. تاريخ الأدب العربي :-

مصطفى صادق الرافعي - ط القاهرة .

٢٠. تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) :-

للدكتور إحسان عباس ط السادسة - دار الثقافة ١٩٨١ م .

٢١. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين :-

للدكتور إحسان عباس ط الخامسة - دار الثقافة ١٩٧٨ م .

٢٢. تاريخ الأدب العربي في الأندلس :-

للشيخ إبراهيم أبو الخشب ط دار الفكر العربي القاهرة .

٢٣. تاريخ إفتتاح الأندلس :-

لإبن القوطية القرطبي - تحقيق عبد الله الطباع ط بيروت

٢٤. تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس :-

د . السيد عبد العزيز سالم الأسكندرية ١٩٩٨ م .

٢٥. تاريخ الفكر الأندلسي :-
لأنجيل جنتالت ترجم حسين مؤنس ط القاهرة ١٩٥٥ م .
٢٦. تاريخ مدينة المرية الإسلامية :-
للدكتور السيد عبد العزيز سالم طبعة النهضة العربية بيروت .
٢٧. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة
دكتور السيد عبد العزيز سالم - دار طباعة المعارف - بيروت .
٢٨. تاريخ الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة :-
ط دمشق ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
٢٩. التجديد في النثر الأندلسي :-
لمصطفى محمد أحمد على السيوفي ١٩١٨ م .
٣٠. توشيح التوشيح :-
لصلاح الدين الصفدي تحقيق البير مطلق ط بيروت ١٩٦٦ م
٣١. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس :-
لإبن عبد الله الحميدي تحقيق محمد الطنجي ط دار السعادة - مصر
ط دار السعادة مصر ١٩٣٨ م .
٣٢. جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك :-
لعبد الله بن عبد العزيز محمد البكري - تحقيق عبد الرحمن علي الحجري
- بيروت ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٨ م .
٣٣. جمهرة أنساب العرب :-
لإبن حزم الظاهري - تحقيق عبد السلام هارون ط دار المعارف
- مصر ١٩٦٢ م .
٣٤. جيش التوشيح :-
لإبن الخطيب - تحقيق هلال ناجي وآخر ط تونس ١٩٦٧ م .
٣٥. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية :-
للأمير شكير أرسلان . مشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٨٥١ م .

٣٦. الحلة السراء :-
- لابن عبد الله بن محمد بن الأبار القضاعي - تحقيق دوزي ط ليدن ١٨٥١ م .
٣٧. ابن حميدي الصقلي :-
- لعلي مصطفى المصراطي - ط دار مكتبة الفكر - ليبيا .
٣٨. حي بن يقظان :-
- لأبي بكر بن طفيل ط المعارف مصر - ط النيل ، مصر .
٣٩. حي بن يقظان :-
- لابن سيناء وابن طفيل والسهوروي بتحقيق أحمد أمين ط دار المعارف ١٩٦٦ م
٤٠. حي بن يقظان :-
- لابن طفيل الأندلسي مع مقدمة للدكتورين جميل صليبا وكامل عياد
ط جامعة دمشق ١٩٦٢ م .
٤١. ابن خفاجة الأندلسي (حياته وأدبه) :-
- للدكتور علي سلامة .
٤٢. الخيال الشعري عند العرب :-
- كولدرج .
٤٣. دلائل الإعجاز :-
- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبوبكر الجرجاني
تحقيق محمود محمد شاكر - مصر ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .
٤٤. دولة الإسلام في الأندلس :-
- لمحمد عبد الله عنان - لجنة التأليف والترجمة ط القاهرة ١٣٦٢ هـ .
٤٥. دولة الأندلس :-
- منذ قيامها حتى الفتح المرابطي محمد عبد الله - عنان لجنة
التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٠ م .
٤٦. دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي :-
- لمحمد عبد الله عنان - لجنة التأليف والترجمة ط القاهرة ١٩٦٠ م .

٤٧. ديوان المتنبي :-

تحقيق عبد الوهاب عزام ط القاهرة ١٩٤٤ م .

٤٨. ديوان المتنبي :-

المعروف بالتبنيان في شرح الديوان - شرح أبي البقاء العكبري تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإياري عبد الحفيظ شعبي مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
٤٩. ديوان المعتمد بن عباد :-

تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ط القاهرة ١٩٥١ م .

٥٠. ديوان ابن حمديس الصقلي :-

طبعة بيروت ١٩٥٦ م .

٥١. ديوان بن خفاجة الأندلسي :-

تحقيق د/ السيد مصطفى غازي ط دار المعارف الإسكندرية

١٩٦٠ م .

٥٢. ديوان أبي دراج القسطلي :-

تحقيق د/ محمود مكي ط دمشق ١٩٦١ م .

٥٣. ديوان أبي الزقاق البلسني :-

ط. دار الثقافة بيروت .

٥٤. ديوان ابن زيدون :-

تحقيق علي عبد العظيم ط القاهرة ١٩١٨ م .

٥٥. ديوان ابن سهل الأندلسي :-

د . إحسان عباس - دار صادر بيروت - لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

٥٩. ديوان ابن شهيد :-

جمعة يعقوب جمعة سلسلة تراثنا - القاهرة

٦٠. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة :-

لإبن بسام الشنتريني تحقيق د . إحسان عباس - الدار العربية للكتاب

- ليبيا / تونس .

٦١. رحلة الأندلس :-

للدكتور حسين مونس ط القاهرة ١٩٦٣ م .

٦٢. رسالة التوابع والزوابع :-

لأبي عامر بن شهيد - تقديم بطرس البستاني ط بيروت .

٦٣. رسالة الغفران :-

لأبي العلاء المعري تحقيق الدكتورة عائشة بنت الشاطي ط القاهرة ١٩٥٧ م .

٦٤. ابن زيدون :-

للدكتور شوقي ضيف سلسلة نوابع الفكر دار المعارف القاهرة ط ٢ - ١٩٦٠ م .

٦٥. سر الفصاحة :-

أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد سنان الخفاجي الحلبي تحقيق علي فودة

مصر ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

٦٦. شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون :-

لجمال الدين بن نباتة المتوفي عام ٧٦٨ هـ دار الفكر العربي - القاهرة .

٦٧. سقط الزند :-

لأبي العلاء المعري ط دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م - ١٩٤٨ م .

٦٨. الشاعرة القرناطية في عصر الموحدين حفصة بنت الحاج :-

للفونس دي جياكومو ط باريس ١٩٤٩ م .

٦٩. شرح المعلقات السبع :-

أبو عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني ت ٤٨٦ هـ مكتبة بيروت .

٧٠. الشعر والتجربة :-

أرشيبالد مكليش ترجمة سلمى الخضراء - دار اليقظة العربية - بيروت ١٩٦٣ م .

٧١. الشعر النسوي في الأندلس :-

محمد المنتصر الريسوني - بيروت - لبنان ١٣٩٠ هـ .

٧٢. الشعر والشعراء :-

أبو عبد الله محمد بن سالم بن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر مصر ١٩٦٦ م .

٧٣. الشعر العربي في الأندلس :-
كراتشكو فسكي ترجمة الدكتور محمد منير مرسي - القاهرة ١٩٧١ م
٧٤. صورة الأرض :-
لإبن حوقل مطبعة ليدن ١٩٧٠ م .
٧٥. صفة جزيرة الأندلس :-
عبد المنعم الحميدي -الدار المصرية لتأليف والترجمة .
٧٦. الصناعتين :-
أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري تحقيق الدكتور مفيد قميحة - بيروت
وعلي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم - مصر ١٩٦٦ م .
٧٧. طبقات فحول الشعراء :-
إبن سلام محمد الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر- مصر ١٩٧٤ م .
٧٨. الطراز :-
يحيى بن حمزة علي بن إبراهيم العلوي -بيروت -١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
٧٩. العرب في صقلية (دراسة في التاريخ والأدب) :-
للدكتور إحسان عباس ط دار المعارف بمصر .
٨٠. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس :-
لمحمد عبد الله عنان ط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٤ م .
٨١. العقد الفريد :-
لأحمد بن محمد بن عبد ربه ط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة .
٨٢. العمدة في صناعة الشعر ونقده :-
لإبن رشيد القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط القاهرة .
٨٣. عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم :-
د . محمد الحارث ط ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .
٨٤. عيار الشعر :-
إبن طباطبا محمد بن إبراهيم العلوي تحقيق إحسان عبد الستار - بيروت .

٨٥. فجر الأندلس :-

للدكتور حسين مؤنس ط القاهرة ١٩٥٩ م .

٨٦. فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين :-

للدكتور حكمت علي الأوسي ط بغداد .

٨٧. فضائل الأندلس وأهلها :-

ثلاث رسائل لإبن حزم وإبن سعيد القشقلندي - جمعها ونشرها الدكتور صلاح

الدين المنجد - دار الكتاب الجديد - بيروت .

٨٨. فن الشعر :-

أرسطو طاليس ترجمة عبد الرحمن بدوي - بيروت ١٩٧٣ م .

٨٩. فن التوشيح :-

للدكتور مصطفى عوض الكريم ط بيروت ١٩٥٩ م .

٩٠. الفن ومذاهبه في الشعر العربي :-

للدكتور شوقي ضيف ط القاهرة ١٩٤٣ م .

٩١. الفهرسة :-

لأبي محمد بن خيرة ط سرقسطة ج - (١) - ١٨٩٤ م .

٩٢. في الأدب الأندلسي :-

د . جودت الركابي ط الرابعة - دار المعارف - بمصر .

٩٣. النقد الأدبي :-

شوقي ضيف ط دار المعارف - مصر ١٩٧٧ م .

٩٤. قرطبة حاضرة الخلافة الأندلسية :-

دكتور السيد عبد العزيز سالم - ط بيروت ١٩٧١ م .

٩٥. قصة الأدب في الأندلس :-

لمحمد عبد المنعم خفاجة - منشورات دار المعارف - بيروت .

٩٦. فلاند العقيان ومحاسن الأعيان :-

للفتح بن خاقان - ط القاهرة ١٢٨٣ هـ .

٩٧. قواعد الشعر :-

لأرسطو طاليس - تحقيق عبد المنعم خفاجة مصر ١٩٤٨ م .

٩٨. كولردج (سلسلة نوابغ الفكر العربي) :-

د . مصطفى بدوي دار المعارف القاهرة ١٩٥٨ م .

٩٩. لسان العرب .

محمد مكرم علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور .

١٠٠. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :-

لضياء الدين بن الأثير تحقيق أحمد الحوفي ود بدوي طبانة مصر

١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م

١٠١. المجمل في تاريخ الأندلس :-

للأستاذ عبد الحميد العبادي ط النهضة القاهرة .

١٠٢. محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها :-

لليفي بروفنسال ترجمة دكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ط القاهرة .

١٠٣. المختار من الشعر الأندلسي :-

د. محمد رضوان الداية - دار الفكر المعاصر - بيروت ط ٣ -

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

١٠٤. المعتمد بن عباد :-

لعلي أدهم سلسلة أعلام العرب رقم ٢ القاهرة .

١٠٥. مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس :-

للفتح بن خاقان القيسي ١٣٠٢ هـ - ط القاهرة ١٣٢٥ هـ .

١٠٦. معجم الأدياء :-

لياقوت الحموي ط دار المعارف القاهرة .

١٠٧. المغرب في حلى المغرب :-

لأبي محمد الحجاري وعبد الملك بن سعيد وآخرين - تحقيق الدكتور /

شوقي ضيف ط دار المعارف القاهرة .

١٠٨. المقتبس في أخبار الأندلس من الفترة ٣٦٠ - ٣٦٤ هـ :-
لأبي مروان بن حيان بن خلف بن حيان القرطبي المتوفي عام ٣٧٧ هـ
تحقيق عبد الرحمن الحجي ط دار الثقافة - بيروت .
١٠٩. المقتضب :-
لأبي الأبار القضاعي - أخبار أبي إسحق إبراهيم بن محمد التلبيفي -
تحقيق إبراهيم الإيباري المطبعة الأميرية ١٩٥٧ م .
١١٠. مقدمة ابن خلدون (عبد الرحمن) :-
تحقيق المستشرق كاترمير ط باريس ١٨٥٨ م .
١١١. ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري :-
د. مصطفى محمد أحمد علي السيوفي - الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
١١٢. مناهج التأليف عند العلماء العرب :-
د. مصطفى الشكعة - دار العلم للملايين ١٩٨٩ م .
١١٣. منتخبات من الشعر الأندلسي :-
ل. أ. ر نيكل ط بيروت ١٩٤٩ م .
١١٤. منهاج البلغاء وسراج الأدباء :-
حازم بن محمد بن حسن أبو الحسن القرطاجني - تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة
- تونس ١٩٦٦ م .
١١٥. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري :-
أبو القاسم الحسن بن بشر الأموي - تحقيق أحمد صغر دار المعارف القاهرة ١٩٨١ م .
١١٦. موسيقى الشعر :-
إبراهيم أنيس ط دار القلم بيروت .
١١٧. الموشحات الأندلسية (نشأتها وتطورها) :-
لسليم الحلو منشورات الحياة - بيروت .
١١٨. الموشحات العراقية :-
لرضا محسن القرشي - رسالة ماجستير من جامعة عين شمس .

١١٩. الموشحة :-

للدكتور مصطفى عوض الكريم ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٥ م .

١٢٠. نصوص عن الأندلس :-

تأليف أحمد بن عمر العذري - تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني .

١٢١. نظرية الأدب :-

أحمد السعدني - مكتبة الطليعة القاهرة ١٩٧٩ م - مدريد ١٩٦٥ م .

١٢٢. نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب :-

لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني المتوفي عام ١٠٤١ هـ - تحقيق

الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد دار الكتاب العربي - بيروت .

١٢٣. النقد الأدبي :-

أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٣ م .

١٢٤. النقد الأدبي الحديث :-

د. محمد غنيمي هلال دار نهضة مصر - القاهرة دار الثقافة ودار العودة

- بيروت ١٩٧٣ م .

١٢٥. نقد الشعر :-

قدامة بن جعفر تحقيق دكتور محمد عبد المنعم خفاجي - مكتبة الكليات

الأزهرية القاهرة ١٩٨٠ م .

١٢٦. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين :-

لمحمد عبد الله عنان ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦ م .

١٢٧. الوساطة بين المتبني وخصومة :-

أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني - تحقيق وشرح أحمد عارف الزين .

١٢٨. وفيات الأعيان في أبناء أبناء الزمان :-

لإبن خلكان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط النهضة القاهرة ط الثقافة

بيروت تحقيق د. إحسان عباس .

١٢٩. يتيمة الدهر :-

لأبي منصور الثعالبي - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط القاهرة .

رسائل جامعية مخطوطة

١/ تيارات النقد الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري - مصطفى عليان عبد

الرحيم - رسالة دكتوراة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٧٢م .

٢/ ابن خفاجة الأندلسي حياته وأدبه للدكتور علي محمد سلامة - رسالة دكتوراة .

٣/ ابن زيدون السفير الوسيط بمناسبة الإحتفال الألفي لولادة وابن زيدون ٣٩٣ - ٤٦٣ هـ - الرباط المغرب في ١٧ تشرين الأول أكتوبر ١٩٧٥م .

٤/ الشعر الأندلسي تطوره وخصائصه - رسالة ماجستير

أميليو جاسية جومس - ترجمة الدكتور حسين مؤنس .

سلسلة الألف كتاب - القاهرة

٥/ الموشحات العراقية :-

لرضا محسن القرشي - رسالة ماجستير - جامعة عين شمس ١٩٨٣م .

الدوريات

- ١- أخبار الغناء والمغنين في الأندلس د. إحسان عباس الجزء الأول عدد آذار سنة ١٩٦٣م الجامعة الأمريكية بيروت .
- ٢- الأدب الأندلسي نقلا عن مجلة الأندلس العدد الثالث عشر سنة ١٩٥٢م .
- ٣- الوافدين لابن بسام - حازم عبد الله خضر - عدد حزيران ١٩٧٤م الموصل .
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية
- ٤- التأثيرات المشرقية ومدى أثرها في تكوين الثقافة الأندلسية د. محمود مكي
مجلة ٩ - ١٩٦١ - ١٩٦٢ مدريد .
- ٥ - المكتبات في أسبانيا الإسلامية :-
للأستاذ خوليان ريبيرا - ترجمة الدكتور جمال محمد محرز مجلة معهد المخطوطات
المجلد الرابع الجزء الأول والثاني .

الوثائق

- وثائق عربية غرناطية لويس سيكو دي لوثينا ط مدريد ١٩٦١م .

المراجع الأجنبية

- 1- Critical edition of (the Geography
of Al – Andalus and Europe)
From the book (Al – Masalik Wal – Mamalik)
by Abu Ubayad – Baki di 487 = 1094
- 2-Coleridge Samuel Taylar .
Biographia literaria , London .
T.M .Date 1947
- 3 – R. S . Critics and criticism p , 440
- 4 – Spender :-
The making of a poem . p . 40
- 5 – W. Wright.
A grammar of the Arabic part fourth

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
البسمة.....	أ.....
إفتتاحية.....	ب.....
الإهداء.....	ج.....
شكر وعرفان.....	د.....
المقدمة.....	أ.....

الفصل الأول :

الأندلس زماناً ومكاناً وأحوالاً

(١-١) الموقع والبيئة والجغرافية.....	١٣.....
الطبيعة والمناخ.....	١٥.....
الفتح العربي الإسلامي.....	١٦.....
(٢-١) الحياة السياسية	
الأطوار التي مرت بها الأندلس بعد الفتح.....	٢٢.....
عصور الولاية.....	٢٢.....
الهزيمة والخروج المهن.....	٣٥.....
(٣-١) الحياة الاجتماعية	
الحضارة والرقى.....	٤٤.....
المرأة في المجتمع الأندلسي.....	٥٢.....
(٤-١) الحياة العقلية والعلمية في العصور الأندلسية وامتزاج الثقافات.....	٥٦.....

الفصل الثاني :

حياة اللغة العربية وأدبها

(١-٢) نهضة اللغة العربية ومظاهرها.....	٦٨.....
(٢-٢) النثر وفنونه وأشكاله.....	٧٩.....
(٣-٢) القصة	
١- قصة حي بن يقظان.....	٨١.....

٢- قصة طوق الحمامة ٨٥

(٤-٢) الرسائل

١- الرسالة الجدية والهزلية لابن زيدون ٩٠

٢- رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد ٩٩

الفصل الثالث :

الشعر في الأندلس

(١-٣) أبرز موضوعاته وأغراضه ١٠٨

(٢-٣) خصائصه ومميزاته ١٤٢

(٣-٣) أشهر اعلامه ١٤٧

الفصل الرابع :

دور المرأة في الشعر الأندلسي

(١-٤) الشاعرات الحرائر ١٧٦

(٢-٤) الشاعرات القيان الوافدات ٢٢٥

(٣-٤) الشاعرات الإماء ٢٣٥

(٤-٤) أدبيات الأندلس ٢٤٣

الفصل الخامس :

الدراسة الفنية للشعر الأندلسي بعامة والنسوي بخاصة

(١-٥) بناء القصيدة ٢٥٥

(٢-٥) اللغة والألفاظ والأساليب ٢٧٥

(٣-٥) الصور والأخيلة ٢٥٧

(٤-٥) الموسيقى والاوزان والقوافي ٢٩١

(٥-٥) الموشحات ٣٠١

الخاتمة والنتائج والتوصيات ٣١٣

المصادر والمراجع ٣١٧

فهرس الموضوعات ٣٣١